



سَلْطَنَةُ عُثْمَانِ
وَزَارَةُ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيِّ وَالشَّعَائِفِ

الْإِسْلَامُ فِي الْفِرَقِ وَالْأَنْبِيَاءِ

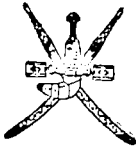
عَنْ كِتَابِ الْإِسْلَامِ فِي الْفِرَقِ وَالْأَنْبِيَاءِ

تأليف

عَلِي بَيْتِيقِ مَعْمَرٍ

الجزء الأول

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة

الإباضية بين الفرق الإسلامية

عند كتاب المفاصلة في القديم والحديث

تأليف

علي يحيى معمر

الجزء الأول

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

قرآن کریم

سورة النمل الآية (۱۹)

يا أخى فى الله !! •

أخى فى الله ! أرجو أن تقرأ هذه الفصول المعروضة بين يديك فى هذا الكتاب محتسبا أجرك على الله • وأن تأخذ منها ما استبان لك أنه الحق بحفاوة • وأن تنبذ ما استبان لك أنه الباطل على طول يدك ، وأن تترن كل ذلك بالميزان الدقيق الذى لا يخطئ من قوله تعالى : « فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » •

وأن تضع فى اعتبارك أننى أرى أن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تقف متساوية على صعيد واحد ، فليس فيها — بصفتها الجماعية — فرقة أفضل من فرقة ، ولا مذهب خيرا من مذهب • وأن فى المنتمين الى كل فرقة أو مذهب أتقياء بررة ، وأشقياء فجرة ، وسوادا أعظم وهو وسط بين ذلك •

وأن تعلم أن النقاش الذى جرى على قلمى — فى شدته ولينه ، وفى قسوته ورفقه — لا أريد به الدعوة الى المذهبية ، ولا الدفاع عن مذهبية ، وإنما أريد به تحطيم المذهبية • وأنا على يقين — فى نفسى — أن المذهبية فى الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة • ولا تتحطم بالقانون فإن هذه الوسائل لا تزيدنا الا شدة فى التعصب وقوة فى رد الفعل • وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف • فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به • وبالتعارف يشتركون فى السلوك والأداء الجماعى للعبادات وبالاقرار يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحق الذى يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفى ظل الأخوة والسماح تغيب

التحدييات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل
الثابت في الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهباً أو اعتنقت
مذهباً •

ولن نصل الى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم أتباع جابر وأبى
حنيفة ومالك والشافعي وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس
أن أئمتهم أيضا يقفون في صعيد واحد لا مزية لأحدهم على الآخرين
الا بمقدار ما قدم من عمل خالص لله •

قيل عن الإباضية

« وكل من ينتمى الإباضية بالزيغ والضلال ، فهو ممن فرقوا دينهم ،
وكانوا شيعة ، ومن الظالمين الجاهل ، جمع الله ما فرقوا ورتق ما فتقوا ،
ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط بالكافرين »

خلاصة الرسائل في ترتيب المسائل طبعة سنة ١٣٥٦ هـ

عضو المجمع العلمى العربى عز الدين التتوخى

« وإذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد في الماضي ، فلا زالوا كذلك في
عصرنا الحاضر » •

إسلام بلا مذاهب : مصطفى الشكعة

« ومن كل هذا يتبين • اعتدالهم وإنصافهم لمخالفهم » •

كتاب المذاهب الإسلامية : محمد أحمد أبو زهرة

• « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » •

الكامل : المبرد

• « ورجال الإباضية يضرب بهم المثل في التقوى والصلاح والزهد » •

تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الأفريقية : يحيى هويدي

• « إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية — أهل الإستقامة — من الدعابات الفاجرة التي نشأت عن التعصب السياسي أولا ثم المذهبي ثانيا » •

أبو إسحاق طنيثش

• « يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية في تأصيل قضايا العقيدة » •

بيوض إبراهيم بن عمر

مقدمة

اختار بعض من كتب عن عقائد الفرق الإسلامية وآرائها ومذاهبها من الكتاب القدماء — كلمة المقالات — فأطلقها على ما ذهبت إليه كل فرقة في ذلك ، وأحسب أن اختيارهم لاستعمال هذه الكلمة في هذا المجال كان موفقاً جداً ، فان موافقهم — رغم ما فيها — لا تزيد عن مقالات •

وعندما يرجع الباحث اليوم الى أكثر تلك المقالات التي توزع فيها المسلمون ، وتشتتوا الى فرق لا حصر لها ، يضرب بعضها بالبعض ، حسبما تقتضيه ظروف كل عصر ، يجد أن الجزء الأكبر منها لا يعدو مواضيع سياسية معينة ، تتناول بعض قضايا الحكم ، أو مشاكل التعامل بين المتخالفين في رأى أو وجهة نظر معينة •

والحقيقة أن بعض الأقلام كانت مولعة بتكثير أصحاب المقالات ، فما تسمع بنقاش جرى بين اثنين حتى تسارع فتجعل لكل واحد منهما فرقة وتجعله إماماً أو رئيساً لتلك الفرقة •

والشواهد على ذلك في كتب المقالات كثيرة وقد يجد القارئ في هذا الكتاب صوراً منها •

ولا شك أن أصابع السياسة وراء هذا كله — وسواء في ذلك السياسات الحاكمة أو السياسات المضادة لها — ولا شك أيضاً أن الأقلام التي تناولت ذلك سارت دون وعى — في أكثر الحالات — في ركاب سياسة مخططة فحققت لها كثيراً من المقاصد والأهداف •

ويلاحظ الدارس لهذا الموضوع ، أن كثيراً من الأشخاص الذين اعتبروا أئمة لفرق ، ونسبت إليهم أقوال في قضايا الساعة ليسوا — على

أحسن التقديرات — إلا رجالا من العوام أو أشباه العوام ، يملكون
السنة حادة ، أو سيوفا قاطعة ، أو إرادات صلبة ، فهم في نظر السياسة
خطر على أمن الدولة ، أى — على كراسى الحكم — • ومع ذلك فقد
نسبت إليهم مقالات شاذة في قضايا تشغل فكر الجماهير في ذلك الحين ،
فهل كانوا حقاً يقولون بها ، وهل كانوا حقاً في المستوى العلمى الذى
يتيح لهم أن يصدروا أحكاماً في مثل هذه المسائل الدقيقة ؟ أم إن السياسة
المأكرة هى التى استطاعت أن تقول لهم أو تدس عليهم ذلك • ثم توجه
إليهم الأنظار •• أنظار النفرة والكراهية ، فنجحت في إدانتهم وإبعاد
الناس عنهم •

والباحث اليوم عندما يعود إلى التنقيب عن هذا الموضوع يرى
عجبا • فرق كاملة بأئمتها وأقوالها وواقفها الحاسمة لا يعثر لها على
أثر أبداً إلا ما يقصه عنها خصومها في كثير من المبالغات •

عندما كنت أقرأ في كتب المقالات ما يتصل بالإباضية تصادفنى
عجائب في العقائد والآراء والأقوال تنسب إليهم ، إما بعبارات واضحة
صريحة أو بأساليب ملتوية ، ولكنها معبرة ، وتصادفنى كذلك أسماء
لأشخاص كثيرين يعتبرون أئمة لهم ، وأنا على يقين كامل بأن ذلك غير
موجود عند الإباضية • فإذا كانت هذه الحال مع فرقة ينتشر أتباعها
في كثير من البلاد الإسلامية ، ولا يخلو قطر من أقطارها من كتبهم ،
فكيف الحال مع من إنقرض فلم يبق له أتباع ، ولم يترك كتباً مصنفة
فيما يختص به ، وإنما عاش — إن صح هذا — يطفح على ميدان الحياة
حتى طواه مروج الزمن في ذكرى التاريخ المجردة •

لقد أصاب الإباضية من كتاب المقالات كثير من الأذى ، قد لا يكون
مقصودا ، ولكنه واقع ، وقد أحدث بالفعل فجوة بينهم وبين إخوتهم
في بقية المذاهب ، كانت متسعة في الماضى وأصبحت تضيق • ونرجوا

أن تتمهد وتزول في هذا العصر الذى يجب أن يتلاقى المسلمون فيه على وحدة العقيدة ، ووحدة العمل ووحدة السلوك ، في مجابهة أعداء الإسلام ، مع مراعاة صادقة لحرية الرأى والفكر ، واحترام كامل لجميع أئمة المسلمين وعلمائهم السابقين • دون تهجم أو انتقاص ، ودون تقديس أو تعظيم (١) •

وفي هذا الكتاب حاولت أن أرافق بعض الكتاب من القدماء والمعاصرين ، لتتعاون على وضع هذه الفرقة من المسامين (الإباضية) في مكانها الحقيقي من الأمة الإسلامية • واضعا في اعتبارى أن الكتاب القدماء يسعهم من العذر ما لا يسع الكتاب المعاصرين وإن أخطاء أولئك في كثير من الأحيان ينتج عن عدم وجود الوسائل في حين أن جميع الوسائل متوافرة لدى الكتاب المعاصرين • أما المستشرقون فلهم دوافعهم الخاصة للكتابة عن الإسلام والمسلمين • ومناقشاتي في جميع الفصول لجميع هؤلاء قد تتأثر بهذه الاعتبارات فيتغير الأسلوب من كاتب الى كاتب •

يشتمل الكتاب على ستة أقسام غير المقدمات كل قسم يحتوى على عدد من الفصول :

- القسم الأول : مع القدماء •
- القسم الثانى : مع المعاصرين •
- القسم الثالث : مع المستشرقين •
- القسم الرابع : آراء للإباضية •
- القسم الخامس مفاهيم يجب أن تختفى •

(١) المقصود بهذه الكلمة اعتبار أى امام أو ولى معصوما أو كالمعصوم •

القسم السادس : ملاحظات وتعاليق •

أرجو أن أكون قد استطعت أن أضع بين يدي القارئ الذى يهمه أمر الأمة الإسلامية جمعاء صورة واضحة لمكان الإباضية فيها ، وأن أصحح بعض الأخطاء عنها توارثتها الأجيال ، وتعاون على تضخمها التعصب من جهة ، والجمود والتوقع من جهة أخرى •

ويهمنى أن أذكر أنه يوجد خلاف بين الإباضية وغيرهم من المذاهب فى عدد من المسائل كما يوجد خلاف بين الحنفية وغيرهم والشافعية وغيرهم والمالكية وغيرهم وكما يوجد خلاف بين بقية المذاهب وبين علماء كل واحد من هذه المذاهب فيما بينهم • ولكن يهمنى أيضا أن أذكر أن هذا الخلاف فى مجموع صورة وموضوعاته إنما نتج عن أساسين •

الأول : فهم الأئمة والعلماء للأدلة فى نصوصها الثابتة من الكتاب والسنة •

الثانى : حرص أولئك العلماء والأئمة على إصابة الحق فى الفهم والاستدلال والعمل بالمقاصد الحقيقية للشريعة الإسلامية • وليس فى هذين الأساسين اللذين نتج عنهما الخلاف ما يدعو الى الخصومة أو القطعية •

نضع الى المولى تبارك وتعالى أن يلهم هذه الأمة رشدًا ويوحد صفها وينصرها على المتربصين بها •
٢٥ مارس ١٩٧٢

الباب الأول

الإباضية في قفص الاتهام

- ✱ مع القدماء •
- ✱ الإباضية عند الأشعرى •
- ✱ تشنيعات الأشعرى على الإباضية •
- ✱ مقالات الإباضية عند الأشعرى •
- ✱ البغدادى والإباضية •
- ✱ ابن حزم والإباضية •
- ✱ أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية •
- ✱ أبو الفتح الشهرستانى والإباضية •

الإباضية في قفص الاتهام

ان وضع الإباضية بالنسبة الى إخوانهم من المذاهب الأخرى وضع غريب • فبرغم أنهم يعيشون في بعض البلاد مندمجين مختلطين باخوانهم من المذاهب الأخرى ، يتعاملون معهم في جميع شؤون الحياة كما يتعامل بعضهم مع بعض • وتربط الكثير منهم علاقات مودة وصداقة أو ثقت كثيرأ مما تربط أهل المذهب الواحد ، ويتصرف أولئك الإباضيون في المجتمع تصرف المسلم الطبيعي ، لا يخفى ولا يشذ شيء من سلوكهم الديني أو المدني ، ولا ينقم عليهم إخوانهم أولئك الذين يعيشون معهم في السراء والضراء ، بدعة يعرفونها ، أو انحرافا يرونه ، أو خلافا يدعو الى سوء الظن • رغم كل هذا فان تلك الكلمة التي أطققتها عليهم شفة مغرصة مجهولة ، في فترة كانت السياسة تلعب فيها أهم الأدوار في توجيه الفهم لمن ينتقد انحرافا عن منهج العدول من أصحاب رسول الله ﷺ ، منذ ذلك التاريخ في العصر الأموي — فيما يبدو — والإباضية يقفون في قفص الاتهام — يقاسون ألم الجفاء من إخوانهم لأنهم — فيما ترعم تلك التهمة الظالمة — (خورج) ومن المؤسف أن أكثر الكتاب — سواء كانوا كتاب مقالات في العقائد ، أو كتاب تاريخ يتتبعون مجارى الأحداث السياسية — وقفوا بالنسبة الى الإباضية موقف المدعى العام الذى يعتقد أن نجاح مرافعته يتوقف على إثبات التهمة أو قاضى التحقيق الذى يهمه أن يضع أوزار الجريمة على من ساقته الظروف إليه • ووضعته التحريات بين يديه •

فهم يضعون هذا المذهب وأتباعه في قفص الاتهام أولا ، ويحكمون عليهم بأنهم مخطئون لأنهم خوراج ، وبعد ذلك قد يبحثون عن الأدلة ، ولكن لإثبات هذه التهمة • لا لمعرفة الحقيقة •

وعندما يتقدم الإباضية بعرض عقائدهم وآرائهم والأدلة الشرعية التى استندوا إليها ، ويبينون سيرتهم وسلوكهم ، يعتبر كل ذلك منهم

كلاما في موقف الدفاع ، لا يجوز على القاضى الذكى • فهو لا يسمعه ، ولا ينظر فيه ، وإذا استمع إليه فلكى يلتقط منه جملا تعزز التهمة ، وقد يحرفها قليلا حتى تكون صالحة كدليل للإثبات •

وقد يعرض الإباضية عقيدة أو رأيا لهم بأدلته وبراهينه وهو في نفس الأمر يوافق عقيدة القاضى • ولكن القاضى يصر مع ذلك أن القوم مخطئون وأن ما يقولونه إنما هو كلام للدفاع • ثم يحكم برفض الدفاع ، وإثبات الدعوى ، لا لشيء إلا لأنهم حسبما بلغ الى علمه (خوارج) وحتى عندما يقول الإباضية عن عقيدة أو رأى بأنه عندهم كفر وخروج من الملة ، فإن هذا القول لا يقبل منهم ، ويستمر إثباته لهم ومحاسبتهم عليه • وقد يبرأون من رجل ومن أعماله وأقواله ممن لا ينتمى إليهم ولكن يقال لهم أيضا : بل هذا الرجل من أئمتكم • ولو أنكرتم ذلك •

والمشكلة أن رافعى الإتهام لا يحاولوا أبداً أن يبحثوا عن الحقيقة ، ولا أن يرجعوا في تحقيقهم الى مصادر الإباضية ، وإنما يتناقون التهمة بنصها من جيل الى جيل دون اعتبار لصراخ المتهم الموجود في القفص أو اهتمام به أو سماع لدفاعه •

وفي عصرنا هذا اهتم عدد من كتاب المقالات ، ومحققى الكتب : بشئون الفرق الإسلامية ، وعرض بعضهم فيما عرض للإباضية ، وبين يديه كتب قيمة لهم يستطيع أن يتخذها مراجع يستقى منها أقوالهم ويستطيع أن يعرف فيها أصول ديانتهم وفروعها ويصحح — متأكداً — ما يجده من أخطاء عنهم في غيرها • والى جانبه علماء فضلاء منهم في إمكانهم أن ييسروا له الوصول الى الحق ولكنه في الواقع يزور عن ذلك ، ولا يرجع الى تلك الكتب ، ولا الى أولئك العلماء ، وإنما يعود بالتفتيش الى كتب ليست لهم وإنما كتبها غيرهم عنهم من ظروف مجهولة ، هي غالبا لا تسلم من الأخطاء عن حسن النية إن سلمت من سوء النية ، بل هي عرضة للأخطاء من عدة جوانب منها :

١ - عدم توافر النزاهة الكاملة في الكاتب •

٢ - سيطرة آراء معينة على الكاتب تجعله غير مستعد لفهم غيرها
أو حتى مجرد مناقشتها •

٣ - كفاءة الدراسة والتحقيق قد لا تكون عنده بالدرجة التي يفرق
بها بين الصواب والخطأ •

٤ - المصادر التي يستقى منها ويعتمد عليها - سواء كانت كتباً أم
بشراً - قد تكون مغرصة ، وقد تكون مستغلة ، وقد تكون مستغلة ، وقد
تكون جاهلة للحقيقة ما تثبت •

٥ - وسائل الإتصال التي تساعد على البحث والوصول إلى الحقيقة
بالإتصال الشخصي المباشر كانت غير سهلة ولا ميسورة •

٦ - النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظن ، وشدة التعصب ،
وتمسك كل بما عنده والحكم مسبقاً على الآخرين بالخطأ والضلال ،
هذه العراقيل كلها أو بعضها تجعل الوصول إلى الحقيقة عسيراً حتى
بالنسبة للنزيه الحريص على الحق ، فان سوء الظن يلقي ظلالاً من الشك
عليه لا تمكنه من الإطلاع •

٧ - الإشاعات الكاذبة ، والدعايات المضللة التي تنطلق عن دوافع
سياسية غالباً ، فتصل إلى ناس موثوق بهم ، فتجربى على ألسنتهم
أو أقلامهم ، فتتلقفها منهم الأذان دون معرفة مصدرها الحقيقي ،
والدوافع السياسية الماكرة إلى الإيحاء بها •

هذه بعض الجوانب التي كانت تؤثر على الكتاب الأقدمين ، وقد

انتبه إليها بعضهم ، وعرف مدى تأثيرها على المؤلفين ، وما يتسبب عنها من أباطيل تلتصق بطوائف من المسلمين هم منها أبرياء .

يقول أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري (١) ما يلي :

« ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ، ويصنفون في النحل والديانات ، من بين مقصر فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره من قول مخالفه ، ومن بين معتمد للكذب في الحكاية ، إرادة التشنيع على من يخالفه ، ومن بين تارك للتقصي لروايته فيما يرويهِ ، من اختلاف المختلفين ، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفه ما يظن أن الحجة تلزمهم به » . فأنت ترى أن أبا الحسن الأشعري — وهو من أوائل من كتب في هذا الموضوع — قد انتقد عدة عيوب في أولئك الذين يتصدون للحديث عن مخالفهم ، كالتقصير في التحقيق ، واعتماد الكذب ، والغلط ، وعدم التقصي في البحث ، والزيادة في الأقوال لإلزام المخالفين الحجة .

أما الشهرستاني كتابه (الملل والنحل) فهو لم يذكر نقدا بهذه التفاصيل وإنما أشار إليها من طرف خفي ، فقد قال ما يلي (٢) :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم ، ومن غير تعصب لهم ، ولا كرا عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » .

وهذا الكلام يشعر أن الشهرستاني رأى كما رأى الأشعري من قبله ، عدم التحقيق فيما يقال عن الفرق ، ولذلك فقد شرط على نفسه

(١) مقالات الاسلاميين طبعة النهضة ١٣٦٩ هـ صفحة : ٣٣ .

(٢) الفصل في الملل والنحل طبعة ١٣٦٨ هـ صفة ٦٠ من الجزء الاول .

(م ٢ — الاباضية)

أن يأخذ أقوال أصحاب الفرق من كتبهم ، دون التعرض لنقدها أو تصحيحها •

فهل استطاع أبو الحسن الأشعري أن يتحقق أن ما أورده عن الفرق قد سلم من تلك العيوب التي ذكرها وعزم أن يتحرز منها ، والتي انتقدها على غيره من المتحدثين والكتاب بقوة وجرأة تستدعيان أن تجاب؟! وهل استطاع الشهرستاني أن يوفي بشرطه ؟ وأن لا ينقل مقالات أهل الفرق إلا من كتبهم ومصادرهم؟! وأن يلتزم معها الحياد الكامل فلا يصوب ولا يخطئ ولا يرجح؟

ذلك ما سوف نراه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى ، ونحن نرافق هؤلاء الأئمة العظام وغيرهم في رحلة علمية ، نستمتع فيها إليهم ونقرأ لهم ، ونأخذ عنهم • ونسترشدكم في الوصول الى الحق الذي هو غاية الجميع •

القسم الأول

مع القدماء :

إن الذين كتبوا عن العقائد الإسلامية ، واستعرضوا مقالات الفرق فيها — من القدماء — عدد كبير ، وليس في وسع الدارس أن يتتبعهم جميعاً ولا أن يستحضر كل ما قالوه ، ولكن في إمكانه أن يقوم بدراسات بعضهم ، وأن يأخذهم كأمثلة أو نماذج يستدل بها على الأسلوب أو المنهج الذي سلكوه أو سلكه أكثرهم •

وبعد دراسة لموضوع الإباضية في عدد من تلك الكتب ، واستعراض لنهاجها وأساليبها في البحث ، استقر رأيي على اختيار خمسة من المؤلفين لأقوم معهم بهذه الرحلة العلمية ، التي آمل أن يجد كل قارئ يصحبنا فيها بعض المتعة إذا لم يتحصل فيها على فائدة •

وقد فضلت أن أبدأ المسير مع هؤلاء الخمسة الذين اخترتهم كنماذج حسب ترتيبهم الزمني على ما يأتي :

- ١ — أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ٢ — عبد القاهر بن طاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ
- ٣ — أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ
- ٤ — أبو المظفر شاهفور بن طاهر الأسفرايينى المتوفى سنة ٤٧١ هـ
- ٥ — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

إننى أعتقد أن هؤلاء الكتاب هم من أشهر من كتب فى هذه
المواضيع ، وكتبهم تعتبر مصادر ومراجع لا يستغنى عنها باحث فى هذا
المجال ، وكل من جاء بعدهم إنما هو عالة عليهم ، منهم يأخذ ،
أو على مناهجهم يسير •

وأما الكتب فهامى حسب ترتيبهم السابق •

١ — مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين الأئسرعى

٢ — الفرق بين الفرق البغدادى

٣ — الفصل فى المال والنحل ابن حزم

٤ — التبصير فى الدين الأسفرايينى

٥ — المال والنحل الشهرستانى

الإباضية عند الأشعرى

قد يعجب القارئ الكريم إذا قلت له : إن أبا الحسن الأشعرى رغم أنه كتب عن الإباضية كثيرا ، فإنه لا يعرف عن الإباضية شيئا ، وإن أكثر ما كتبه عنهم لا علاقة لهم به ، ولا علاقة له بهم - وليتضح للقارئ الكريم هذا القول فإننى أرجو منه أن يرافقنى قليلا ، وأن يقرأ الفصول المعقودة لدراسة أبى الحسن الأشعرى مع الإباضية •

يقول أبو الحسن الأشعرى فى كتابه (مقالات الإسلاميين) صفحة ١٧١ من الجزء الأول ما يلى :

« ومن الخوارج الإباضية :

فالفرقة الأولى منهم يقال لهم الحفصية كان إمامهم حفص بن أبى المقدام ، زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده ، فمن عرف الله سبحانه ثم كفر بما سواه من رسول أو جنة أو نار أو عمل بجميع الخبائث من قتل النفس ، واستحلال الزنى ، وسائر ما حرم الله من فروج النساء ، فهو كافر برىء من الشرك » •

واستمر الأشعرى يذكر أمثال هذه الشنائع لهذه الفرقة ثم قال : « والفرقة الثانية منهم يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد بن أنيسة » ثم ذكر آراء هذه الفرقة وشنائعها ، ومنها : « وزعم أن الله سبحانه سيبعث رسولا فى العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحدة » • ويقول بعد أسطر : « وتولى - أبى يزيد هذا - من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من أهل الكتاب ، وإن لم يدخلوا فى دينه ، ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون • ثم يقول :

« والفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الإباضية » • وبعد أن يذكر لهم جملة من التشنيعات يقول :

« والفرقة الرابعة منهم ، يقولون بطاعة لا يراد الله بها ، على مذهب أبى الهذيل ، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله ، إذا فعل شيئا أمره الله به ، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ، ولا أراد به » •

هكذا بدأ أبو الحسن الأشعرى حديثه عن الإباضية فبمجرد ما ذكرهم بدأ فى تقسيمهم الى فرق ، وجعل ينسب الى كل فرقة جملة من الآراء والأقوال •

والقارىء الكريم عندما يبدأ فى قراءة ما كتبه الأشعرى عن الإباضية يفهم أن الإباضية ينقسمون الى أربع فرق كبرى هى هذه الفرق التى ذكرها ، وأن بعض هذه الفرق قد انقسم أيضا الى فرق أخرى فرعية ، وذكر الأشعرى أقوالا أخرى وشنائع أخرى نسب بعضها الى جميع الإباضية ، ونسب بعضها الى احدى تلك الفرق •

وعند الرجوع الى كتب الإباضية التى ألفت فى عصر أبى الحسن التى ألفت قبله والتى ألفت بعده ، فإن القارىء لن يجد فيها شيئا عن هذه الفرق ، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمتها • وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عند الإباضية ، التى تتقصى أخبار أئمتها وعلمائها ومشائخها ، فإنك لن تجد ولا إشارة عابرة الى أولئك الأئمة الذين ذكرهم الأشعرى واعتبرهم أئمة لفرق كاملة من الإباضية •

واقراً ما شئت فى كتب العقائد عند الإباضية ، فإنك لن تجد ذكراً لهذه الفرق ولا لآرائها ، وكل ما نستطيع أن نعتذر به عن إيراد أبى الحسن لهذه التفاصيل أنه وقع فريسة لبعض المشنعين ، فكان يتلقى مقالات

الفرق عن ناس يثق بهم ، ولكنهم ليسوا في المحل الذي يراه لهم ويضعهم فيه من الثقة والصدق • سواء كان نقله عنهم عن طريق الرواية والسماع ، أو عن طريق القراءة والإطلاع في كتب مدونة • فهو لم يشر إلى أى ذلك على كل حال •

ويكفى فيما أعتقد لنفى أن يكون ما قاله أبو الحسن عن الإباضية صحيحا جهلهم به ، وعدم ذكرهم لأى شئ منه في مراجعهم العامة والخاصة المكتوبة والمتحدثة •

يقول أبو الحسن : « فالفرقة الأولى يقال لهم الحفصية ، كان إمامهم حفص ابن أبى المقدام ، ومع كثرة ما قلبت في كتب الإباضية ومع العناية والبحث فإننى لم أعثر على هذا الإسم الذى اعتبره أبو الحسن إماما من أئمتهم • ولم أعثر كذلك على شئ من أخبار فرقته وآرائها • وقد نسب أبو الحسن الى هذه الفرقة وإمامها أقوالا يكفى بعضها لإخراجهم من الإسلام ، والحكم عليهم بالشرك والردة ، إذا سبق أن كانوا مسلمين ، منها : إنكار النبوة ، وإنكار الجنة والنار ، ومنها استحلال الزنى وغيره مما حرمه الله ، وأشياء أخرى من هذا النوع • وهى كافية — إذا قال بها حقا — للحكم بخروجه وخروج من تبعه فيها من الإسلام • فكيف يصح أن تنسب هذه الفرقة إلى إحدى فرق المسلمين ؟ وكيف يصح أن يقال فيهم إنهم فرقة من الإباضية ؟ ! •

قد تكون هذه الفرقة موجودة ولها علاقة ما بفرقة أخرى من فرق المسلمين وقد يكون حفص هذا إماما فى أية فرقة أخرى • أما أن يكون هو وأتباعه — إن وُجدَ — وروُجِدُوا — فى الإباضية ، وأن تكون آراؤه التى ساقها أبو الحسن آراء الإباضية ، فهذا هو المستحيل بعينه • ويتصفح أى كتاب من كتب العقائد عند الإباضية سوف يتضح أن ما بها يناقض مناقضة كاملة لهذه المزايم التى ساقها أبو الحسن على لسان حفص ونسبه ونسبها الى الإباضية •

ويقول أبو الحسن الأشعري «والفرقة الثانية يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد ابن أنيسة » وذكر فيما ذكر من آراء هذه الفرقة ما يلي : « وزعم — أى يزيد بن أنيسة — أن الله سبحانه سيبعث رسولا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة ، فترك شريعة محمد ، ودان بشريعة غيرها وزعم أن ملة ذلك النبي الصابئة ، وليست هذه الصابئة التي عليها الناس اليوم ، وليس هم الصابئين الذين ذكرهم الله في القرآن ، ولم يأتوا بعد ، وتولى من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من أهل الكتاب وإن لم يدخلوا في دينه ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون » •

والغريب في الأمر أن القارئ الكريم إذا رجع إلى مصادر الإباضية من كتب وأسماء علماء منذ أوائل القرن الثاني الهجري الى هذا العصر فإنه لن يجد عند الإباضية هذا الإمام الذي سماه أبو الحسن الأشعري — يزيد بن أنيسة — ولا يجد عندهم ذكرا لفرقته ولا لآرائه ، بل إنهم يحكمون على من يدين بمثل تلك المقالات بأنه مشرك خارج عن الملة ، ومن كان مشركا خارجا عن ملة الإسلام ، لا يمكن أن يحسب في فرق المسلمين • ولست أدري كيف ساغ لأبى الحسن أن يزيد — هذا اليزيد — الى الإباضية ، وأن يحشر معهم فرقته • هذا ان وجد حقا ووجدت له فرقة — وكيف ساغ له أن يحسبها في فرق الإسلام ، وينسبها الى إحدى طوائفه وهو نفسه يحكم عليها بالخروج من الإسلام حين يقول في الفقرة السابقة : « فترك — أى يزيد بن أنيسة — شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ودان بشريعة غيرها » ويضيف أبو الحسن الفرقة الثالثة الى الإباضية فيقول :

« الفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضي ، قالوا في القدر بقول المعتزلة وخالفو فيه سائر الإباضية • وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل » •

وهذا الحارث أيضا لم يحرث عند الإباضية ولم يزرع لا آراء ولا حبوبا ولم يحصد الإباضية عنه أو عن فرقته شيئا • ان كان حقا حرث في أى مكان •

ولو أن أبا الحسن حشر هذا الحارث مع المعتزلة لكان أقرب ما دام يقول بقولهم في القدر ، ومسألة القدر هي أم المسائل في النقاش الفلسفى الذى جرى بين المذاهب الإسلامية في وقت مبكر ، وكانت المميز الواضح بين مذاهبهم والمهم الموضوع أنه لا يوجد لهذا الحارث الذى لم يجد أبو الحسن أبا فجاء به هكذا بسوقه حتى أدخله عند الإباضية وتركه • لا يوجد عند أى الإباضية أى ذكر لهذا الحارث أو رأى أو فرقة أو نسب ، ولا حتى مرور ضيافة في مراجع الإباضية مما استطعت الحصول عليه خالية منه ومن آرائه ومن فرقته فإذا كانت حقيقته وحقيقته آرائه في الواقع كما هي عند الإباضية فإنه رجل لا وجود له ولا لفرقته أما آراؤه فهي صورة في مخيلة مشنع على الإباضية ألقاها على أبى الحسن فوثق به وأثبتها في كتابه دون نقد أو تمحيص •

ويستمر أبو الحسن في تعداد فرق الإباضية فيقول :

« والفرقة الرابعة منهم يقولون بطاعة لا يراد الله بها على مذهب أبى الهذيل » ثم يشرح هذه العبارة فيقول : « معنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله إذا فعل شيئا أمره الله به وإن لم يقصد الله بذلك الفعل ولا أراد به » •

ويبدو أن أبا الحسن لم يجد لهذه الفرقة إماما ، فلم يذكر لها اماما ، وإنما جاء يسوق أتباعها كما يساق القطيع حتى أدخلهم في حظيرة الإباضية وتركهم • ولو أنه سمى هذه الفرقة بالهذلية • ما دامت تقول بقوله ، لكان لذلك وجه ، لأنه لم يذكر لهذه الفرقة قولا غير القول السابق •

وعلى كل حال فهذه فرقة ليس لها امام وليس لها اسم ، وكل ما فى الأمر أنه نسب إليها قولاً يناقض مناقضة كاملة ما عند الإباضية فى هذا الموضوع ، فكيف تكون من الإباضية وهى تقول بما يناقض رأى الإباضية مناقضة كاملة •

والباحث إذا تأمل ما جاء عن الإباضية فى كتاب « مقالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى ثم قارنه بما عند الإباضية • سواء كان ذلك يتعلق بأسماء الأئمة والعلماء ، أو بأسماء الفرق • أو بالآراء والمذاهب ، فإنه يخرج بنتيجة غريبة • وهى أن ما أتعب الإمام الكبير به نفسه ، وكتب فيه صفحات طوالاً عن الإباضية فيما يظن • لا علاقة له ألّبتة بالإباضية ، وأن أولئك الأئمة الذين زعمهم لفرق منهم ، ليسوا هم ولا فرقهم من الإباضية فى قليل ولا كثير ، إذا صح هذا التعبير • أما مقالاتهم وآراؤهم فهى ليست أقرب الى الإباضية منها الى الشافعية أو المالكية أو غيرها من المذاهب الإسلامية •

ويستطيع القارئ الكريم أن يعود الى كتب التاريخ وكتب العقائد التى ألفها الإباضية قبل أبى الحسن الأشعرى وبعده إذا شاء أن يتأكد ويعرف الحقيقة بنفسه • فقد ألف علماء الإباضية وأئمتهم الحقيقون كثيراً من الكتب فى التفسير والحديث والفقه بجميع فروعه ، وفى التوحيد وعلم الكلام ، وفى أصول الفقه كتباً مختلفة منها القيم الذى يعتبر من أهم مصادر الثقافة الإسلامية التى تشع نوراً على مختلف العصور ويعتبر من الذخائر التى تخر بها المكتبة الإسلامية العامة •

كما ألفوا فى السير والتاريخ والتراجم ، ولا سيما سير أئمة الإباضية وعلمائهم • ولكنه ليس فى شئ من هذه المؤلفات شئ مما ذكره الإمام الأشعرى عن الإباضية فى هذا الفصل من كتابه الكبير •

وفى عصر أبى الحسن الأشعرى كان الإباضية وعلماءهم منتشرين

في جميع ما يسمى اليوم بالبلاد العربية : كالحجاز والعراق والشام وجنوب الجزيرة ، ومصر • بل إنهم كانوا يكونون أغلب السكان في المغربين الإسلاميين الأدنى والأوسط • ويوجد لهم عدد من كبار العلماء — حينئذ — في كل الحواضر الإسلامية كمكة والمدينة والبصرة وعمان وحضرموت واليمن ومصر وبلدان الشمال الأفريقي •

ومع هذا فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من أئمة الإباضية كجابر بن زيد وجعفر بن السماك العبدى ، وأبى سفيان قنبر ، وصحار العبدى وأمثالهم من أئمتهم في النصف الثانى من القرن الأول ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من أئمتهم في النصف الأول من القرن الثانى أمثال أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وضمام بن السائب ، وأبى نوح صالح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والجلند بن مسعود العماني ، وأبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى وهلال بن عطية الخراسانى — وأضرابهم • ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من علماء النصف الثانى للقرن الثانى أمثال الربيع بن حبيب ، وأبى سفيان محبوب ابن الرحيل ، وأبى صفرة عبد الملك بن صفرة ، وعبد الرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وأبى الحسن الأيدلانى وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الأول للقرن الثالث أمثال أفلح بن عبد الوهاب وعبد الخالق الفزانى ومحكم الهوارى والمهنا بن جيفر ، وموسى بن على ، وأبى عيسى الخراسانى ، وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الثاني من القرن الثالث ، أمثال محمد بن محبوب ، ومحمد بن عباد ، وأصلست بن مالك ، وأبى اليقظان بن أفلح ، وأبى منصور الياش وعمرس بن فتح وهود بن محكم ، ولم يذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم في النصف الأول من القرن الرابع أمثال ابن خزر يغلى بن أيوب ، وأبى القاسم يزيد بن مخلد ، وأبى هارون موسى بن هارون ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم • وقد كان علماء هذه الطبقة والطبقة التي سبقتها معاصرين لأبى الحسن الأشعري ، لأنه عاش ثلاثين سنة من القرن الرابع فهو معاصر لعلماء النصف الثاني للقرن الثالث وعلماء النصف الأول للقرن الرابع ، ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من هؤلاء الأئمة أو ممن كان معاصرا لهم أو سبقهم من علماء وأئمة الإباضية المعروفين ولم يذكر شيئا من مقالاتهم •

فهو إما أنه لا يعرفهم ولا يعرف شيئا من مقالاتهم ، وإما أنه يعرفهم أو يعرف بعضهم على الأقل ويعرف مقالاتهم ، ولكنه لا يجد فيها شيئا يستدعي النقد والتعليق أو حتى مجرد العرض • فلم يتحدث عنهم وعن مقالاتهم بخير ولا بشر • فترك الإباضية الحقيقيين برجالهم ومقالاتهم ، وألقيت بين يديه مقالات وأسماء لفرق مجهولة عند الإباضية كل الجهل ، وأقوالها تناقض ما عند الإباضية كل المناقضة ، فزعمت المصادر التي استقى منها أن هذه الفرق والمقالات للإباضية باعتبارهم أباضية أو منهم ، والإباضية منها برآء بعداء ليسوا أقرب إليها من أبى الحسن نفسه •

فكيف وقع أبو الحسن في هذا الخطأ الشنيع ، مع أنه من أوائل من انتبه إلى أسباب الزيف عند كتاب المقالات ومن أوائل من شرح الطرق التي يصل منها الخطأ إلى من يكتبون عن الفرق ومقالاتها ومذاهبها ، ومن أوائل من حذر من الوقوع فيها ؟ !!

تشنيعات الأشعرى على الإباضية

علمت أيها القارئ الكريم في الفصل السابق أن من ذكرهم أبو الحسن الأشعرى تحت عنوان الإباضية بأئمتهم وفرقهم ومقالاتهم ليسوا في الإباضية من قليل ولا كثير ، ونضيف لك في هذا الفصل أن التشنيعات التي نسبها إلى الإباضية لا علاقة لها بهم ألبتة ، فإن كانت تلك الشنائع آراء لتلك الفرق التي ذكرها سابقا ، وأن تلك الفرق كانت موجودة بالفعل ، فإن تلك الفرق أبعد الناس عن الإباضية وأن بعض مقالاتها كاف عند الإباضية للحكم على أصحابها بالشرك .

وإن شئت المزيد من ذلك فاستمع إليه يورد أقوالا عن الإباضية تنسب إليهم قصد التشنيع عليهم .

يقول أبو الحسن :

« وقالوا من سرق خمسة دراهم فصاعدا قطع » .

« وقال بعضهم فيمن دخل في دين المسلمين وجبت عليه الشرائع والأحكام ، وقف على ذلك أو لم يقف ، سمعه أو لم يسمعه » .

« وقال بعضهم : ليس على الناس المشى إلى الصلاة والركوب إلى الحج ولا شيء من أسباب الطاعات ، التي يتوصل بها إليها ، إنما عليهم فعلها فقط » .

« وقالوا جميعهم : إن الواجب أن يستتيبوا من خالفهم في تنزيل

أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل ، كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله » •

« وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتل » •

« وقال بعضهم : ليس من جحد الله وأنكره مشركا حتى يجعل معه إلها غيره » •

« وقال بعضهم : بتحليل الأشربة التي يسكر كثيرها إذا لم تكن الخمر بعينها » •

هذه أمثلة من الأقوال التي نسبها أبو الحسن إلى الإباضية وظاهر أن القصد من نسبة هذه الأقوال إليهم إنما هو التشنيع عليهم وتكريههم إلى بقية فرق المسلمين وتأمل قوله « وقالوا جميعهم إن الواجب أن يستتبوا من خالفهم في تنزيل أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل » •

والتناقض واضح بين الأقوال التي ينسبها أبو الحسن إلى الإباضية أو إلى بعض فرق الإباضية حسب زعمه • وقارن إن شئت الفقرة السابقة بما يقوله عن الإباضية (١) • ويزعمون أن مخالفهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين حلال مناكرتهم وموارثتهم « ويقول بعد أسطر :

(١) يزعم هنا أنهم يوجبون استنابة مخالفهم فمن لم يقبل قتل ثم يقول في نفس الكتاب أنهم يجوزون مناكرة مخالفهم وموارثتهم وشهادتهم على أوليائهم وحرموا دماءهم • فكيف تقبل شهادة من يجوز قتله وكيف تربط أواصر مصاهرة مع من ترى وجوب قتله : أنه التناقض الذي لا يخفى وهو كلام يسقط نفسه •

« وحرام قتلهم وسبيهم » التناقض هنا واضح وقصد التشنيع ممن نسب إليهم ذلك واضح • ولست أتهم أبا الحسن كما قلت غير مرة ، ولكنى أتهم المصادر التى استقى منها والمراجع التى اعتمد عليها ، سواء كانت مصادر مكتوبة أو كانت مصادر متحدثة • ونحن نعتب على أبى الحسن وهو الذى يقرر فى أول كتابه أن كثيرا ممن يكتب عن مقالات الفرق يتعرض للكذب ، وعدم التحرى ، وعدم التقصى فى البحث ، والغلط فى إيراد الأخبار — أن يقع فريسة سهلة رغم معرفته لذلك — وأن يقع فيما وقع فيه غيره ممن خفيت عليهم دسائس السياسة الماكرة ومكائد العصبية الفاجرة ، وأكاذيب الغلاة والمتطعين • وهم موجودون فى كل مذهب وفرقة بلا استثناء •

ومما يدخل فى هذا الباب من تلفيق الأخبار والقصص ، للتشنيع على الفرق المخالفة ما أورده أبو الحسن فى كتابه السابق فقد قال : فى ص ١٧٥ ما يلى :

« وكان رجل من الإباضية يقال له إبراهيم ، أفتى بأن بيع الإمام من مخالفهم جائز ، فبرئ منه رجل منهم يقال له ميمون ، وممن استحل ذلك ، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا تحريم ، وكتبوا يستفتون العلماء منهم فى ذلك ، فأفتوا بأن بيعهن حلال ، وهبتن فى دار التقية حلال ، ويستتاب أهل الوقف من وقفهم فى ولاية إبراهيم ومن أجاز ذلك ، وأن يستتاب ميمون من قوله ، وأن يبرأ من امرأة كانت معهم ، كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى ، ولن يستتاب إبراهيم فى عذره لأهل الوقف فى جحدهم الولاية عنه — وهو مسلم يظهر إسلامه — وأن يستتاب أهل الوقف فى جحدهم البراءة عن ميمون

— وهو كافر يظهر كفره — فأما الذين وقفوا ولم يتوبوا من الوقف وثبتوا عليه • فسموا الواقفة ، وبرئت الخوارج منهم ، وثبت إبراهيم على رأيه في التحليل لبيع الإمام من مخالفهم وتاب ميمون » •

ولم تنته القصة عند هذا الحد ، وإنما استطرد الإمام ثم عاد بعد سبعة أسطر فقال :

« ثم رجع بنا القول إلى الإخبار عن الاختلاف في أمر المرأة ، فافتقرت فرقة في الواقفة وهم الضحاكية ، فأجازوا أن يزوجوا المرأة المسلمة عندهم من كفار قومهم في دار التقية ، كما يسهل الرجل منهم أن يتزوج المرأة الكافرة من قومهم في دار التقية ، فأما في دار العلانية — وقد جازحكهم فيها — فإنهم لا يستحلون ذلك فيها •

ومن الضحاكية فرقة وقفت فلم تبرأ ممن فعله ، وقالوا لا نعطي هذه المرأة المتزوجة من كفار قومنا شيئاً من حقوق المسلمين • ولا نصلي عليها إن ماتت ، ونقف فيها ، ومنهم من برىء منها •

واختلفوا في أصحاب الحدود فمنهم من برىء منهم ، ومنهم من تولاهم ، ومنهم من وقف واختلف هؤلاء في أهل دار الكفر عندهم • فمنهم من قال : هم عندنا كفار ، إلا من عرفنا إيمانه بعينه ، ومنهم من قال هم أهل دار خلط فلا نتولى إلا من عرفنا فيه إسلاماً • ونقف فيمن لا نعرف إسلامه ، وتولى بعض هؤلاء بعضاً على اختلافهم • وقالوا : الرلاية تجمعنا ، فسموا أصحاب النساء ، وسموا من خالفهم من الواقفة أصحاب المرأة • وصارت الواقفة فرقتين ، فرقة تولوا الناكحة ، وفرقة ينتسبون إلى عبد الجبار بن سليمان ، وهم الذين يتبرأون من المرأة الناكحة من كفار قومهم •

وهذا خبر عبد الجبار الذى خطب إلى ثعلبة ابنته ، فسأل ثعلبة أن بمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسل الخاطب إلى أم الجارية مع امرأة يقال لها أم سعيد يسأل هل بلغت ابنتهم أم لا ؟ وقال إن كانت بلغت وأقرت بالإسلام لم أبال ما أمورها ! فلما بلغتها أم سعيد ذلك قالت : ابنتى مسلمة بلغت أم لم تبلغ ، ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت ، فرد مرة أخرى ذلك إليها ، ودخل ثعلبة على ذلك الحال ، فسمع تنازعهما ، فنهاهما عنه ، ثم دخل عبد الكريم ابن عجرد وهما على تلك الحال . فأخبره ثعلبة الخبر ، فزعم عبد الكريم أنه يجب دعاؤها إذا بلغت ، وتجب البراءة منها حتى تدعى إلى الإسلام ، فرد عليه ثعلبة ذلك وقال : لا ! بل تثبت على ولايتها فإن لم تدع لم تعرف الإسلام ، فبرىء بعضهم من بعض على ذلك » •

هكذا انتهت هذه القصة التى أخذت جهدا غير قليل من الإمام الكبير ، وحيزا فسيحا من كتابه القيم ، ووقتا ثميناً من أوقات القارئ . وواضح أنه ليس لهذه القصة أية قيمة ، اللهم الا إذا كانت للتسلية والضحك ، أو عند من يجمع مشاكل الناس اليومية للتحويل والتنشيع •

يضاف إلى ذلك أن جميع أبطال القصة ناس مجهولون لا يعرف عنهم شيء • إن أى كاتب يستطيع أن يجد عشرات القصص من هذا النوع فى الأحداث اليومية التى تجرى بين الناس ، فيختلفون ويتخاصمون ، ويعلن بعضهم بعضا ، ويدعو عليه بالثبور وعظائم الأمور وقد يتضاربون فتكون نهاية مشاكلهم عند المحاكم أو حتى فى السجون • وأن كثيرا مما نراه ونسمعه فى كل المجتمعات قد تكون أحداثه أكثر

عجبا وإثارة من هذه القصة انتفاهة التى تمنيت بحق — لو أن الإمام الكبير أبا الحسن أكرم كتابه ، ونزه قلمه عن الخوض فى هذه الترهات ، وربا بنفسه عن الاندماج فى هذه السفاسف المفتعلات ، والتى تتال من كرامة قائلها أكثر مما تتال من كرامة من تنسب اليهم •

ولو أن أبا الحسن لم ينسب هذه القصة إلى الإباضية لما كان لى بها شأن فى الوقت الحاضر • أما وقد نسبها إلى الإباضية فأرانى — وأنا أكتب عنهم فى هذا الموضوع — مضطرا أن أوضح للقارئ الكريم فيها بعض النقاط •

١ — وردت فى القصة أسماء عدد من الأشخاص هم : إبراهيم ، ميمون ، عبد الجبار ، سليمان ، ثعلبة ، عبد الكريم بن عجرد ، أم سعيد • كما وردت فيها أوصاف لعدة أشخاص هم : العلماء ، الإماء ، امرأة ، امرأة ثعلبة إلخ •

وهذه الشخصيات كلها مجهولة ، سواء ما ذكر منها بالإسم أو بالوصف ، ولا يعرف عنها شئ ، فما قيمة هذه المشاجرة التى تقع بين أفراد مجهولين فى تحقيق علمى يراد منه إثبات آراء فى العقائد ، وتصنيف فرق الأمة على أساس تلك الآراء ، إن أبا الحسن لم يذكر شيئا عن تلك الأسماء المجردة ، فهل يكفى هذا ليكونوا فى الإباضية ؟ ولماذا لم يحسبوا من المالكية أو المعتزلة أو الشيعة أو غيرهم من الفرق والمذاهب الأخرى ، ثم إذا فرض أنهم كانوا حقا من أتباع الإباضية أو غير الإباضية من المذاهب فهل يكفى هذا الموقف فى الشجار والملاعنة لأن يكون كل فرد من المتشاجرين صاحب رأى ورئيس فرقة ؟

٢ — إنك واجد في جميع الطوائف الإسلامية مشاجرات واختلافات من هذا النوع في كل عصر ، بل ربما تجد أحدها منها وأوسع مدى ، فما الذى رفع قيمة هذه المشاجرة حتى اهتم بها الإمام أبو الحسن ، وأثبتها في كتابه ؟

٣ — إن البحث عن أسماء مجردة هكذا كإبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، في أحداث التاريخ بحث لا طائل تحته ولا يوصل منه إلى نتيجة ، ومع ذلك فقد حاولت أن أتقصى كل أسماء إبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، وثعلبة ، وعبد الكريم ، لعلنى أجد ما يربط بين أحد تلك الأسماء وبعض أحداث القصة السابقة — فيما بين يدي من مصادر التاريخ الإباضى وكتب مقالاتهم — فلم أتمكن من تحقيق هذه النزوة الحمقاء التى أخذت منى جهدا غير قليل في البحث والتنقيب • وحاولت أن أجد قصة عند الإباضية تشبه من قريب أو بعيد أحداث هذه القصة ولو اختلفت فيها أسماء الأبطال فلم أوفق في ذلك • وعلمت في كتب المقالات أن بعض هذه الأسماء تنسب إليهم فرق مستقلة تحت العنوان الكبير (الخوارج) ويطلق عليها أسماء منسوبة إليهم كالثعلبية ، والعجاردة ، والميمونية •

ومن المؤسف أن الإباضية لا يعرفون شيئا لا تاريخيا ، ولا دينيا — عن قصة تنسب إليهم كادت تشغل البوليس الدولى ، مما يدل على أنهم في الواقع لم يحضروا ذلك النزاع الواقع على بيع الإمام ، ولا النزاع الواقع في خطبة بنت ثعلبة ، ولم يقفوا في تلك السوق الحامية ، ولا شهدوا ذلك العرس الذى نتج عنه سيل من الشتائم ، وتبادل اللعنات • فنسبة هذه القصة إلى الإباضية من أعجب العجب — ، ونسبة

أبطالها إلى أئمة الإباضية أو علمائهم ، من أكاذيب التاريخ التى لم
تنتسر حتى بقليل من الحياء ، وإن جازت حتى على كبار الأئمة أمثال
أبى الحسن .

ولا شك أن مخترع هذه القصة إنما أراد أن يكثر من عدد الفرق
الفرعية المنسوبة إلى الإباضية حتى يظهرهم بمظهر المتشددین الذين يتنازعون
لأتفه الأسباب ، فيتحالفون ويفترقون إنسياقا وراء العواطف ودوافع
الغضب أكثر مما هو إنسياقا وراء دوافع العقيدة والدين .

وقد استطاع أن يخترع هذه القصة وأن يولد من أحداثها عددا
من الفرق أطلق عليها أسماء : الضحاكية ، أصحاب النساء . أصحاب
المرأة . الواقفة .

ومفهوم بالبداهة أن شخصا ما أراد التشنيع على الإباضية فاخترع
هذه القصة ونسجها على المنوال ثم وجد أبا الحسن الأشعرى وهو
يهتم بدراسة الفرق وأقوالها وآرائها فألقاها إليه فأثبتها أبو الحسن دون
تمحيص أو تحقيق . وليت أبا الحسن حين كتب هذا نسبه إلى مصدره
حتى تبرأ ساحة الإمام العظيم من أية مسئولية ، وتكون العهد راجعة إلى
أصحابها .

مقالات الإباضية عند الأشعرى

لقد علم القارىء الكريم أن أبا الحسن الأشعرى كان يحسب أن الإباضية يتكونون من الفرق السابقة التى ناقشناها فيها ، والتى أثبتنا للقارىء الكريم بأنه لا صلة بينها وبين الإباضية • وفى حديثه عن تلك الفرق كان يعرض — حسب ظنه — مقالات الإباضية ونحن فى هذا الفصل سوف نحاول أن نكشف أن أبا الحسن فى عرضه لتلك المقالات كان أيضا عرضة للانسحاق مع قوم غلب عليهم حب التشنيع ، فالتجأوا إلى الغموض والإبهام حيناً ، وإلى عبارات موهمة لمعان غير محدودة أو غير مقصودة حيناً آخر ، كما تساهلوا فى إضافة أقوال أو تغييرها لإثبات ما يريدون •

يقول أبو الحسن فى كتابه مقالات الإسلاميين (١) وهو يتحدث عن الإباضية : « وجمهور الإباضية يتولى المحكمة كلها إلا من خرج ، ويزعمون أن مخالفهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين ، حلال مناكلتهم وموارثتهم • حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك ، وحرام قتلهم وسببهم فى السر ، إلا من دعا إلى الشرك فى دار التقية ودان به ، وزعموا أن الدار يعنون دار مخالفهم — دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر يعنى عندهم •

وحكى عنهم أنهم أجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم ، وحرموا الاستعراض إذا خرجوا : وحرموا دماء مخالفهم حتى يدعواهم إلى

(١) مقالات الإسلاميين الجزء الأول طبع مكتبة النهضة ص ١٧٠ •

دينهم ، وقالوا إن كل طاعة إيمان ودين ، وإن درتکبی الکبائر موحدون
وليسوا بمؤمنين » •

ويقول في موضع آخر من الكتاب :

والإباضية يقولون إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه
إيمان ، وأن كل كبيرة هي كفر نعمة لا كفر شرك ، وأن مرتکبی الکبائر
في النار خالدون مخلدون فيها •

ووقف كثير من الإباضية في إيلاام أطفال المشركين في الآخرة ،
فجوزوا أن يؤلمهم الله سبحانه في الآخرة على غير طريق الانتقام ،
وجوزوا أن يدخلهم الجنة تفضلا • ومنهم من قال : إن الله سبحانه
يؤلمهم على طريق الإيجاب ، لا على طريق التجويز •

ويقول في صفحة ١٨٦ من نفس الكتاب :

« ومن مؤلفي كتبهم ومتكلميهم عبد الله بن يزيد ، ومحمد بن
حرب ، ويحيى بن كامل وهؤلاء إباضية » •

فصل

ويقول في صفحة ١٨٩ من نفس الكتاب ما يلي :

« إلا أن الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون
إزالة أئمة الجور ، ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيء قدروا عليه
بالسيف أو بغيره ••

هذا أهم ما قاله أبو الحسن الأشعري عن الإباضية ومقالاتهم
بالإضافة إلى التشنيعات السابقة التي نقلت للقارئ الكريم أكثرها
فيما مضى • ولعله من المهم أن أوضح للقارئ الكريم في هذا
الفصل أن جميع الأسماء التي وردت في الفصل الذي كتبه أبو الحسن

عن الإباضية لا علاقة لها بالإباضية فيما عدا اسمين هما عبد الله بن إباح وهو الإمام الذى ينسب إليه المذهب وعبد الله بن يزيد الفزارى كان من الإباضية وخالفهم فى بعض المسائل فانفصل عنهم وانتظم فى فرقة النكار وقد ذكر ابن النديم عددا من الكتب المنسوبة إليه منها :

كتاب التوحيد ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب الرد على الرافضة ، كتاب الاستطاعة • ولا أعلم أن شيئا من هذه الكتب قد بقى فى مكان ، أما أصحاب هذه الفرقة فلم يبق لهم وجود فيما أعلم •

أما محمد بن حرب ، ويحيى بن كامل اللذان نص أبو الحسن أنهما من متكلمي الإباضية ومؤلفيهما كأنما كان يشك فى السابقين وهو على يقين فى هؤلاء ، فإنه لا يوجد لهما أى ذكر عند الإباضية فيما اطاعت عليه ، ويؤسفنى أن أرد على الإمام الكبير نصه هذا • وله أن يحشرهما فى أية فرقة أخرى أما عند الإباضية فليس لهما مكان إنه لا يوجد لهما أى أثر فى المكتبة الإباضية الواسعة التى حرصت أن تحتفظ بترائثها منذ القرن الأول فحفظت فتاوى ومراسلات الأئمة جابر وأبى عبيدة وغيرهم وحتى ما ضاع منها حفظت أسماؤها وبعض ما جاء فيها كديوان جابر وتفسير عبد الرحمن بن رستم وتفسير أبى يعقوب الوارجلانى •

إن كتب الإباضية ، التاريخية منها والشرعية لم تذكر لنا شيئا عن هذين الرجلين ولا عن مقالاتهما أو مؤلفاتهما كما لم تذكر ذلك عن سبق أن نسبة أبو الحسن إلى الإباضية • وأنا حين أؤكد للقارىء الكريم هذا النفى فإنما أؤكد فيه وصلت إليه يدى من كتب الإباضية المطولة منها والمختصرة ، ولا أدعى استقصاءها فإن ذلك من المستحيل •

وقد يقول قائل ربما ضاعت هذه الكتب في زحمة التاريخ وهذا شيء مألوف • ولا شك أن ضياع الكتب شيء لا ينكر • ولكن الكتاب إذا ألف وعرفه الناس فلا بد أن ينتقل عنه أو على الأقل أن يذكر اسمه ويذكر مؤلفه • سواء أخذت منه آراء أو أقوال أو لم تأخذ • وهذا ما لم يحدث بالنسبة لهؤلاء • فلم تذكر أسماؤهم ولا كتبهم ولا بعض آرائهم ما يجعلنا نجزم بأنهم لم يكونوا من الإباضية مطلقاً بل نجزم أنهم غير معروفين عند الإباضية وحتى الذين ذكروهم في تعداد الفرق كالقطب وعبد الكافي فإنما اعتمد على غير مصادر الإباضية •

ولا شك أن الإباضية من أول المذاهب التي اهتمت بالتأليف وحرصت على الاحتفاظ بآثار الأئمة وتاريخهم وتراجمهم ، وليس فيما اطاعت عليه أي ذكر لهؤلاء الناس ، ومعنى ذلك أنهم من غير الإباضية ونسبوا إليهم خطأ • وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه أولاً في أن أبا الحسن لا يعرف الإباضية في الحقيقة وأن ما كتبه عنهم إنما نسب إليهم خطأ أو جهلاً أو قصداً للتشنيع • أما المقالات التي نسبها إلى الإباضية في عمومها والتي نقلت لك بعضها في أول هذا الفصل ، فهي مزيج مما يقره الإباضية ويقولون به ، ومما ينكرونه ويردونه ، ومما يحكمون على من يقول به بالردة والكفر ، وواضح من هذا أن ما جاء موافقاً لمقالاتهم وعقائدهم فإنما جاء عن طريق الصدفة ، لا عن طريق الدراسة والمعرفة •

ويهمني في ختام هذا الفصل أنؤكد من جديد للقارئ الكريم أنني أضع الإمام أبا الحسن فوق الشبهات ، وإنما انجر إليه الخطأ عن طريق من وثق فيه ونقل عنه • في عصر كثرت فيه النزعات •

ونستخلص من مناقشتنا لأبى الحسن فى الفصول السابقة ما يلى :

١ — إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الإباضية ومن مؤلفيهم ومتكلميهم لا وجود لهم عند الإباضية •

٢ — الإباضية لا يعرفون شيئاً عن هؤلاء الرجال ولا عن فرقهم •

٣ — الإباضية لا يعرفون أية فرقة من تلك الفرق التى نسبها أبو الحسن إليهم ولا يقولون بأكثر أقوالها •

٤ — المقالات التى نسبها — هكذا على العموم — إلى الإباضية أو إلى جمهورهم هى خليط مما يذهب إليه الإباضية • ومما يردونه ، ومما يحكمون بالشرك على معتقيه •

٥ — بدأ الإباضية بالفعل فى تأليف الكتب منذ القرن الثانى الهجرى • وتسلسلت الكتب وتسلسل العلماء والأئمة إلى اليوم وليس فى هذه السلاسل شىء مما نسبته إليهم أبو الحسن •

٦ — عاش أبو الحسن الأشعرى فى القرن الثالث الهجرى وعاش ثلاثين سنة فى القرن الرابع • وقد كان للإباضية إمامات بالشرق وإمامات بالمغرب واشتهر لهم أئمة وعلماء ومفسرون ومحدثون ومتكلمون ، وفقهاء فى أكثر العواصم الإسلامية حينئذ ولكنه لم يذكر أحدا منهم ولم يشر إلى كتاب من كتبهم •

٧ — الفترة التى عاش فيها أبو الحسن كانت فترة ازدهار علمى للإباضية فى المشرق والمغرب ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يشر إلى أحد من معاصريه من علماء الإباضية •

ومعنى هذا كله أن الإباضية الذين كتب عنهم أبو الحسن لا وجود لهم في الواقع ، وأن الإباضية الموجـودين في الواقع والذين كانوا يعيشون كما يعيش سائر الناس لا وجود لهم فيما كتبه عنهم أبو الحسن .
• أى أن أبا الحسن لم يكتب عن الإباضيين الحقيقيين •

ومنذ ألف أبو الحسن الأشعري كتابه « مقالات الإسلاميين » ، أصبح مصدرا يستقى منه الكتاب ، ومرجعا يعود اليه المؤلفون ، فينقلون ما فيه من أخطاء وصواب ، وحق وباطل ، تارة بالنص وتارة بالمعنى ، وتارة يشيرون إليه وأحيانا يغفلون عن الإشارة •

ولقائل أن يقول إن هناك مؤلفين آخرين كتبوا في الموضوع ، في عصر أبي الحسن من قبله أيضا وهذا صحيح • غير أنني أستطيع أن أزعم أن شهرة أبي الحسن ومركزه العلمي ، ومواقفه في مجالات المحاججة والجدل جعلته يطنى على الآخرين جميعا • فأصبح أهم مرجع وأوثق حجة عند المؤلفين الذين جاءوا من بعده •

ولا يسعنى وأنا أختتم هذا الفصل إلا أن أبدي ملاحظة ربما تساعد على تبرير ما بلغ إلى الإمام الأشعري كما بلغه وذلك أنه ربما كان من طلاب جابر أو طلاب أبي عبيدة من عرف بتلقيه العلم عن أحدهما واشتهر بذلك وظنه الناس إباضيا بينما هو لم يكن من الإباضية أو أنه قال ببعض تلك المقالات فأعرض عنه الإباضية ولم يحسبوه منهم ولم يذكره في سيرهم وتوهمه غيرهم أنه منهم رغم ما يقول به •

البغدادى والإباضية

بعد أبى الحسن الأشعري بنحو قرن تقريبا جاء مؤلف آخر اهتم بالحديث عن الفرق والمقاتلات الإسلامية • هذا المؤلف هو :

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى • وقد اشتهر بنسبته الأخيرة بين المؤلفين •

كتب البغدادى عن الإباضية كما كتب عن غيرهم من الفرق الإسلامية في كتابه — الفرق بين الفرق — الذى حققه الأستاذ : محمد محبى الدين عبد الحميد وعلق عليه ونشره •

إن القارئ بمجرد البدء في قراءة مقدمة كتاب البغدادى (الفرق بين الفرق) يحس كأنه داخل في معمة حامية الوطيس وكأنه يرافق محاربا شديد المراس قد دجج نفسه بجميع أنواع الأسلحة استعدادا لدخول معركة ينبغي له أن يقضى فيها على عدد من الخصوم •

أو كأنه يقف إلى جانب شخص وضعه الله سبحانه وتعالى في طريق الناس يوم الحساب • وأعطاه صلاحية التحكم في مصائرهم ، فهو يقف مزهوا يعترض طريق المحشورين • وكلما مرت به طائفة وجههم حسب رأيه فيهم حيث يريد ! أو صاح : أيتها الطائفة أنتم من أهل السنة مغفور لكم ، اسلكوا هذا الطريق إلى الجنة • فإذا جاءت طائفة أخرى صاح بهم أنتم من أهل الأهواء اذهبوا مع هذه الطريق إلى الجحيم ، وتبدو له طائفة مقبلة فيصيح بها بأعلى صوته أنتم يا من تسيرون هنالك إنكم معتزلة فأنتم فرقة ضالة ادخلوا النار • أما أنتم أيتها الفرقة التعسة فقد قيل إنكم خرجتم من الإسلام فادخلوا النار وبئس القرار •

وإذا شئت أن تتضح لك هذه الصورة فما عليك أيها القارئ الكريم إلا أن تقرأ كتاب (الفرق بين الفرق) وإذا شئت أن أضمح بين يديك نموذجا فلا بأس وما أنا أنقل لك فقرات مما قاله في مقدمة كتابه (١) السابق الذكر بأسلوبه القوي البليغ :

« سألتكم أسعدكم الله بمطلوبكم — شرح معنى الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة ، منها واحدة ناجية ، تصير إلى جنة عالية ، وبواقيتها عادية تصير إلى الهاوية ، والنار الحامية ، وطلبتهم الفرق بين الفرقة الناجية ، التي لا تزال بها القدم ، ولا تزول عنها النعم ، وبين فرق الضلال ، الذين يرون ظلام الظلم نورا ، واعتقاد الحق ثبورا وسيصلون سعيرا ولا يجدون من دون الله نصيرا ، فرأيت إسعافكم بمطلوبكم من الواجب في إبانة الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وتمييزها من الأهواء المنكوسة ، والآراء المعكوسة » .

وفي الصفحة الرابعة من الكتاب ذكر أن كتابه يشتمل على خمسة أبواب :

الأول : في بيان الحديث المأثور في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة •

الثاني : في بيان فرق الأمة على الجملة ومن ليست منها على الجملة •

الثالث : في بيان فضائح كل فرقة من فرق الأهواء الضالة •

(١) الفرق بين الفرق صفحة « ٣ » .

الرابع : في بيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منها •

الخامس : في بيان الفرقة الناجية وتحقيق نجاتها ، وبيان محاسن دين الإسلام •

وهكذا استطاع المؤلف في إيجاز أن يقسم الناس ثلاثة أقسام قسم خارج عن الأمة الإسلامية فلا حديث له معه وقسم هو أهل الأهواء وفي هذا القسم ألف الكتاب ليكشف عن فضائحهم أما القسم الثالث فهم الفرقة الناجية •

ويقول المؤلف في الفصل الأول من نفس الكتاب صفحة ١٣ بعد أن ناقش معنى كلمة أمة الإسلام وعلى من تدل — ما يلي :

من كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضة الإمامية ، أو الزيدية ، أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية ، أو المجسمة فهو من الأمة في بعض الأحكام ، وهو في جواز دغنه في مقابر المسلمين وفي ألا يمنع حظه في الفء والغنيمة إذا غزا مع المسلمين ، وفي ألا يمنع من الصلاة في المساجد •

وإيس من الأمة في أحكام سواها ، وذلك وأنه لا تجوز الصلاة عليه ولا خلفه ، ولا تصل ذبيحته ، ولا نكاحه لامرأة سنية ، ولا يدل للسني أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم •

ولا شك أن القارئ الكريم عندما يقرأ مقدمة الكتاب يتضح لديه أن المؤلف قد قرر أن يقسم الأمة إلى أقسام ثلاثة : قسم حكم بخروجهم من الملة رغم انتسابهم إلى الإسلام ، وقسم ما أوردهم إلا لذكر فضائحهم والتنشيع عليهم وتلمس أخطائهم ، وإظهار ما به ضلوا في نظره •

ثم حكم على القسمين بالضلال وقذف بهم جميعا في جهنم •

أما القسم الثالث فقد حكم عليهم بالسعادة مسبقا أيضا لأنهم في نظره من أهل السنة على طريقة الشاعر الذي يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمذان ادخلوا بسلام

هكذا على العموم دون مراجعة •

وليته حين تلمس أخطاء تلك الفرق التي عزلها عن السنة وفتش عن فضائهم رجع إلى مصادرههم ولم يأخذها من مصادر خصومهم — إن صح هذا التعبير — وهو ولا شك واجد ما يتشبه به إن كان لا يهمه إلا أن يدفع بتلك الفرق اليائسة إلى النار •

وقد كتب البغدادى عن الإباضية فيمن كتب في الفرق ومن المؤسف أن هذا المؤلف أيضا لم يهتم مطلقا بأن يتصل بأئمة الإباضية الحقيقيين وعلمائهم ولا بأن يطلع على عقائدهم ومقالاتهم في كتبهم • وإنما رجع إلى ما كتبه وقاله عنهم غيرهم ، ويبدو أنه اعتمد على أبو الحسن الأشعري كثيرا فنقل ما قاله عنهم تارة بنفس العبارة ، وتارة بتصرف قليل • على أنه لم يذكر أنه نقل عنه أو اعتمد عليه •

يقول في كتابه الفرق بين الفرق ص ١٠٣ ما يلي :

« أجمعت الإباضية على القول بإمامة عبد الله بن إباض ، وافترقت فيما بينها فرقا ، يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة — يعنون مخالفينهم من هذه الأمة — برآء من الشرك والإيمان • وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وحرموا دماءهم في السر واستحلوها في العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتواثر منهم ، وزعموا

لأنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله لا يدينون دين الحق ، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذي استحلوه الخيل والسلاح ، فأما الذهب والفضة فانهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة •

ثم افترقت الإباضية فيما بينها أربع فرق وهى : الحفصية والدارثية واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراء الله بها » •

بعد هذا قال إن اليزيدية غلاة وأنه سوف يعود إليهم فيذكر مقالاتهم عندما يتحدث عن الغلاة وتحدث عن الحفصية والدارثية وأصحاب طاعة لا يراء الله بها فأوردوا عنها ما أورده أبو الحسن ثم قال في نفس الكتاب صفحة ١٠٦ ما يلى •

« وزعمت الإباضية كلها أن دار مخالفينهم من أهل مكة دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى عندهم » •

ثم ذكر ثلاثة أقوال في النفاق (١) نسبها إليهم وبعد ذلك قال :

يعد الجملة التى حكيناها عنهم شذوذا في الأقوال انفردوا بها •

منها أن فريقا منهم زعموا أن لا حجة لله تعالى على الخائلق في التوحيد وغيره إلا بالخبر وما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيماء •

ومنها أن قوما منهم قالوا كل من دخل في دين الإسلام وجبت عليه الشرائع والأحكام ، سمعها أو عرفها أو لم يسمعها أو لم يعرفها •

(١) راجع ان شئت هذا الموضوع في الفصل مع عبد القادر شيبه الصمد .

ومنها : أن قوما منهم قالوا بجواز أن يبعث الله تعالى إلى خلقه رسولا بلا دليل يدل على صدقه •

ومنها : أن قوما منهم قالوا : من ورد عليه الخبر بأن الله تعالى قد حرم الخمر أو أن القبلة قد حولت فعليه أن يعلم أن الذي أخبره به مؤمن أو كافر •

وعليه أن يعلم ذلك بالخبر ، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر ، ومنها : قول بعضهم ليس على الناس المشى إلى الصلاة ، ولا الركوب والمسير إلى الحج ولا شيء من الأسباب التي يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها دون أسبابها الموصلة إليها •

ومنها : قولهم جميعاً بوجوب استتابة مخالفينهم في تنزيل أو تأويل ، فان تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله •

وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب ، فان تاب ، وإلا قتل •

وقالوا : إن العالم يفنى كله إذا أفنى الله أهل التكليف ولا يجوز إلا ذلك لأنه إنما خلقه لهم •

وأجازت الإباضية وقوع حكمين مختلفين في شيء أو حد في وجهين ، كمن دخل زرعاً بغير إذن مالكة فإن الله قد نهاه عن الخروج منه إذا كان خروجه منه مفسداً للزرع ، وقد أمره به •

وقالوا : لا يتبع المدبر في الحرب إذا كان من أهل القبلة موحدا ، ولا تقتل منهم امرأة ولا ذرية ، وأباحوا قتل المشبهه واتباع مدبرهم وسبى نساءهم وذرايهم وقالوا : إن هذا كما فعل أبو بكر بأهل الردة » •

وبعد هذا يعيد قصة بيع الإمام وسوقهن الحامية التي نقلتها لك عن أبى الحسن الأشعري • ولعل القارئ الكريم يدرك بعد قراءة ما سبق أن البغدادي قد اعتمد كل الاعتماد على الأشعري ورغم حرصه على التصرف القليل فإن عبارة الأشعري بحروفها كثيراً ما تطل من هنا أو هناك • والذي يدعو إلى التأمل هو أن البغدادي قد اعتبر الإباضية من الخوارج •

وأنتهم لذلك فرقة ضالة ويجب أن يقال عنها فضائح وياتمس لها شنائع وذهب يورد تلك لفضائح أو الشنائع حيناً بدعوى أنها مقالة الإباضية جميعاً وحيناً آخر بدعوى أنها قول بعضهم أو قوم منهم •

إن البغدادي كان يعيش في القرنين الرابع والخامس ، وفي هذا العصر كان الإباضية قد عرفوا في أغلب البلاد الإسلامية من خراسان إلى الأندلس واشتهرت لهم مؤلفات في أغلب فروع الثقافة الإسلامية — لاسيما علم الكلام — ودونت توارихهم وسيرهم وعرف علماءهم وأئمتهم في طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى أصحاب رسول الله ﷺ • كما أن أكثر المذاهب الإسلامية قد تميز بعضها عن بعض في أصولها وفروعها ، وآرائها ومقالاتها وأئمتها وعلمائها • ومع ذلك فإن أولئك الذين ذكرهم البغدادي هم أولئك الذين ذكرهم الأشعري من قبله حاشرين إياهم

في الإباضية أو الواإباضية لا يعرفون عنهم شيئاً ولم يذكروهم لا في كتبهم
كتبهم ولا في طبقات علمائهم •

إن البغدادى قد سلك نفس المسلك الذى سلكه من قبله الأشعرى
وقد علمت في الفصول السابقة أن أغلب ما كتبه عن الإباضية ونسبه
إليهم — لا يمت إليهم بصلة • وأن البغدادى وهو يسلك نفس المسلك
ويعتمد نفس المصادر هو الآخر لا يعرف شيئاً عن الإباضية • وأن كل
ما كتبه عنهم سواء كان حقاً أو باطلاً فإنما هو تشنيعات وتلفيقات إليه
عن ناس يريدون أن يوقدوا نار الفتنة ضد الإباضية ، وأن يجعلوهم
مكروهين من بقية إخوانهم المسلمين فينسبون إليهم عقائد ومقالات يبرأون
منها ومن يقول بها ، ويسوقون عنهم أقوالاً في غاية الغموض والإبهام ،
لإثارة رأى العام ضدهم وقد يفسرون بعض الجمل أو الكلمات تفسيراً غير
صحيح ولا مقصود عند الإباضية لزرع وهم في نفوس الآخرين • ولا شك
أن أصابع السياسة الماكرة وراء كل ذلك وأن هؤلاء العلماء الذين يكتبون
إنما تلقوا معلوماتهم عن مصادر مستغلة أو مستغفلة مع العلم أن لديهم
الاستعداد الكافى لتلقى وتصديق كل ما يقال لهم عن تلك الفرق التى حكموا
عليها بالضلال مسبقاً •

ومن نافلة أن نعيد هنا ما أشرنا إليه سابقاً من أن البغدادى قد زعم
كما زعم غيره أن الإباضية من الخوارج وأن هذه الفرقة من الفرق التى
لا يجوز للسنى أن يصلى عليها ولا أن يصلى وراءها ، وأنه لا يجوز للسنى
حسب زعمه أن يتزوج منها ، ولا أن يأكل من ذبائحها • وقد ردد هذا
الكلام في مقدمة الكتاب • وفي الفصول الختامية منه أورد هذه الأحكام
بشيء من التفصيل وزاد عليها ونسب بعض هذه الأحكام إلى أئمة عظام •

وأحسب أنه لا دعوة أشد إيقاداً لنار الفتنة ، وشقاً لصفوف الأمة ، ونظريفاً لوحدة الكلمة ، وتمزيقاً لشمل المسلمين — من هذه الدعوة •

وعلى كل حال فقد طوى التاريخ البغدادى فيما قد طوى كثيراً من تلك الفرق التى كانت تملأ فراغاً ضخماً فى حياة المسلمين • وبقي كتابه يحمل آراء شاذة كما تحمل كثير من الكتب فى كثير من المذهب •

وقد عرفت الأمة المسلمة ، وخبرت وأيقنت ، النتائج والآثار التى تسبب عن العصبية المذهبية والجنسية ، والاتباع الأعمى للخطط السياسية • ورأت رأى العين وذائق فى مرارة ما لحقها فى جراء ذلك من أضرار •

وهى اليوم تحاول أن تجمع الكلمة ، ترد الشارد وتسكت الداعى الى الفتنة • ولكن من حين الى آخر تقوم أقلام هنا أو هناك فتعود الى ما طواه التاريخ فى أخطاء لترسمه من جديد فى بلاهة وسذاجة وغفلة •

يسر الله للعاملين المخلصين سبيل الوفاق ، وأعانهم على جمع كلمة الأمة التى فرقته المذاهب الدينية والمطامع السياسية فى العهد الماضى وتفرقهم السياسة ، ومناصب التحكم ومذاهب الاقتصاد ، وفتنة الأسماء والألقاب ، والشعارات الكذابة فى العصر الحاضر •

وفى ختام هذا الفصل يؤمنى أن أقول للقارىء الكريم إن بعض الأقوال التى نسبها الى الإباضية تحمل تكذيبها فى نفسها وهى التى نسبها فيما زعم الى فرقة من الفرق التى ألدقها بالإباضية وكذلك الأقوال التى زعم •

أن بعضاً من الإباضية أو قوما منهم كان بها فهذه الأقوال المنسوبة إلى بعض أو إلى قوم لا تحتاج إلى تكذيب لأنها هي نفسها لم تستطع أن تنتهض فتقف وإنما لاذت بجناح من الإباضية وأما ما نسبته إليهم جميعاً فسوف نعود إليه بالنقاش في آخر الكتاب إن شاء الله مع ما يتحصل لدينا من أقوال غيره فنؤكد ما يقول به الإباضية حقيقة ونؤكد ما لا يقولون به حقيقة ونكتشف عما أورد بطريقة موهمة أو مبهمة والله المستعان •

ابن حزم والإباضية

عاش ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، وقد عني هو الآخر بالمذاهب الإسلامية وكتب عنها •

ويؤسفني أن أقول إن العالم الكبير لم يوفق فيما كتب عن الإباضية بل لقد تجنى عليهم في بعض الأحيان • وكلامه أحياناً — يهدم بعضه بعضاً ما كما أن بعض دعاويه لا يمكن أن تصدق — مهما حاول الإنسان أن يجد لها مبررات — وإلى القارئ الكريم الأمثلة •

يقول في كتابه (الفصل في الملل والأهمل) صفحة ١٨٨ ما يلي :

« ذكر بعض من جمع مقالات المنتمين إلى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم رجل يدعى فريد بن أبي أنيسة — وهو غير المحدث المشهور كان يقول : إن في هذه الأمة شاهدين عليها : هو أحدهما ، والآخر لا يدرى من هو ولا حتى متى هو • ولا يدرى لعله قد كان قبله ، وأن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى العرب لا إلينا كما يقول العيسوية في اليهود ، قال : فإنهم مؤمنون

أولياء الله تعالى وإن ماتوا على هذا العقد ، وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وأن دين الإسلام سينسخ بنبيء من العجم يأتى بـدين الصابئين • وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة • »

ويعقب العالم الكبير على هذا بقوله : « قال أبو محمد : ألا إن جميع الإباضية يكفرون من قال بشيء من هذه المقالات ، ويتبرأون منه ، ويستحلون دمه وماله » •

والعجيب في الأمر أن^{أبيه} حزم يقرر أن جميع الإباضية لا يقولون بشيء من آراء ابن أنيسة هذا ، ويحكمون على من قال شيء من هذا بالكفر ، ويستحلون دمه وماله ، فكيف ساغ عنده إذن أن يسوق هذا الرجل وطائفة : أولا في فرق المسلمين وهم ينكرون المعلوم من الدين بالضرورة ، ثم لم اختار أن يجعلهم من الإباضية • وجميع الإباضية كما يقرر هو نفسه يكفرون من يقول بذلك • هل بينهم وشيجة نسب ، أو علاقة مصاهرة ، أم نزع عرق أم رابطة صداقة بريئة مجردة •

إنه لا شيء من ذلك طبعاً ولكن بعض المتعصبين المشنعين الذين لا يزنون ما يقولون ، أطلقوا هذه الأكذوبة فنقلها ناقلون ومنهم العالم الكبير ابن حزم ولكنه اضطر معها أن يقرر موقف الإباضية منها فغضب بملاحظته الصائبة ربما استنادا الى معرفته الشخصية أو الى ما ذهب إليه من سبقه كالبغدادى الذى اعتبر هذه الفرقة خارجة عن الإسلام •

والحقيقة أن أمثال هذا التخليط والتناقض سبق أن أوردنا له أمثلة عن بعض كتاب المقالات السابقين • كان المفروض من ابن حزم بما اشتهر به من الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع ، ولذاغة النقد

الذى يبلغ الى حد القسوة أحيانا — ألا ينزلق فيما انزلق فيه غيره ، وأن ينظف كتابه من هذه الترهات الفارغة التى تكذب نفسها ، وليس لها من قيمة اللهم إلا زيادة الصفحات فى الكتاب الذى ترد فيه •

وليت ابن حزم اكتف بهذه الفقرة بعد أن كذبها ولكنه استمر فى الطريق •

قال ابن حزم فى نفس الكتاب :

« وقالت طائفة من أصحاب حارث الإباضى أن من زنى أو سرق أو كذب فإنه يقام عليه الحد ، ثم يستتاب مما فعل ، فان تاب ترك ، وإن أبى التوبة قتل على الردة » •

وقد سبق أن ناقشنا هذا القول الذى نقله ابن حزم ولم يسند وأوضحنا بما فيه الكفاية أن الإباضية لا يعرفون هذا الحارث ولا فرقته وأن حكم الإباضية على الزانى والسارق والقاذف هو حكم الله وحكم رسوله عليهم • رجم للمحصن وجاد لغير المحصن ، وقطع من الرسخ للسارق ، وجاد للقاذف • بشروط مفصلة فى كتب الفقه • وقد وقعت حوادث أقام فيها أئمة الإباضية الحدود على من رجبت عليه ، أثناء إماماتهم • المشرق أو المغرب ذكرتها كتب التاريخ والوقائع مفصلة فى مناسباتها • ولم يذكر أحد أن أئمة الإباضية تجاوزوا حدود الله فى إقامة الحد فقتلوا من لا يلزمه القتل • والإباضية لا يحكمون على من لزمه الحد بالردة تاب أو لم يتب • وإسناد هذا القول إليهم كذب عليهم • وكل ما عند الإباضية فى الموضوع أنهم يبرأون من مرتكب الكبيرة سواء كانت من الكبائر التى تقام عليها الحدود أو كانت من الكبائر التى لا حدود عليها • والبراءة إنما يوقعونها على مرتكب المعصية (الكبيرة)

مادام مصرا عليها ولم يئب • فإذا تاب منها أسبغوا عليه ثوب الولاية •
وأعتقد أن هذا الموقف هو الموقف الذى يتخذه كل مسلم حريص على
إسلامه وكيف يستطيع المسلم التقي الورع أن يضىف محبته وولاءه على
إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر عليها

والشخص الذى يقام عليه الحد لا يخلو إما أن يقام عليه الحد
بعد اعتراؤه وإعلانه للتوبة (كما عز) مثلا فهذا لا يختلف اثنان فى
صدق توبته ووجوب ولايته • وإما أن يجب عليه الحد ويقام وهو مصر
على معصيته ولا يعان التوبة مما ارتكب وهذا لاخلاف بين اثنين من
الإباضية فى وجوب البراءة منه فما كان لمؤمن صادق الإيمان أن يضىف
محبته وولاءه على إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر على ذلك • وأنا
أظن أن الحد فى حالة التوبة تطهير وفى حالة الإصرار عقوبة وفى كلتا
الحالتين لا يتجاوز تقدير الشارح فيه • ولا فرق بين من أقيم
عليه الحد من العصاة ومن لم يقم عليه بل إن الكبائر كلها ما كان عليه
حد وما لم يكن — عند الإباضية موجبة للبراءة وليس أكثر من البراءة
ومعنى البراءة هى البغض والجفاء فى الله بسبب ارتكاب المعصية وعدم
الدعاء بالمغفرة والرحمة للعصاة وليس أكثر من ذلك •

ولو عنى الإمام ابن حزم نفسه قليلا لعرف حقيقة أحكام الإباضية
وسيرتهم — ولا سيما وقد عاش فى الأندلس — وقد كانت الدولة
الرشيديّة قائمة فى الجزائر قبل ذلك بقليل وسيرة أئمتهم كانت حينئذ
لا تزال متناقلة بين الألسنة ، وطرق إقامة الحدود وإجراء الأحكام فى
تلك الدولة كان مما يقصه الناس بعضهم على بعض ويتحدثون به ، كما
كان فى إمكان الإمام ابن حزم أن يحصل فى ذلك الحين على بعض

الكتب الفتوية ويعرف منها رأى الإباضية الحقيقي • إقامة الحدود
ولكن الإمام ابن حزم انساق في التيار السابق ، تيار السخط على
ما حسبه فرقا مخالفة بدافع شديد لا شعورى يقويه السخط ورغبة
ملحة في التشنيع على تلك الفرق • وقد أضاف إلى ما ذكره في كتابه
من تلك الشنائع المختلفة شنائع أخرى زعم أنها من مشاهداته •

قال في كتابه (الفصل في الملل والنحل) صفحة ١٨٩ ما يلي :

« وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ،
ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ، ويوجبون القضاء على
من نام نهارا فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها ،
إلا قليلا منهم » •

لا شك أنه يقول هذا الكلام إرادة للتشنيع على الإباضية وسوف
نناقش هذه المسائل في فصل « مسائل فقهية اجتهادية » وفي باب
التشنيع أيضا ما يقوله فيما بعد فتأمله فيما يلي :

قال ابن حزم : في (الفصل في الملل والنحل) ص ١٩١ ما يلي :

« وإلى قول الثعالبة رجع عبد الله بن إياض فبرىء منه أصحابه
فهم لا يعرفونه اليوم ، ولقد سألت من هو مقدمهم في علمهم ومذهبهم
عنه فما عرفه أحد منهم •• » وهذا القول من ابن حزم من أغرب
الأقوال وإن كان قد تردد على كثير من الألسنة والأقلام ، من هم
الثعالبة ؟ وما هو قولهم الذى رجع إليه عبد الله بن إياض ولماذا رجع ؟
وهل رجع في قول واحد أو في عدد من الأقوال ؟ وما هى تلك الأقوال

التي رجع فيها ابن إباض إلى قول الثعالبة ؟ وهل رجع إليهم في قـدرل واحد أم أنه رجع إليهم في جميع أقوالهم ؟ أسئلة حائرة وليس لها جواب عند ابن حزم ولا عند غيره ممن أورد هذه الدعوى من أولئك الكتاب الذين يختطفون الإشاعات دون تثبت ثم يروجون لها وهي من أقوى الأدلة على أنهم يكتبون عما لا يعرفون أو على الأقل عما لم يتحققوا من صحته • كيف عرف ابن حزم أن ابن إباض رجع إلى قول الثعالبة ؟ أين وجد أن أصحابه برئوا منه : ومن هو هذا المقدم الذي معه ابن حزم بالتحقيق فوجده لا يعرف شيئا عن إمامته ؟ إنها سلسلة من الدعاوى والادعاءات الواهية المتداعية يهدم بعضها بعضا • والمؤلف فيها جميعا لا يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها •

ابن حزم يزعم أنه سأل من هو مقدمهم في علمهم ومذهبهم فلم يعرفوا شيئا عن ابن إباض • فكيف علم أنهم يبرأون منه ، وهل يعقل أن يبرأ ناس من شخص لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئا !

هل اهتم العالم الكبير حقا بالتثبت أو ذهب يسأل عن الإباضية وإمامهم ؟ أم هي صورة من نسج الخيال يقصد منها التشنيع دون معرفة شيء حقيقى ؟ لو أراد ابن حزم التحقق لاستطاع الاتصال بعلماء الإباضية بالفعل واذكر أسماء أولئك العلماء أو المقدمين الذين يعتبر قـرلهم حجة في الموضوع • أو أن يطلع على كتبهم ويستمد منها الحقائق التي تناقض ولا تنكر وفي الصورة السابقة يبدو لى أن ابن حزم سمع عن ينتسب إلى الإباضية في الأندلس وقد يكون من سمع عنه من العوام وقد يكون صاحب سطوة أو ثروة اشتهر بسببها بين الناس فذهب إليه ابن حزم يسأله عن إمامه ابن إباض فلم يجد عنده شيئا •

ولو سلكنا هذا المسلك اليوم — على انتشار الثقافة — مع ثمانين في المائة من أتباع المذاهب لكانت النتيجة واحدة شبيهة بما توصل إليه ابن حزم فلو أنك أخذت تردد السؤال من هو محمد بن إدريس ؟ على من يصادفك من أتباع الشافعى بل على بعض المتقدمين من التجار وأصحاب المزارع الكبيرة وغيرهم لما وجدت عند الكثير منهم ما تريده من المعارف ، ولا يزيد الكثير منهم على أن يردد ذلك السؤال في لهجة فيها استغراب وأحسنتهم حالاً من يضيف إلى ذلك فيقول لك هو إمامنا العظيم أو هو الإمام العظيم أو إمام المذهب الشافعى أو ما يشبه هذا مما لا غناء فيه • فهل نستطيع أن نبني على ذلك حكماً ونقول لقد سألنا عن الشافعى أتباعه أو بعض المتقدمين من أتباعه فلم يعرفوا عنه شيئاً •

لم يزعم أحد من الإباضية أن عبد الله بن إباض رجع إلى قول الثعلبية ولا يوجد أحد من الإباضية يبرأ منه فهم مجمعون على ولايته ويعتبرونه من أئمة المسلمين ومن كبار التابعين ويحفظون سيرته وقد دونوها في كتبهم ويعرفون الكثير من أقواله في القضايا الشرعية وهم مع ذلك لا يرفعونه إلى مكانة التقديس ، كما لا يرفعون إلى مكانة التقديس أى شخص غير معصوم • ويرون أن في أقواله كما في أقوال غيره من الأئمة مأخوذاً ومتروكاً • صواباً وخطأ • ولا ينزهونه عن هذه المرتبة أى إمام سواء كان من أئمتهم أو أئمة غيرهم ويحتكمون في كل شيء إلى الدليل حتى اشتهرت بينهم هذه العبارة (يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) فدعوى أن ابن إباض رجع إلى قول الثعلبية وإن الإباضية يبرأون منه هي الأخرى دعوى تحاول أن تلحق بركب التشنيعات التي تنسب إلى الإباضية وأئمتهم • الغريب حقاً من كتاب المقالات أنهم

ينسبون الى الإباضية من ليس منهم ويعتبرونهم أئمة ورؤساء فرق لوم ويحولون أدمتهم الحقيقين فيلحقونهم بطوائف أو فرق أخرى ولعله مما يرفه على القارىء أن نختم هذا الفصل بما يلي :

قال ابن حزم فى كتابه (الفصل بين المال والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« ومن حماقاتهم قول بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، فانه كان يقول : كل ذنب صغير أو كبير ، ولو كان أخذ حبة من خردل بغيرحق ، أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهى شرك بالله » .

هذه كما يرى القارىء الكريم ليست من حماقات الإباضية ، وإنما هى من حماقات العالم الكبير ابن حزم الأندلسى ، وللعلماء الكبار حماقاتهم • من هو هذا البكر الذى لا يعرف أبوه ولا أمه ولا حتى عصة أبيه وإنما ينسب الى أخواله • ثم يكون هذا البكر المجهول النسب إماماً له أقوال يعتمد بها وتذكر فى الكتب ثم إن العالم الكبير ابا محمد ابن حزم وهو يصنف المسلمين على فرق يعثر على هذا الرجل فلا يجد له مكاناً ثم يأتى به يسوقه حتى يجد فراغاً بين صفوف الإباضية فيلقته هناك ثم ينسبه إليهم ثم يلقى عليهم تبعة حماقاته •

الواقع أنه لا أسخف فى التشنيع على الناس من هذا المستوى ، إن الإباضية لا يعرفون هذا الشخص المجهول ، ولا يعرفون أقواله ، ولا يسودون بها بياض صحفهم ، وينزهون كتبهم عن مثل هذه الأضاليل • والدعوى الفارغة ، والمقالات الشاذة ، وهم أحرص على أوقاتهم وأوقات قرائهم أن تضع فى مثل هذه الحماقات التى تعاون على نسج خيوطها : التعصب والانغلاق ، والدعاية الفاجرة ، والخيال السقيم ، وعدم الأمانة فى النقل

والشهادة ، ثم توجيه السياسة الماكرة بأساليبها المختلفة ، فوقع ضحية لذلك جماعة من أفذاذ العلماء أمثال ابن حزم الذى نتحدث عنه وبعض من سبقه أو سوف نشير إليه ، وجازت عليهم تلك الأخطاء كلها رغم ادعائهم الحذر والحيلة •

ونحن فى الواقع قد نلتمس للأقدمين عذرا إذا قصرُوا فى الوصول الى الحقائق بسبب ما أشرنا إليه من العوائق • أما المعاصرون الذين يعنون أنفسهم للكتابة عن غيرهم فليس لهم أى عذر فى التقتير ، لسهولة المواصلات ، ويسر المراجع ، وزوال الضغوط المادية والمعنوية من طرق الباحثين ، مشاهداتهم عيانا للأضرار التى لحقت الأمة المسلمة بسبب التشنت والفرقة ، وإدراكهم أن التشنت والفرقة إنما نتج عن تشدد أصحاب المذاهب الفرق فى استمساكهم بأراء أئمتهم ، ونقمتهم ومحاربتهم لكل من يخالفهم ، مما يولد رد الفعل الأشد عصبية والأكثر انغلاقاً •

• عسى الله أن يلهم الأمة المسلمة رشدها ، ويجمع صفها ، ويعيدها الى المحجة البيضاء ، تحافظ على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقتدى بأصحابه فى هديهم ، وتعتبر بقية الأئمة والعلماء إنما هم جنود خدموا الشريعة الإسلامية حسب اجتهاداتهم وفهمهم ، يصدر منهم الصواب والخطأ ليس من حقنا أن نزيد أعمالهم أيهما أرجح ولا أن نفاضل بينهم ، وإنما علينا أن نأخذ من أقوالهم ما أيده الدليل من كتاب أو سنة باعتبار قوة الدليل لا باعتبار صدوره من إمام معين • وليس لنا أن نخرج غيره ممن لم نأخذ بقوله ، لأننا لا نأخذ بأقوال الناس وإنما نأخذ بأحكام الله • ولسنا على أحد ممن مضى بمسيطرين •

أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية

من علماء القرن الخامس الذين كتبوا عن فرق الأمة الإسلامية :
أبو المظفر الاسفرايينى • وقد كتب عن الإباضية فيمن كتب عنه من
الفرق والقارىء الكريم حين يقرأ كتاب أبى المظفر يجده صورة أخرى
باهتة للبغدادى • فهو يدخل الموضع كما يدخل محارب متحمس الى
ساحة معركة حربية حاسمة يتقابل فيها خصمان عنيدان • وهو يعد قبل
ذلك كل ما يستطيع من أسلحة ، أو كل ما أوتى من قوة لينتصر الفريق
الذى يريده ويحطم خصمه تحطيمًا لا يقوم من بعده •

بهذه الروح يبدأ أبو المظفر كتابه (التبصير) وفي المقدمة قسم
الأمة الإسلامية الى قسمين : حكم بالهدى والاستقامة ثم الجنة لقسم
وحكم بالزيغ والضلال ثم النار للقسم الآخر • وهى صورة تكاد تكون
طبق الأصل مما عند أستاذ البغدادى • وليس يهنا فى هذا الفصل —
بطبيعة الحال — إلا حديثه عن الإباضية •

قال فى كتابه التبصير طبعة ١٩٥٥ ص ٥٦ ما يلى :

« الفرقة السادسة الإباضية ، وهم أتباع عبد الله بن إباض • ثم هم
فيما بينهم فرق ، وكلهم يقولون إن مخالفهم من فرق هذه الأمة كفر
لا مشركون ولا مؤمنون ، ويجوزون شهادتهم ، ويحرمون دماءهم فى
السر ، ويستبيحونها فى العلانية ، ويجوزون مناكحتهم ويثبتون التوارث
بينهم ، ويحرمون بعض غنائمهم ، ويحللون بعضها • ويحللون ما كان من
جملة الأسلاب والسلاح ويحرمون ما كان من ذهب أو فضة ،
ويردونها الى أربابها • »

بعد هذه المقدمة الصغيرة التى سبقه إليها البغدادى وأبو الحسن انتقل الى ذكر الفرق السابقة التى ذكرها من قبله أبو الحسن والبغدادى والعبارة فى الغالب عبارة البغدادى مع تصرف بسيط واضح التصنيع بعد أن ذكر تلك الفرق ومقالات كل منها بما فيها من شئاعات وأباطيل كما عرضناها من قبل • عرض الى قصة الجارية التى نقلناها بتفاصيلها عن أبى الحسن • وقد اختصرها الاسفرايينى ولم يهتم بها اهتمام الأشعرى والبغدادى • والإسفرايينى فيما كتبه عن الإباضية فى هذا الكتاب لم يبذل هو الآخر أى مجهود لمعرفة أى شئ حقيقى عن الإباضية • وإنما انساق مع تيار من سبقه ممن كتب عنهم من غيرهم فاعتبرهم فرقة من فوق الخوارج كما فعل الأشعرى والبغدادى وابن حزم من قبله ثم نسب إليهم تلك المقالات التى رأيتها عند الأشعرى ، وجعل من أئمتهم أولئك الأشخاص الذين نسبهم إليهم من سبق دون تحقيق أو تمحيص أو تعليق هو كل ما امتاز به عن سابقيه أنه تتملكه — أثناء كتابه — من حين الى آخر ثورة غضب عارمة فيصب على تلك الفرق وأصحابها سيلا من الشتائم واللعنات •

وقد أحس محقق الكتاب الشيخ محمد زاهد الكوثرى بملاحظتين عن مؤلف الكتاب — قال فى مقدمته للكتاب ص ١٣ ما يلى :

« والمصنف رحمه الله استوفى فى هذا الكتاب — فى غير إملال ولا إخلال — بيان عقائد أصحاب الملل والنحل ببعض عنف فى بعض المواقف » • ويقول بعد أسطر :

« وقد غمز الرازى فى الأجوبة النجارية أبا منصور البغدادى

بالتعصب والقسوة ، وأبا الفتح الشهرستاني السارى وراءه بذلك أيضا ،
ولكن الثانى أُلطف لهجة بكثير » .

ويقول بعد أسطر :

وقصارى ما يؤخذ به علماء هذا الشأن عدم التثبت فى « عزو الأقوال
كما سبق » . والقارىء الكريم حين يقرأ هذه الفقرة الأخيرة من كلام
الشيخ الكثرى يدرك أن الشيخ قد رأى أن أقوالا تنسب الى غير أصحابها ،
وأن ناسا يقولون ما لم يقولوا كما أنه اقتنع بملاحظة الرازى على بعضهم
شدة التعصب وعبارة شيخنا الكثرى الناعمة التى تشير الى الملاحظات
السابقة تحمل معنى الاعتذار عن هذا التصرف من علماء هذا الشأن وكأنه
لا يرى فى ذلك كبير يأس بل إنه حاول أن يبرر موقفهم العنيف ضد الفرق
المخالفة . ويبدو لى أن هذه النقطة بالذات — نقطة عدم التثبت فى عزو
الأقوال — نقطة مهمة . فان عدم التثبت فى نسبة الأقوال الى
أصحابها وعدم التحقق من معرفة ذلك معرفة صحيحة . يؤدى الى نسبتها الى
قوم هم براء منها . وقد يؤدى ذلك الى الحكم على ناس بالفسق أو الكفر
أو البدعة أو الضلال . وهم أبرياء من ذلك وأصح عقيدة ممن يرميهم
بذلك .

وفى الصفحات السابقة أوضحت للقارىء الكريم أمثلة كثيرة فى
عدم التثبت والتحزى فيما نسب به بعض الكتاب الى الإباضية وأن بعض
ما نسبوه إليهم على أنه من مقالاتهم يحكم الإباضية على القائلين به بأنه
مرتد كافر ، أبو المظفر كما أشرت فى السابق كان متأثرا بالبغدادى متأثرا
كبيرا ويظهر هذا واضحا جليا فى أسلوب الكتابة وفى المنهج الذى سلكه
وفى الحقن الشديد على أصحاب الفرق والمقالات التى تناولها . وفى

العنف الذى طبع أحاديثه به • وفى عدم التحرز من الحكم عليها بأحكام
المشركين الى درجة التبجح بذلك • ثم المغالاة فى مدح الفرق الموافقة
الى درجة الإعتزاز والافتخار بالملوك الظالمين وما شادوه من أبنية وأزهقوه
من أرواح •

يقول الاسفرايينى فى كتابه التبصير ص ١٧٦ وهو يعدد ماثر أهل
السنة ما يلى :

« وأما أنواع الاجتهادات الفعلية التى مدارها على أهل السنة
والجماعة فى بلاد الإسلام فمشهورة مذكورة ، مثل المساجد والرباطات
المنشأة فى بلاد أهل السنة • إما فى أيام بنى أمية وإما فى أيام بنى العباس ، مثل
مسجد دمشق المبنى فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان سنيا قتل فى
أيامه ، ما شاء الله من الخوارج والروافض » •

ويقول بعد أسطر :

« وكان بعض المصريين يتغلبون ويسعون فى عمارة شئ منه ولكن
لا موقع لما كانوا يفعلونه مع سوء اعتقادهم » •

وبقطع النظر عن دين الوليد بن عبد الملك الذى يقول عنه أكثر
المؤرخين أنه كان جبارا عنيدا كما جاء فى مروج الذهب للمسعودى
ص ١٦٦ من الجزء الثالث ما يلى :

« وكان الوليد جبارا عنيدا ظلوما غشوما » •

فإن الوليد توفى سنة ٩٦ والمذاهب التى يطلق عليها لفظ أهل السنة

لم توجد بعد فإن أبا حنيفة كان حينئذ غلاما ومالك كان ابن سنة واحدة • أما الشافعى وأحمد فلم يولدا بعد • فلو فرض أن الوليد قدم من أعمال الخير ما يعتز به المسلمون أو يذكرونه في مقام الاحتجاج فإن ذلك يكون سابقا لنشأة المذاهب والفرق ولا حق فيه لهم ودعوى أنه كان سنيا دعوى لا تقوم على أساس ، ولو صح هذا لكان الاعتزاز بعمر بن عبد العزيز أولى وأحق • وإذا افتخر أهل السنة بما قام به الملوك والأمراء ونسبوه إلى أنفسهم فيلزم اعتبار من أعمال أهل السنة المنجنيقات التى وجهت إلى الكعبة والأعمال الرحسية التى قام بها قادة الدولة الأموية فى المدينة المنورة مثلا • لا شك أن القارئ الكريم يلحظ هنا أصابع السياسة الماكرة وهى توجه أقلام العلماء فى دهاء لما تريده فتزين أعمال الدولة الأموية وتعتبرها من أمجاد أهل السنة بينما تنتهى إلى ما يشابه تلك الأعمال لما قام به العبيديون فأسقطوه من الحساب بدعوى فساد نياتهم •

هذا بعض ما تفعله السياسة الماكرة فى توجيه الأقلام •

أما تعبير المؤلف عن الوليد : « وكان سنيا قتل فى أيامه ما شاء الله من الخوارج والروافض » فيؤهم أنه إنما اعتبر الوليد سنيا لأنه آمن فى قتل الروافض والخوارج • ولا شك أن الإمعان فى قتل المسلمين لمخالفتهم فى قول أو رأى يناقض السنة ولا يكون دليلا على التمسك بما ما لم يكن إقامة لحد من حدود الله • وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » • وإذا جاز له أن يعتبر الوليد بن عبد الملك سنيا وأعجبه أنه قتل فى أيامه

ما شاء الله من المسلمين الآخرين أفلا يعتبر الحجاج أيضا سنيا ويعجبه أيضا العدد الهائل الذى قتله الحجاج قال المسعودى فى مروج الذهب صفحة ١٧٥ من الجزء الثالث ما يلى :

« وأحصى من قتله سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا ، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد » •

أبو الفتح الشهرستانى والإباضية

اشتهر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد ذاع صيته بين كتاب المقالات فى العقائد ، ويعتبر كتابه (الملل والنحل) من أهم المراجع فى هذه المواضيع وكثير من كتاب اليوم يعتمدون عليه كمصدر محقق ثابت لا يناقش • ويهمنى أن نرافق هذا المؤلف الكبير بعض الوقت لنستجلى موقفه ، ونرى هل استطاع أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه ؟

يقول أبو الفتح فى كتابه (الملل والنحل) الجزء الأول من الطبعة الأولى لمكتبة الحسين التجارية ص ٤ ما يلى :

« ومن المعلوم الذى لا مرأى فيه أنه ليس كل من عبر عن غيره بمقالة ما فى مسألة ما عد صاحب مقالة » •

ويقول : صفحة ٦ ما يلي :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته هي كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » •

فهل وفى أبو الفتح لما خطه لوضع كتابه • وشرطه على نفسه من استقاء الآراء والمقائد من مصادر أصحابها ؟

يؤسفنى أن أقول أنه لم يفعل ذلك ، وأنه سلك نفس المسلك الذى مرّ به سابقوه ، فهو يبحث عن أسماء الرجال وينسب إليهم الأقوال ليبلغ بعدد الفرق إلى اثنتين وسبعين فرقة يدفعها جميعا — محسنها ومسيئها — إلى النار ويستخلص منها الثالثة والسبعين فيقودها إلى الجنة • وقد اعتمد فى ذلك كله على من سبقه من أصحاب الكتب التى ناقشنا بعضها وإن كان قد خالفهم فى جزئيات يسيرة ربما عرضنا لبعضها فى نهاية هذا الفصل •

وعد أبو الفتح أنه سيذكر الفرق بتجرد ، وأنه لا يصحح ولا ينتقد ، ولا يصوب ولا يخطئ ، ولا يميز بين الصحيح والفساد ، والحق والباطل ، ولكنه ناقض نفسه من الخطوة الأولى • ومن مقدمة الكتاب جرد سيفه وجعل ينظم صفوف الفرق ويصفها فى طوابير طويلة تمتد جذورها فى أعماق التاريخ من عصره إلى عهد إبليس متخذة فى كل عصر مظهرًا مناسبًا من موقف إبليس إلى موقف المشرّكين المنافقين إلى موقف الفرق الضالة ، ويحاول أن يربط العلائق الوثيقة بين هذه الفرق الضالة وأسلافها فى نظره من المنافقين أو المشرّكين أو الشياطين • وهو

يرجع جميع الفرق الضالة في نظره إلى أصول أربعة • يقول في صفحة ١٠ من كتابه ما يلي : « فاللعين الأول لما أن حكم العقل على من لا يحنكم عليه العقل لزمه أن يجرى عليه حكم الخالق في الخلق أو حكم الخلق في الخالق ، والأول غلو والثاني تنصير ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية والمثبئية والغلاة من الروافض حيث غلوا في حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الجلال • وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة حيث قصروا وصفه تعالى بصفات المخلوقين ، فالمعتزلة مثبئية الأفعال والمثبئية حلولية الصفات وكل واحد منهم أعور بأى عينية شاء ، فإن من قال إنما يحسن منه ما يحسن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، فقد شبه الخالق بالخلق • ومن قال يوصف البارئ بما يوصف به الخالق ، أو يوصف الخلق بما يوصف به البارئ تعالى عز اسمه فقد اعتزل عن الدق +

وسنسخ القدرية طلب العلة في كل شيء وذلك من نسخ اللعين الأول إذ طلب العلة في الخلق أولا والحكمة في التكليف ثانيا • والفائدة تكليف السجود لآدم عليه السلام ثالثا • وعنه نشأ مذهب (الخوارج) إذ لا فرق بين قولهم لا حكم إلا الله (١) ، ولا يحكم الرجال ، وبين قوله لا أسجد إلا لك • فأسجد لبشر خلقتة من صلصال • وبالجمل (كلا طرفي قصد الأمور ذميم) (فالمعتزلة) غلوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات (المثبئية) قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام (والروافض) غلوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول

(١) هذه الكلمة مقتبسة من القرآن الكريم في قوله تعالى : « ان الحكم الا لله » في سورة الأنعام وفي سورة يوسف كل ما فعله من قال هذه الكلمة انه أتى بما النافية بدلا من ان النافية .

(والخوارج) قصروا حيث نفوا تحكيم الرجال وأنت ترى أن هذه الشبهات كلها ناشئة من شبهات اللعين الأول • وتلك في الأول مصدرها ، وهذه في الآخرة مظهرها » •

وهكذا ترى من أول الأمر أنه حاول أن يربط بين إبليس وأصول الفرق بتلك الخيوط الضعيفة التي توهم صلاحيتها للربط فهو قد حكم عليها مسبقا بالضلال والزيف واتباع الهوى وإنما يوردها ليحدد بها الإحصائية ويلتمس لها المبررات التي تجعلها ضمن الموكب الضخم الذي يدفعه كتاب المقالات إلى الهاوية •

وفيما يتعلق بوعده ألا يكتب عن أية فرقة إلا بناء على ما يجده في كتب علماء تلك الفرقة فيؤسفني أن أقول أن الإمام الشهرستاني قد أخل بوعده ولم يوف به ، ولم يعمل بالشرط الذي شرطه على نفسه ، هذا على الأقل بالنسبة إلى الإضية • ولست أدري موقفه من كتب الفرق الأخرى وإن كنت أحسب أنه لا يختلف •

والحقيقة أن هذا الموقف من نسبة الآراء والعقائد إلى مصادر أصحابها موقف خطير • فالكاتب حين يعد قراءه بأنه يعتمد في نسبة الأقوال على مصادر أصحابها ، يضع الثقة به في الميزان ، فإن وفى كان أهلاً للثقة والتصديق في كل شيء ، وإن أخل بوعده ، كان موضعاً للشك بجرى البحث من ورائه لتحقيق ما يقول :

قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه الملل والنحل الجزء الأول
ص ٢١٢ ما يلي:

« الإباضية أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان.

ابن محمد فرجه إليه عبد الملك بن محمد بن عطية فقاتله بشالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله وأقواله » •

وقال (أى ابن إياض) إن مخالفتنا من أهل القبلة كفر غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، ومزارعتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام — وحرام قتلهم وسبهم في السرغيلة الا بعد نصب القتال • وإقامة الحجة •

وقالوا إن دار مخالفين من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى • وأجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم ، وقالوا في مرتكبي الكبائر أنهم موحدون لا مؤمنون •

ثم ذكر عدة مقالات قال إن الكعبي حكاهما عنهم ويهمنى أن يعرف القارئ الكريم الملاحظات الآتية عن مراغقتنا لأبى الفتح الشيرستانى :

١ — ذكر أن عبد الله بن إياض خرج أيام مروان بن محمد وقتل بشالة • وهذا خطأ تسرب إلى أبى الفتح وإلى جملة ممن كتب عن الموضوع • لأن عبد الله بن إياض لم يعيش إلى زمن مروان وإنما توفي في أواخر أيام عبد الملك ولعل الذين ذكروا هذا القول اشتبه عليهم بأحد الرجلين : المختار بن عوف ، أو بلج بن عقبة ، من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهم جميعا من الإباضية •

٢ — والمقالات التى نسبها الى الإباضية هى بعض ما نسب له من تحدثنا عنهم سابقا وسوف نعرض لها في بعض فصول هذا الكتاب ونوضح فيها ما كان منها موافقا لمقالات الإباضية ، وما كان مخالفا لها ، وما صيغ بغرض وإيهام يحتاج إلى شيء من الإيضاح والبيان •

٣ — ذكر جملة من المقالات المنسوبة إلى الإباضية ، ونص على أن الكعبي حكاها عنهم • وهذا موقف سليم من أبى الفتح -ين تخلص من عهدة تلك الأقوال ونسبها إلى من حكاها بما فيها من صدق أو غيره •

٤ — حسب الحفصية والحارثية واليزيدية فرقا مستتلة ولم يدخلها في الإباضية وهو موقف فيه تمحيص وتحقيق خالف فيه السابقين ممن كتبوا في الموضوع •

٥ — لم يذكر قصة ثعلبة ولا قصة بيع الأمة وما بنى على ذلك ، فلم كتابه من تلك النزعات الفارغة • والأباطيل الجوفاء •

ويتضح من هذا أن أبا الفتح وإن سلك طريق الآخرين في تقسيم الفرق والحكم عليها إلا أنه كان أكثر دقة واجتهادا وتحريا من سابقه ، وخالفهم في عدد من المواقف تقدر له ، ولا نأخذ عليه شيئا غير ما ذكرناه سابقا في تورطه كما تورط غيره في حكمه على مجموعة من الفرق بالضلال مسبقا مع شرطه على نفسه أنه سيقف من الجميع موقفا سلبيا لا يصوب ولا يخطئ ، ثم وعده بالرجوع إلى مصادر الفرق في نسبة الأقوال وعدم وفائه بذلك • وبالنسبة إلى الإباضية بدلا من أن يرجع إلى علمائهم أو كتبهم التجأ إلى الكعبي • وغيره ممن لم يذكره فوقم في أخطاء كان حريا ألا يقع فيها • أما خطؤه في تاريخ عبد الله بن إياض فهذا خطأ قد لا يسلم من مثله الكثير من الكتاب •

وعلى كل حال فأبو الفتح عندما كتب عن الإباضية لم يأخذ مقالاتهم من مصادرهم وإنما أخذها من مصادر غيرهم ولكن ذكره لتلك المقالات

كان يتسم بدقة الملاحظة والمعرفة لآراء الفرق ، ولذلك فقد نسب ما قيل له عن الإباضية الى رواته ، وجعل بعض من ما كان يحسب على الإباضية وليس منهم فرقا مستقلة وأغفل قصة النزاع على الأمة والطفلة ، وهذا وحده يعتبر منه نقدا وردءا على كتاب المقالات السابقين • وهى خطوة تستحق الثناء والتقدير •

الباب الثاني

مع المعاصرين

- * مع الأستاذ على مصطفى الفوالى
- * مع أبى زهسرة
- * مع عبد القادر ثنية الحمد
- * مع الدكتور هويدي
- * مع الدكتور هويدي أيضا
- * د • هويدي فى تبعية المستشرقين
- * مع عز الدين التنوخى
- * مع الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي
- * مع الأستاذين : التنوخى وإبراهيم عبد الباقي

الباب الثاني

مع المصارعين

الكتب التي تحدثت عن الفرق الإسلامية في هذا العصر — سواء كانت تعنى بالفرق جميعها أو ببعضها — كثيرة ، ومناهجها في البحث مختلفة ، والإحاطة بها غير ممكنة ، والأساليب تناولتها بها تختلف من كاتب إلى كاتب ، منهم التقليدي الذي يرجع إلى المصادر القديمة ، فيأخذ عنها بالنص أو بالمعنى لا يخرج عن دائرة تلك المصادر المحدودة التي عرضها ووثق بها ، وهو في ذلك لا يستخدم فكراً ، ولا يعمل رأياً . ومنهم من يميل عن المصادر العربية إلى المصادر الأجنبية ، يصطنع أسلوبهم ويتخذ منهجاً — في بحثه — شبيهاً بمناهجهم ، ويقتبس منهم الآراء والنظريات ، ويبني على مقتضاها الأحكام . ومنهم من يبذل الجهد ويطلع على مختلف المصادر . ولا يبنى حكمه على فرقة إلا بعد الرجوع إلى مصادرها هي نفسها ، ومقارنتها بما قيل عنها .

وبعد دراسة لموضوع الإباضية في عدد من كتابات المعاصرين واستعراض لمناهجهم وأساليبهم استقر رأيي على أن آخذ نماذج منهم تمثل الاتجاهات السابقة :

وكان اختياري لمن يمثل الاتجاهات السابقة كما يلي :

١ — الأستاذ على مصطفى الغوابي

٢ — الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة

٣ — الأستاذ عبد القادر شيبية الحمد

٤ — الدكتور يحيى م-ويدي

٥ — الأستاذ عز الدين التتوخي

٦ — الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي

أما كتبهم التي كانت مرجعا للدراسة في هذه الفصول فهي حسب الترتيب السابق :

١ — تاريخ الفرق الإسلامية الأستاذ الغوايبي

٢ — المذاهب الإسلامية الأستاذ أبو زهرة

٣ — تاريخ المذاهب الفقهية الأستاذ أبو زهرة

الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة الأستاذ شيبية الحمد

تاريخ فلسفة الإسلام من القارة الإفريقية دكتور هويدى

مقدمات على مجموعة في الكتب الأستاذ عز الدين التتوخي

الدين والعلم الحديث الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي

أرجو أن يجد القارئ الكريم متعة في مرافقة هؤلاء الكتاب العظام •

مع الأستاذ على مصطفى الغوايبي

هذا مؤلف معاصر كتب عن الفرق الإسلامية ، وهو في كتابته عن هذه

الفرق كان يبذل جهدا مشكورا ليظهر بمظهر الاعتدال وعدم التعصب ، واستعمل في كتابته أسلوبا غاية في الرقة واللفظ .

وكان يحاول أن يجمع فرق المسلمين جميعا على صعيد المحبة والاحترام والتعاون ، وأن يذكر ، لكل منبأ — على الأقل — مزاياها الظاهرة في سلوكها العام ، وفي خدمتها للإسلام . ولكنه مع كل ذلك لم يسلم من عدد من الانزلاقات . سببها له اعتماده المطلق وثقته الكاملة في جانب واحد من كتب المقالات فقد اعتمد في جميع ما كتبه عن الإباضية — وهم في نظره وفي مصادره فرقة من فرق الخوارج — على المصادر الآتية :

المقالات للأشعري

والفرق بين الشرق للبغدادى

والملك والنحل للشهرستانى وكتاب التبصير للإسفرايينى

وهذه الكتب الأربعة قد سبق أن تحدثنا عنها وعرفنا موقفها من الإباضية كما أشار أحيانا قليلة إلى الرازى ، واعتمد في معرفة مواطن الإباضية في العصر الحاضر على المستشرق جولدتسيهر . ومعروف بالبداهة أنه مادامت هذه مصادره فإنه لن يخرج في تكوين رأيه عن نطاقها ، اللهم إلا باللهجة والأسلوب . ومع كل هذا فقد كانت له وقفات جديرة بالتقدير لأنها تدل على نزعة حرة في التفكير فعمل بوعى ، وأنه لا ينساق مع التيار دون أن يرى ما في طريقه من تعرجات وأخاديد .

قلت : إنه يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج ولذلك فإنه من المهم

— فيما أرى — أن أصحابه قليلا حينما يعرض نجم حتى أستطيع أن أعدد
جوانب النقاش على أسس واضحة •

يسوق ثلاثة تعاريف لمعنى كلمة الخوارج فيقول :

١ — « إنهم سموا خوارج لخروجهم عن علي بن أبي طالب » •

ويعزو هذا التعريف إلى أبي الحسن الأسعري •

٢ — يرجح في هامش الصفحة أن التسمية مأخوذة من قوله تعالى
(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد
وقع أجره على الله) وعلى هذا تكون التسمية لقب مدح لازم وتكون
منهم لا من مخالفهم ، وأن حياتهم التي صبغت بالتفاني في القتال
تحقيقا لمبادئهم تساعدنا على هذا الاستنتاج •

٣ — « إن كل من خرج عن الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه
يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة في كل
زمان ، وعلى هذا التعريف يكون تسميتهم بالخوارج من مخالفهم
لامنهم ، وأن الخوارج مستمرون في كل وقت مادام يوجد من يخرج
على رؤساء الحكومات » وينسب هذا التعريف إلى الشهرستاني •

ورغم أنه يرجح التعريف الثاني إلا أنه يقول : « ولكن هناك فرق
بين الخوارج بهذا الاصطلاح — أي الاصطلاح الذي نسب به إلى
الشهرستاني — والخوارج الذين نؤرخ لهم • وهو بعد أن يذكر هذا
يحاول أن يلخص حركتهم في مجرى التاريخ ولكن هوة عميقة تعترض
طريقه فلا يستطيع أن يتخطاها — كما فعل المؤرخون وأصحاب المقالات

من قبله — دون وقفـة رائعة من التفكير والتأمل • ثم يستعرض آراء الخوارج في الجملة — كما تصورها مصادرهم ثم ينتقل إلى استعراض فرقهم الأصلية فرقة فرقة حتى يصل إلى الإباضية متبعا في ذلك نفس المنهج الذي سارت عليه تلك المصادر ولكنه فوجيء مفاجأة أخرى — لم يهتم لها السابقون — تركته يقف في حيرة وتأمل •

ولكى نوضح للقارئ الكريم هذين الموقفين يجدر بنا أن نعود إليهما بشيء من التفصيل • كان الأستاذ الغواي يخلص حركة الخوارج في مجرى التاريخ حسب مصادرهم السابقة وتتبعها حتى ذكر أن أهل النهروان قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا تسعة أشخاص من أربعة آلاف وتذكر تلك المصادر أن الأربعة الآلاف لم يستطيعوا أن يقتلوا من محاربيهم إلا تسعة أشخاص كأنما كان أولئك الناس مقيدين لا يحملون سلاحا • وأن أولئك التسعة الذين نجوا من تلك المجزرة الرهيبة تفرقوا في البلاد ولا شك أن من كان على مثل هذه الحالة لا يستطيع أن يقوم بحركة في مدى قريب • ولكنه فوجيء وهو يستعرض أحداث التاريخ بأن العصر الأموي ابتداء من معاوية — وبعد أن قُتل المحكمة كلهم على ضفة النهر — كان مشحونا بحركة دائبة للخروج فلم يظهر له كيف يربط الصلة بين المحكمة الذين قضى عليهم حسبما تذكر المصادر وبين حركة الخوارج فيما بعد ويتساءل عن هذه العلاقة فيما بينهما في حيرة ولكنه لا يحظى بجواب لأن المؤرخين السابقين لم يقدموا أى شيء عن ذلك بل إنهم لم يهتموا أو لم يحسوا به ولذلك فهو يستسلم في ارتياب وحيرة ثم يتخذ موقفا ظن أنه يقدم بعض الحل إذا لم يقدم الحل كله فاعتبر المحكمة سلفا للخوارج ولو أنه لم يستطع أن يوضح هذه الرابطة السلفية أو يقدم لها تفسيراً اللهم إلا إذا كان يراها — فيما بينه وبين نفسه — بوراشة

فكرية أو نسبية غير مباشرة • ذلك أن المحكمة إنما كان الخلاف بينهم وبين أمير المؤمنين على وقد انتهوا في سنة ٣٧ من الهجرة أما الخوارج فقد وضع موقفهم بمبادئهم الخاصة ضد الأمويين في سنة ٦٤ للهجرة بقيادة الأزارقة والنجيدات كما يرى الأستاذ الغوابي وإذن فهناك انقسام تاريخي علمي بين حركة المحكمة وحركة الخوارج وهناك انقسام فكري بينهما أيضا وإن لم يشر إليه الأستاذ الغوابي صراحة ولكنك تحسه وأنت تقرأ وذلك أن الميدان الذي يشتغل فيه الخوارج غير الميدان الذي اشتغل فيه المحكمة •

وحين كان يستعرض مبادئ الخوارج وأفكارهم عامة وجد أن المصادر التي يعتمد عليها ترميهم بالثبذ والتشدد وضحالة الفهم والعقل ، فلما استعرض فرقتهم فرقة فرقة واستعرض الإباضية — كفرقة من الخوارج حسب المصادر التي يعتمد عليها — لم يجد فيها تلك الصورة الشرسة البغيضة التي ترسم عن الخوارج — سواء كان القصد من الرسم إعطاء صورة عنهم أو إعطاء صورة لهم — فوقف وقفته الثانية من التأمل والتفكير ، والمؤرخون — كالعادة — لا يقدمون له الحل وهو لا يستطيع أن يتهم المصادر التي يعتمد عليها ، فهي من الكثرة والتعدد بحيث لا يسهل اتهامها • وخطر له الحل فهو قد افترض أن للخوارج سلفا وخلفا فما يمنع أن يكون الخلف قد غيروا موقفهم عن سلفهم فتساهلوا بدل التشدد الذي كان عند سلفهم ولما كانت آراء الإباضية لا تحمل شيئا من طابع الخوارج الذي تصفه المصادر ، وموافقهم لا تتفق مع مواقف أولئك المتشددين فما يمنع أن يكون الإباضية هم خلف الخوارج ولكنهم تساهلوا وعدلوا عن موقفهم المترمت • ولا شك أن هذه الفكرة كانت في مبدأ الأمر خاطرة خطرت في ذهن الأستاذ الغوابي وهو يقلب وجوه الرأي للخروج من الهوة التي تركها المؤرخون وكتاب المقالات دون

أى اهتمام ، وانتقلت الخاطرة فصارت فرضاً ثم صارت حقيقة حلت
المشكلة فى ذهن الأستاذ وبنى عليها بحثه فيمابقى • ولكن هذه الخاطرة
أر الغرضية كالغرضية الأولى نبتان متناجحتين كالخشبـة التى توضع
للبور فوق حوة عميقة ما تطلوها قدم حتى تهتر ويحس المار بالحقيـة
المختفية تحته • وأحب هنا أن أذكر للقارىء الكريم أن الكتاب الذين
تناولوا الخوارج فى أبحاثهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول هم أولئك الكتاب المتشددون الناقمون الذين يخرجونهم
من الإسلام أو يكادون ، وهم يرمون عليهم كل أوزار التاريخ الإسلامى
يقول مؤرخ معاصر (١) : « ومنذ أن خرجوا على سيدنا على انفتح باب
الفتنة فلم يسد بعد • ولن يسد مادام لهم أنصار على وجه الأرض » •

القسم الثانى هم أولئك الذين ينقلون ما يجدونه فى المصادر دون
دراسة أو تفهم أو تحليل وآراؤهم تكون حسب الصدفة فإذا وقعوا على
مصادر تميل الى الخوارج أو تعطف عليهم كان لهم رأى وإذا وقعوا
على مناوئة لهم كان لهم رأى آخر مغاير •

القسم الثالث هم أولئك الذين يقفون منهم موقف الاعتدال
يحسبونهم من جملة المسلمين ويتحدثون عنهم بلطف وسماحة وقد يلتمسون
لهم الأعذار وربما أيدوهم فى بعض آرائهم ومبادئهم وفى هذا القسم
الأستاذ على مصطفى الغوابى وقد حاول أن يعتذر للخوارج بأعذار سبق
أن اعتذر لهم بها كتاب سابقون وفى إمكانى أن ألخصها لك فى عدد من
النقاط مستخلصة من فصله « الحكم عليهم » كما يأتى :

١ — كان إدراكهم للتعاليم الدينية إدراكاً سطحياً •

(١) انظر كتاب الفتح العربى فى ليبيا الطبعة الاولى ص ١٠٤ •

٢ — كان يصاحب إدراكهم إخلاص لما عرفوه من الدين حسب فهمهم •

٣ — إخلاصهم لعقائدهم جعلهم ينكرون على كل من يخالف أمراً من أمور الدين — حسب فهمهم وإدراكهم — •

٤ — هذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيهم بالشرك أو الكفر •

٥ — عدم الدقة في الأحكام كانت عند أوائل الخوارج •

وهكذا ترى أن الاعتذار عنهم — حتى ممن يعطف عليهم ويتسامح معهم — هو الآخر اتهام بصورة أخرى قد تكون أقسى وأشد •

والمشكلة الحقيقية في كتاب المقالات ان الواحد فيهم حين ينتصب للكتابة يعطى لنفسه حقين ثابتين ينطلق من خلالهما :

الحق الأول أن الفرقة التي ينتسب إليها هي التي تمثل الإسلام حقيقة فهي غير خاضعة لا للتقويم ولا للنقد ولا للمقارنة وحكمها على غيرها هو حكم الإسلام نفسه وآرؤها وعقائدها هي الميزان الذي توزن به عقائد وآراء الآخرين •

الحق الثاني يرى أنه ما دام ينتسب الى فرقه محقة تمثل الإسلام فمن صلاحياته أن يحكم على الفرق الأخرى وأن يقرر بعدها أو قربها من الإسلام بمدى الخلاف الذي بين تلك الفرق وفرقتها •

وهو لا يجد أى حرج في أن يصدر أحكاماً عامة أو خاصة على الآخرين بهذا الاعتبار على هذا الأساس •

وإذ ذلك قال الأستاذ الغوايبي رغم اعتداله ومحبته لوحدة المسلمين فهو قد حدد لنفسه موقفا في فرقة محقة لا تخضع للتقويم ومن موقفه العالي ذلك يرى الفرق الأخرى وهي ترتكب أخطاءها ولما كان من طبعه اللين والتسامح فقد راح يعتذر عنها — تأليفا — وثانيا — بأنها فرق ساذجة بسيطة ليس لها ملكة الفهم ولا التعمق والتفكير ومن كانت هذه حالته فينبغي ألا يأخذ وإنما يستأنس ويستجلب ويرفق به •

أو هذا على الأقل بالنسبة لما رآه عن الخوارج وقد أطلت النقاش في موضوع الخوارج لأنه يعتبر الإباضية فرقة منهم وأغلب ما يقال عن الخوارج يشمل الإباضية •

بعد هذا يسرني أن أنقل إليك بعض ما قاله في الإباضية خاصة •
فقد جاء في كتابه القيم (تاريخ الفرق الإسلامية) في فصل الخوارج ما يلي :

« وأما الإباضية وهم إحدى الفرق الأصلية (١) عند الأشعرى وينسبون لرئيسهم عبد الله بن إياض فإن فروعهم هي :

١ — الحفصية وإمامهم حفص بن أبي المقدام •

٢ — البيزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة •

٣ — الحارثية أصحاب حارث الإباضي •

(١) يقصد أنها فرقة أصلية من فرق الخوارج لأن أبا الحسن الأشعرى يرى أن الخوارج ينقسمون أولا إلى فرق أصلية وأن كل واحدة من الفرق الأصلية تنقسم إلى عدد من الفرق يعتبرها الأشعرى فرقا فرعية للخوارج •

٤ — ومنهم من يسمون أصحاب طاعة لا يراد بها وجه الله ومنهم الواقفية ومن الواقفية الضحاكية « واقفية أخرى » وسبب تسمية الأولى والثانية بالواقفية أن كليتهما وقفت بين فريقين اختلفا على حكم فلم ينضما الى أحد الفريقين المختلفين وقالوا نتف فسموا واقفة لهذا » •

وقد سبق أن اطلع القارئ الكريم على هذه الفرق المزعومة عند الكتاب الأقدمين كأبي الحسن ومن ذكر بعده بتفصيل أكثر • وعلم هناك أنه لا أساس لنسبة هذه الفرق الفرعية الى الإباضية وأن ما ينسب إليها من المقالات لا يقول به الإباضية ومنه ما يحكمون على قائله بالكفر •

وقال الأستاذ الغوابي في نفس المصدر ما يلي :

« أما الإباضية فقد تساهلوا في كثير من الأحكام التي كان يشدد فيها سلفهم فقالوا إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين (١) ، وأن مناكرتهم جائزة ، ووراثتهم حلال ، وأن أموالهم إذا غنمت من الحرب حلال ، إذا كانت مما يعين على الحرب كالسلاح ، وما عدا هذا في الأموال فهو حرام ، ويحرم قتلهم غيلة وفي السر ، وإنما يجوز القتل إذا أقاموا على خصومهم الحجة ، وأعلنوهم بالقتال ، وقالوا إن جميع ما افترضه الله سبحانه على خلقه إيمان فعندهم الإيمان تدخل فيه الأعمال ، والأعمال جزء منه ويظهر أن هذا الرأي هو الغالب على فرق الخوارج ، فتلك لطائفة تقدر الأعمال وترفع من شأنها ، ونعم هذا الرأي • وليت المسلمين يتمسكون به ، إلا أنه إذا ارتكب مؤمن كبيرة من

(١) انساق الغوابي مع التيار فاستعمل هذا التعبير الملتوى وله ما اختار .

الكبائر فهو كافر كفر نعمة لا كفر شرك ، ولكن مع قولهم بهذا فإنهم يقولون بتخليده في النار .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد لا دار كفر ، وهذا أيضا من نواحي تساهلهم . حيث أن سلفهم كانوا يقولون إن دار مخالفيهم دار شرك ، ومما خالفوا فيه سلفهم وكانوا أكثر تساهلا منهم فيه أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم ، وأما أطفال المشركين فبعضهم يلزمهم على غير طريق الانتقام ، وجوز أن يدخلهم الله الجنة ، وبعضهم يقول إن إسلامهم واجب لا جائز ، ومن هنا نرى أن متأخري الخوارج كانوا أكثر تساهلا مع مخالفيهم أكثر من متقدميهم ، وأن هذا التساهل بدأ يزداد شيئا فشيئا ولا ندري هل سبب هذا التسامح هو أنهم ضعفوا لكثرة حربهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئا فشيئا حتى لا تقوم بينهم الحرب أم أنهم لما اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم الذين كانوا من عرب البادية ، وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير ، كانوا أكثر تسامحا مع مخالفيهم من سلفهم ولا مانع من أن يكون قد اجتمع لديهم السببان معاً . فالحروب قد أضعفت من حماسهم ، وأن مداركهم قد اتسعت عن مدارك سلفهم ، وأصبحت نظرتهم فاحصة وعميقة في نواحي الدين أكثر من سلفهم .

ويقول في موضع آخر من الكتاب ما يلي :

« ولكن يظهر أن عدم الدقة في الأحكام كانت عند أوائل الخوارج — كما قلت — وأما متأخروهم فإنهم قد دققوا في الأحكام ، وفرقوا بين عمل وعمل ، ولم يشتموا في أحكامهم ، كما اشتمت سلفهم وكما لاحظنا

فيما تقدم صارت أحكامهم على مخالفيهم فيها تسامح وفيها تساهل • ليس كل مخالف لهم كافرا أو مشركا ، وليس أطفال المشركين مغلدين في النار • وليس حكمهم حكم آبائهم ، ويلاحظ أنه لما ضمنت قوتهم الحربية اتجهت نفوسهم نحو الإنتاج العلمى ، حتى أصبحت لهم مؤلفات فقهية وكلامية ولغوية وأدبية ، ويلاحظ أن فرقهم لم ييدهم أعداؤهم تماما بل بقى منهم إلى عهدنا هذا جماعات يسكنون في إفريقيا الشمالية من خوارج الإباضية وهؤلاء يقيمون في إقليم جبل نفوسة بطرابلس الغرب ، ويوجد كذلك فريق آخر بزنتبار بأفريقيا الشرقية » •

هذا ما قاله الأستاذ الغوابى عن الإباضية خاصة وواضح أنه استقى جميع معلوماته عن الخوارج عامة وعن الإباضية خاصة من مصادر غيرهم فهو لم يذكر أى كتاب من كتب الإباضية كما لم يذكر أى كتاب للخوارج إن بقيت لهم كتب بعد هذا أود أقف مع الأستاذ الغوابى وقفات قصيرة لمناقشة بعض النقاط الواردة في بحثه •

النقطة الأولى : مخالفوهم :

من المؤسف أن الذين كتبوا عن الإباضية — وهم يحسبونهم من الخوارج كانت تسيّر أقلامهم عقدة مستحكمة لم يكدهم يتخلص منها واحد منهم ذلك أن بدا في يوم ما كانت قد رسمت ببراعة الخط الذى يسير عليه من يكتب عن الخوارج وأن يكون هذا الخط لا يخرج في طبيعة سيره عن معاملتهم لمخالفهم وسار كتاب المقالات في الخط المرسوم — لا تكاد كتاباتهم عن الخوارج تخرج عن معاملاتهم لمخالفهم ومحاسبتهم عليها الحساب العسير ، ولم يسمح أولئك الكتاب لأنفسهم أن يبحثوا ويناقشوا الجانب الثانى من الموضوع وهو معاملة مخالفهم لهم ولم يخطر

لهم أن يفرضوا حتى مجرد فرض أن هذا السلوك ربما كان رد فعل أو من
باب الدفاع •

وقد خضع الأستاذ الغوابي لهذا التوجيه وسار مع نفس الخط
فذكر — في الفقرات القليلة كلمة مخالفيهم نحو عشر مرات صراحة فوق
دلالة الضمير عليها • ولكثرة ما ترددت على ما في كتب المقالات ولأنها المتجه
الأساسي للكتاب ومركز لبحوثهم سميتها عقدة الكتاب عن الخوارج •

٢ — الانسياق مع التيار :

انساق الأستاذ الغوابي مع تيار كتاب المقالات فذهب يعدد فروع
المسألة الواحدة كما كانوا يفعلون هم للتهويل والإكثار ولو تأمل قليلا
لوجد أنه قد ذكر للإباضية في الفقرات السابقة إحدى عشرة مقالة منها
ثمانى مقالات تتعلق بمخالفهم • « هم غير مشركين ، مناكرتهم جائزة •
ورأيتهم حلال ، غنيمة أموالهم غير جائزة ما عدا السلاح (١) ، لا يجوز
قتلهم غيلة أو في السر ، لا يجوز قتال خصومهم إلا بعد الإعلان وإقامة
الحجة ، دارهم دار إسلام ، شهادتهم جائزة على موافقيهم » وهذه
المقالات كلها مسائل فرعية لموضوع واحد وهي فروع تنبى على
أصل واحد هو الإسلام فما دام الإباضية يرون أن جميع من
نطق بكلمة التوحيد هو مسلم سواء وافقهم أو خالفهم وأنه بنطقه
بكلمة الشهادة قد اكتسب جميع الحقوق التي عند غيره من المسلمين أو التي

(١) الإباضية لا يبيحون شيئا من أموال المسلمين حتى السلاح خوفا لما
ينسبه إليها كتاب المقالات •

يمنحها الإسلام للمسلمين فلا داعى لأن نبدأ فى تعداد تلك الفروع فرعاً فرعاً • لأنها من حقوق المسلمين جميعاً ولا تسقط عنهم إلا بأسباب حددتها الشريعة كما يسقط حق الباغى وقاطع الطريق فى عصمة دمه و لا يباح ماله ولا سبى عياله • بل إن تلك الحقوق وانحرم مصونة لكل مسلم لا تسقط أبداً مهما ارتكب ولا تضيع منه إلا بالخروج من الإسلام • والشئ الوحيد الذى يفقد الإنسان حق صيانتته مع أنه مسلم إذا وجدت أسبابه هو دمه وذلك كالباغى والزانى •

٣ — تساهل الخلف :

يقول الأستاذ الغوايى — إن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم وقد أعاد هذه الفكرة عدة مرات • ولست أدرى على أى مستند بنى حكمه هذا ، فهو فيما يبدو لا يعرف أى كتاب من كتب الإباضية لأنه لم يذكر منها شيئاً فى مراجعه ومع ذلك فأنا أقول له إن تغير الاجتهادات فى غير القطعيات من محاسن هذه الشريعة ولم يخل منها مذهب من المذاهب الإسلامية وقد يتغير رأى عالم واحد فى قضية واحدة فيكون له فيها رأى أو آراء ولم يكن ذلك دليلاً على أن صاحب الرأى الأول ، أو أن العالم فى رأيه الأول ، كان سطحياً أو ضيق التفكير •

ومع هذا فأنا أؤكد للأستاذ الغوايى أن المسائل التى أوردتها لم يتغير فيها رأى خلف الإباضية عن سلفهم فيما عدا مسألة واحدة هى مسألة أطفال المشركين فقد كانت عند السلف خلافيه ورجح الخلف أنهم من أهل الجنة خدماً للمسلمين طبقاً للأحاديث الواردة فى الموضوع • أما المسائل الثمانية التى ذكرناها سابقاً فهى فروع لأصل واحد كما قلنا ورأى سلف الإباضية فيها هو هذا الرأى الذى سجلناه وتكاد تجمع كتب التاريخ أن

أول من حكم بالشرك على مخالفيه من المسلمين فعاملهم معاملة المشركين وأسقط عنهم تلك الحقوق السابقة هو نافع بن الأزرق • وتكاد تجمع كتب التاريخ أن عبد الله بن إياض كان من أوائل من رد على نافع رأيه هذا إذا لم يكن أولهم على الإطلاق وقد سجلت منذ ذلك التاريخ حوالى سنة ٥٦٤ مواقف حاسمة لعبد الله بن إياض وجابر بن زيد في مقارعة الخوارج في موضوع الحكم بالشرك على المخالفين والقعدة وفي موضوع الحكم بالشرك على مرتكب الكبيرة • بل لقد كان الإباضية من أشد المسلمين على الخوارج في هذا الموضوع بالذات حتى أنهم كانوا يطردون من يرى رأيهم من حضور مجالسهم واجتماعاتهم ويمنعونهم من الحديث بآرائهم تلك خوفاً على ضعفاء الناس وعوامهم • وأود الآن أن يعرف الأستاذ الغواي ومن يرى رأيه أن سلف الإباضية — بعد الصحابة الذين هم سلف لجميع فرق الأمة ومنهم الإباضية — هم هؤلاء جابر بن زيد وعبد الله بن إياض وجعفر بن السماك العبدى وصحار بن العباس العبدى ثم من أخذ عنهم •

وليس فوق هؤلاء سلف غير الصحابة كما قلت آنفاً أما التابعون من طبقة جابر كالحسن والسعيد بن عطاء وغيرهم لمن هو في درجتهم فهم أيضاً سلف لجميع الأمة والإباضية يضعونهم في مكانهم بعد أصحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنهم جميعاً •

وبهذا يتضح أنه لا معنى لما يراه من أن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم في المواضيع التي عرضها أما في غيرها من المواضيع الاجتهادية في الفقه العملى فهم فيه كبقية الأمة قد يذهب أحد مجتهديه من الخاف الى التيسير في مسألة كان السلف يرى فيها التشديد ويحضرني في ذلك مثلاً قريبيان :

الأول في قضاء رمضان فإن المعمول به عند الإباضية أنه يجب التتابع في القضاء كما يجب في الأداء • وذهب الأستاذ باكلي عبد الرحمن من علماء الإباضية المعاصرين الى عدم وجوب التتابع تيسيراً على الناس واستناداً الى ما ذهب اليه بعض الأئمة من غير الإباضية •

الثاني : يرى علماء السلف من الإباضية أن طعام أهل الكتاب يحل إذا كانوا تحت الذمة أما إذا لم يكونوا كذلك فلا يحل طعامهم ولا نكاح نسائهم • وكأنما يرون أن هذا مرتبط بالجزية والجزية تدل على وجود رقابة اسلامية عليهم فإن انعدمت الجزية انعدمت الرقابة وإذا انعدمت الرقابة انعدم هذا الإكرام أو الشرف الذي يعطى للكتاب دون غيره •

وقد زار أستاذنا إبراهيم بيوض أحد أئمة الإباضية ومجتهديهم في العصر الحاضر • أوروبا ورأى العنت الذي يتكبده طلبة العلم بصفة خاصة في موضوع الأكل فذهب الى تحليل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً سواء كانوا تحت الذمة ولم يكونوا كذلك تيسيراً على الناس واعتماداً على العموم في الآية الكريمة واستناداً الى ما ذهب اليه بعض أئمة المسلمين في مختلف العصور •

والمشكلة التي تركت الأستاذ الغواي يضطرب هذا الاضطراب • ويفترض خلفاً متساهلاً وسلفاً متشدداً في قضايا انتقلت عبر القرون بألفاظها وحروفها هو ربطه للإباضية في عجلة الخوارج اعتماداً على كتاب المقالات من غير الإباضية ودون الرجوع إليهم في كتبهم •

٤ - بحث عن الأسباب :

يختار الأستاذ على الغواي في أسباب تساهل الإباضية عن سلفهم

وتسامح المتأخرين منهم عن المتقدمين وبعد الحيرة والتساؤل يستنتج أن ذلك كان للأسباب الآتية :

١ — ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفهم شيئاً فشيئاً حتى لا تقوم بينهم الحروب •

٢ — اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم •

٣ — سلفهم كانوا من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير •

•

لا شك أن هذه الأسباب التي ذكرها الأستاذ الغوابي هي افتراضات قدمت لحلول مشاكل هي الأخرى افترضت افتراضاً ولا يعنيها في شيء ، ما إذا كان يوافق الأستاذ الغوابي في هذه الافتراضات أحداً من المستشرقين أو من الكتاب الآخرين • ولقد كان بودنا لو أن الأستاذ الغوابي بنى استنتاجاته وفروضة بعد أن يكون اطلع ودرس تاريخهم الذي كتبوه عن أنفسهم •

أشار الأستاذ الغوابي إلى ضعفهم بسبب كثرة حروبهم وربما يفاجأ القارئ، بعكس الصورة إذا وضعت بين يديه الحقائق الآتية :

إن كتب التاريخ الإباضية — وهي أعلم بهم وبحروبهم — لم تذكر لهم حرباً في الجزيرة العربية غير حرب واحدة هي الحركة التي قام بها عبد الله ابن يحيى الكندي المشهور — بطالب الحق — طيلة عهد الدولة الأموية رغم أن الإباضية كانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد العربية

وكان مركز تكوينهم وتجمعهم هو البصرة ورغم أن إمامهم عبد الله بن إياض كان شخصية مليئة بالنشاط والحركة وكان شديد العنف في نقده للملك الدولة الأموية وسجلت له مناظرات مع عبد الملك بن مروان كما كان شديد العنف في نقده للخوارج وسجلت له أيضاً في ذلك مواقف ورسائل إلا أنه لم يشترك في عملية حربية لا ضد هؤلاء ولا ضد هؤلاء بل لما طلب إليه عدد من الناقمين على الحكم الأموي أن يبايعوه رفض في شدة ثم أشار إلى عمران المساجد بالذكر والصلاة وقال، في لهجة احتجاج أعلى هؤلاء يجوز الخروج؟! ويتضح من هذا أن تلك الفترة التي كانت مليئة بالدماء أمسك الإباضية أنفسهم فلم يلوثوها باللحم إذا كان من أفراد متطرفين ينتمون إلى الإباضية بالاسم لا بالمبدأ ..

وقد قام باسم الإباضية عدد من الدول في أربعة مواضع من البلاد الإسلامية هي :

١ — دولة في عمان استقلت عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح سنة ١٣٣ هـ ولا تزال إلى اليوم . ونم تبدأ أحداً بحرب ، ولم تحاول أن تتوسع ، ولكنها هوجمت عدة مرات فردت الاعتداء وحاولت الرد ، كما قامت فيها صراعات داخلية بين الإمامة والملكية ثم كان لها شرف دفاع الاستعمار الغربي نحو أربعة قرون فقد أتجه الاستعمار الغربي منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى الشرق وكانت دولة عمان من أهم الدول التي وقفت لصدده ومحاربه منذ ذلك الحين إلى اليوم وقد كانت زنجبار شبه إمارة تابعة لعمان ثم استقلت بنفسها وبقيت كذلك حتى أزالها تعاون الإلحاد والعنصرية الإفريقية ضد العروبة والإسلام .

٢ — دولة قامت في ليبيا ١٤٠ هـ ولم تعمر طويلا فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات •

٣٩٠ هـ

٣ — دولة قامت في الجزائر سنة ١٦٠ هـ وقد بقيت إلى حوالي ١٩٠ هـ ثم قضت عليها الدولة العبيدية ومنذ ذلك الحين لم يرفع الإباضية السلاح في المغرب الإسلامي ضد المسلمين ولم تمتد أيديهم لإراقة الدماء اللهم إلا تلك المواقف النبيلة الشريفة التي وقفها أهل جزيرة جربة ضد الغزو الأسباني عدة قرون وكانت لهم في ذلك مواقع بطولة يعتز بها الإسلام والمسلمون أو مواقفهم مع كل مواطن تونسي ضد فرنسا في حروب الاستعمار • وما عدا المواقف الحاسمة من جميع إباضية المغرب الإسلامي في ليبيا وتونس والجزائر — ضمن جميع المواطنين في هذه البلاد لصـد الاستعمار الغربى عند هجومه وفي حروب التحرر عند إخراجـه •

٤ — دولة قامت في الأندلس ولا سيما في جزيرتي ميورقة ومينورقة وليس لدينا من أخبارهما الكثير • وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفاً التعصب الغربى شعلة الإسلام في تلك الديار •

ومن هذه الصورة الموجزة يتضح أن الإباضية كانوا بعداء جداً عن الموقف الذى تصورهم فيها الأستاذ الغوايى من كثرة الحروب أما من حيث تقربهم إلى غيرهم من المسلمين فلا شك أن هذا واقع ولكن ليس على الأساس الذى ظنه الأستاذ الغوايى ولكن على الأساس الذى أثنى عليه رسول الله ﷺ « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن أخلاقكم » أو كما قال:

أما من حيث اتساع المدارك ومعرفة خلف الإباضية ما ليس يعرفه

سلفهم فهم في هذا كبقية المسلمين • ولا شك أن العلوم في تقدم والفكر في اتساع وهذا في جوانب علوم الحياة أما من حيث علوم الشريعة ، فربما يكون العكس هو الصحيح • وهذا ليس بالنسبة للإباضية فقط وإنما بالنسبة لجميع المسلمين ، ذلك أن السلف — لقربهم من عهد النبوة — أعلم بمصادر التشريع في كتاب وسنة وأقرب إلى فهمها فهما أصح ، وما يقال في السنة يقال في الإجماع ، ذلك أن الإجماع بمعناه المعروف عند الأصوليين لم يقع بعد عهد السلف فهو وإن اعتبر من مصادر التشريع إلا أنه لم يقع بعد ذلك العهد ، أما الإجماع الذي سبق عهد السلف وأعني به الإجماع الذي وقع زمن الخلافة الرشيدة وهو إجماع الصحابة فهم أعرف به لأنهم هم الذين نقلوه إلى الخلف • بقيت مصادر التشريع الأخرى كالقياس والاستبدلال مما هو مجال للاجتهاد واستنباط الأحكام في الحوادث والنوازل • فلا شك أن ثروة المتأخرين منه أكثر من ثروة المتقدمين وكلما امتدت الحياة بالإنسان أضيف إلى هذا الباب كثير من الأحكام • ويتضح من هذا أن خلف الإباضية لم يكونوا أوسع مدارك من سلفهم وكذلك بقية مذاهب الأمة وهذا من حيث استيعاب مصادر التشريع الأساسية التي هي الكتاب والسنة والإجماع •

أما الفقرة الثالثة من الأسباب التي افترضها في سلف الإباضية وهي اعتبارهم من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق في التفكير • فهي صورة قد ترددت كثيرا على أقلام المستشرقين عندما يكتبون عن الفتوح الإسلامية بأيدي العرب • فهم يصورون حركة الفتوح بأنها هجمات مجموعات بشرية من بدو الصحراء ضاقت بهم الحياة وحملهم شظف العيش على المغامرة بغزو العالم المتحضر لكاسب مادية • وأن هذه المجموعات البشرية البدوية من السذاجة وسطحية التفكير بحيث استطاعت

« قيادة ذكية » أن توجههم حسب مطامعها فتستفيد منهم وتحصل بسببهم على انتصارات رائعة •

هذه النعمة أو هذه الصورة التي يرسمها المستشرقون - لهوى في نفوسهم - للمسلمين الفاتحين هي نفس النعمة التي رددتها بعض المصادر في وصف الخوارج عموماً وهي نفس الصورة التي أضفاها الكاتب المحترم على الإباضية •

وقد يحق لنا أن نتساءل كيف استطاع الأستاذ الغوابي أن يحكم بأن آفق خلف الإباضية أكثر انفساحاً من آفق سلفهم وهو لم يذكر أنه قرأ شيئاً من آراء السلف أو آراء الخلف في مصادرهم وإنما ما أخذ عنهم من مصادر غيرهم ثم من أين عرف أنهم بدو وفيهم سذاجة وسطحية تفكير وهو لم يتح له أن يقرأ لهم ولم يتح له أيضاً أن يعرف تاريخهم اللهم ما عدا الصورة الصغيرة المشوهة التي يعرضها غيرهم لتنفير الناس منهم •

إن أحكام الأستاذ الغوابي على الإباضية كانت مبنية على أسس غير سليمة وأعتقد لو أنه عرف تاريخهم من مصادر صادقة واطلع على مقالاتهم كما قالوها وكما نسبت إليهم لتغير كثير من أحكامه ومع هذا كله فأنا أعتذر عن الأستاذ الغوابي بما يشبه اعتذاره عن الإباضية فهو ولا شك مخلص في دعوته محب لجمع كلمة المسلمين جميعاً مقدر لهم في كل فرقهم معتز بهم بأخطائهم وإنما وقع في عدد من الانزلاقات بسبب جهله بحقيقة تاريخهم وجهله بحقيقة مقالاتهم وجهله بالفروق الحقيقية بين المذاهب التي تحدث عنها ونسبها جميعاً إلى الخوارج • لم يبق لي

في ختام هذا الفصل إلا أن أذكر أن خلف الإباضية كسلفهم يحاؤون بكل ما أوتوا من جهد أن يتقربوا من بقية المسلمين ، وكلمة المسلمين تجمع كل من أقر بالجمال الثلاث مهما كان مذهبه • وإذا سعى إليهم أحد منهم ذراعا سعوا إليه باعا • وهم يتعاملون مع جميع المسلمين على مدى التاريخ كما يتعاملون مع أنفسهم • ويدعون كامل الحق لغيرهم من المسلمين أن يكيّفوا عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم من طرقهم التي وثقوا بها واعتمدوها ، وليس يطلب الإباضية من غيرهم هذا الحق وهو أن يتركوا في عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم ووثقوا به واعتمدوه •

مع أبى زهرة (١)

يقول الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة فى كتابه (المذاهب الإسلامية)
صفحة ١٢٧ ما يلى :

« الإباضية هم أتباع عبد الله بن إياض وهم أكثر الخوارج اعتدالا ،
وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ،
ولذلك بقوا • ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف
منهم فى بعض واحداث الصحراء الغربية ، وبعض آخر فى بلاد —
الزنجبار — ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية فى المواريث
بعض آرائهم ، وذلك فى الميراث بولاء العتاقة ، فإن القانون المصرى
آخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحد الزوجين ، مع أن المذاهب
الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ، ويسبق الرد على أصحاب
الفروض والأقارب » •

وجملة آراء الإباضية :

١ — إن مخالفهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم
كفاراً • ويقولون عنهم أنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد ، وذلك لأنهم
لم يكفروا بالله ، ولكنهم قصرُوا فى جنب الله تعالى •

(١) عند كتابة هذا الفصل كان الأستاذ أبو زهرة حيا يملأ الدنيا علما
وعملا وشاء الله أن يختاره الى جواره قبل أن يطبع هذا الكتاب ويطلع على
ما قلناه عنه •

٢ — دماء مخالفهم حرام ، ودارهم دار توحيد وإسلام ، إلا
معسكر السلطان ، ولكنهم لا يعلنون هذا ، فهم يسرون في أنفسهم أن
دار المخالفين ودماءهم حرام •

٣ — لا يحل من غنائم المسلمين الذين يحاربون إلا الخيل والسلاح
وكل ما فيه من قوة في الحروب ، ويردون الذهب والفضة •
٤ — تجوز شهادة المخالفين ومناكرتهم والتوارث معهم •
وفي هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخالفهم •

ويقول الأستاذ أبو زهرة في كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية)
الجزء الثاني في تاريخ المذاهب الفقهية صفحة ٥٣ مايلي :

« فرق لها مذاهب فقهية :

هذه الفرق السياسية منها ما ليس له مذهب فقهي قائم بذاته ،
ومنهم من ليس له مذهب فقهي ، ويتبع مذهب طائفة أخرى قريبة منه
في الاعتقاد •

وأن الفرق التي لها مذاهب فقهية معتبرة ثلاثة هي :

الإثنا عشرية : فلها مذهب فقهي مقرر ، وله منطق فكري وديني
وينسبون مذهبهم إلى الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، وسيكون له
بعض البيان عندما نتكلم عن الإمام الصادق •

والثانية : فرقة الزيدية • ولهم مذهب فقهي يقرب في منطقة من

مذهب أهل السنة والجماعة ، وإمامها هو الإمام الجليل زيد بن علي زين العابدين رضى الله عنهما •

والثالثة : الإباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، ولهم فقه مدون ، ولإباضية جهود فى تحرير مذهبهم •

الأستاذ أبو زهرة من كبار علماء هذا العصر ، الذين تتجه إليهم الأنظار فى المسائل الإسلامية وتسمع منهم الكلمة ، وتلتبس عندهم الحجة • ورغم أنه أبدى كثيراً من الاعتدال ، واستعمل الرقة واللفظ ، وسجل له آراء جديدة سلمية فى موضوع الفرق وعن الإباضية بالذات ، إلا أنه لم يسلم من التأثير بالأقوال السابقة التى ينقصها التحقيق والتدقيق فى التعبير وجلاء المعانى لكثف الحقائق كسفا لا يحتمل الإيهام أو الإيهام •

ومع أننا كنا ننتظر من أبى زهرة خاصة — مكانته العلمية الرفيعة — أن تكون كتاباته فى جميع المواضيع الإسلامية متجردة ، غير متأثرة بأى مؤثر عدا الدراسة العلمية الموضوعية المبنية على الاطلاع الشخصى لاستخلاص الحقائق من مصادرها الثابتة والتى تتحرى مصلحة الأمة المسلمة والتقريب بين وجهات النظر المختلفة فى مذاهبها وظوائفها • إلا أن الأستاذ أبا زهرة — على مكانته السامقة فى المعارف الإسلامية — قد انساق — فيما يبدو — كما انساق غيره فى تيار تاريخى جارٍ قد كورنته — فيما مضى — عوامل تحكمت فيها السياسة والعصبية والفتنة الناتجة عنهما أكثر مما تحكم فيه العقل والعلم والدين ، وكانت الشفاه والأقلام التى تعمل بتوجيه وإيحاء أكثر سيطرة وعلنية من الأقلام والشفاه المستقلة •

كما انساق أيضاً مع بعض الكتاب المعاصرين ممن يتناولون بحث هذه المواضيع ويناقشونها كما يتناولون ويناقشون القضايا السياسية العالمية في هيئة الأمم المتحدة ، أو كما يدرسها ويخطط لها المستشرقون .

فإن المستشرقين وهم يدرسون القضايا الإسلامية لا ينظرون إليها إلا من خلال مناظيرهم الخاصة التي يعرفون بها الحياة عندهم والحياة عندهم تتحرك بالحزبية . فلما وجهوا تلك المناظير إلى قضايا الأمة الإسلامية خيل إليهم أن أسلوب الحياة واحد ، وتراءى لهم أن يطلقوا على بعض الفرق الإسلامية كلمة أحزاب دينية فأطلقوا هذه التسمية على فرق الشيعة و فرق الخوارج . وفي مقابل هذا رأى أولئك المستشرقون أن يطلقوا على غير الأحزاب الدينية حسب نظرهم كلمة المذاهب الإسلامية أو الجماعات الإسلامية وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى معسكرين كبيرين أحدهما الأحزاب الدينية والثاني الجماعات الإسلامية وقد راققت هذه التسمية لبعض الكتاب المعاصرين فاستعملوها ، كما راققت لأستاذنا الكبير أبى زهرة فاستاغها واستعملها في كتبه . وكان منتظرا منه أن ينظر بدقة في مثل هذه التسميات وما وراءها والدوافع إليها فيستعمل الصحيح الأصل الذى لا يحمل أى غرض تبشيري أو استعماري ويدع الدخيل الهزيل الذى تكمن وراءه مقاصد أو هو مستوحى من بيئة بعيدة عن الإسلام والمسلمين .

تبع الشيخ أبو زهرة من تأثر بهم فجعل الإباضية فرقة من الخوارج أى فرقة من الأحزاب الدينية ، ولا شك أن الذين قسموا الأمة الإسلامية إلى أحزاب ومذاهب كانوا يقصدون أن يضعوا فى أذهان أصحاب المذاهب أن أصحاب الأحزاب الدينية لا شأن لهم بالفقه ، وأنهم حتى لو بذلوا فيه جهودا مشكورة ، فهى جهود مهدورة لا تستحق النظر .

ورغم أن الأستاذ أبو زهرة يعترف أن الإباضية يتسمون بالاعتدال وينصفون مخالفيهم ، وأن لهم فقها جيداً مدوناً ، وأن لعلماهم جهوداً في تحرير مذهبهم فإن هذا كله لم يشفع للإباضية عند أبى زهرة أن يخرجهم من نطاق الخوارج ، أو حتى من هذه التسمية الجديدة « الأحزاب الدينية » ورغم أن مثل هذه الصفات أو أقل منها للزيدية والجعفرية من الشيعة فاعترف بهم الأستاذ أبو زهرة وكتب عن فقههم ومذاهبهم • إلا أن موقفه من الإباضية كان — فيما يظهر لى — موقف الرجل الذى يعرف الحق فى قضية من القضايا فيدور حوله ، ويصفه من بعيد ، لا يجسر أن يعلنه فى صراحة ، لأن رواسب معينة تحول دون ذلك •

قد يعذر الأستاذ أبو زهرة عندما يكتب عن فرق منقرضة لم تخلف وراءها كتباً فيلجئ إلى ما كتبه عنهم غيرهم ، ويستند إلى ما قالوه عنهم ولكن ما عذر الكاتب المحقق عندما يكتب عن الإباضية فى هذا العصر معتمداً على مصادر قد ألفت فى عصور بلغت فيها التوجيهات السياسية ، والتعصب المذهبى أسوأ ما يبلغه التوجيه فى التشنيع على المخالفين ؟

الأستاذ أبو زهرة يعيش فى القاهرة • وفى القاهرة يعيش معه عدد كبير من علماء الإباضية الموثوق بعلمهم ، وفيهم أصدقاء للشيخ أبى زهرة ، وفى القاهرة « دار الكتب » وفى دار الكتب مجموعة قيمة من كتب الإباضية ما بين مطبوع ومخطوط ومصور — منها فى العقائد ، ومنها فى الفقه ، ومنها فى الأصول ، ومنها فى التاريخ ، ومنها فى الشعب الخاصل بين فرق الأمة والاحتجاج والرد ، ولا شك أن الأستاذ أبو زهرة اطلع على بعضها ، ومن ذلك الاطلاع عرف أن للإباضية فقهاً جيداً مدوناً ، وحكم بأنهم معتدلون منصفون لمخالفهم •

وكنا نتوقع منه عندما يريد أن يذكر جملة من مقالاتهم أن يسلك أحد منهجين : إما أن يعبر عن مقالاتهم بلغته وأسلوبه هو وأن يقررها بعباراته بعد أن يستوعبها من مصادرهم •

وأما أن ينقل نفس عباراتهم ، ويثبت نفس النصـوص التي استعملوها وهذا المنهج أدق وادعى إلى الاطمئنان بالنسبة للقارىء العادى الذى لا يعرف مقالاتهم •

فلماذا لم يعتمد الأستاذ أبو زهرة على كتب الإباضية ؟ وإذا كانت المصادر التى بين يديه من كتبهم غير كافية أفلا يكون من واجبه - وهو يقف موقف المحقق - أن يعمل على الحصول على ما يكفيه منها ولو ناله من أجل ذلك بعض التعب المادى أو البدنى ؟ •

لقد رجع الأستاذ أبو زهرة الى مصادر قديمة لم يتوفر لها التحقيق ، ولم يتيسر لها الوضوح ، ولم تتصف بالنزاهة إزاء جميع من تكتب عنهم • فنقل كلام تلك المصادر دون تصرف بعض الأحيان ، أو بتصرف قليل ، كأنما يريد هو الآخر أن يلجأ إلى الغموض ، لأن التحقيق العلمى ، والتعبير الواضح قد يكشف أن الحق بجانب فرقة يراد وضعها فى إطار معين مهما كانت الظروف •

يقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلته عنه سابقا :

« يرى الإباضية أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا ، ويقولون عنهم إنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد » •

لقد بقيت هذه العبارة بحروفها أو بتصرف قليل تنقل بين كتاب المقالات عن الإباضية عشرة قرون كاملة ، ولست أعرف على التحقيق أول من قالها ولكنك تعثر عليها عند أوائل من كتب في هذا الموضوع كالأسعر والملطى وغيرهما ، وقد كانت تأتى على أقلام الكتاب السابقين والسنة المتحدثين منهم من أصحاب هذا الفن • إما عن حسن نية وجهل بحقيقة مقالات الإباضية ، وإما بقصد التشنيع عليهم وزرع كرايتهم في قلوب بقيّة المسلمين • ولا شك أن أى مسلم إذا قيل له أن الإباضية يعتبرونك غير مسلم ويرونك كافرا يتملكه الغضب ويثور على الإباضية ويعتبرهم فرقة ضالة ظالمة تستحق اللعنة ولن ينتظر منك أن تشرح له الفرق بين معانى الكفر • ولقد وصل أولئك الذين يسعون إلى هذه النتيجة إليها بالفعل وربما إلى أكثر مما أرادوا أو توقعوا في بعض الأحيان •

وغريب جدا أن يسير أبر زهرة في هذا الطريق ، فيجرى قلمه السلس البليغ بتلك التعابير الملتوية التي لم يقصد بها الحق في يوم من الأيام •

إنه كان حقا عليه أن يقف وقفة تأمل وتحقيق كما وقف زميله الأستاذ ابراهيم محمد عبد الباقي حين عرض للموضوع فقال في كتابه القيم (الدين والعلم الحديث) وهو يتحدث عن الإباضية صفحة ٢٦٩ ما يلي :

« رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أدخل بالاعتقاد الإسلامى كإنكار ما علم من الدين بالضرورة وكأن ينكر إنسان صفة من صفات الله تعالى أو نبيا من الأنبياء أو حرفا من القرآن الكريم » •

قارن أيها القارىء الكريم بين مقالى الأستاذين الكبيرين وهما

يعيشان في بلد واحد ، وعصر واحد ، وبيئة واحدة إلا أن أحدهما جرى على ما وجدته في مصادر تناوى الإباضية وتلجأ إلى الغموض في التعبير عن مقالاتهم حتى توهم الناس بضلالهم وتغريبهم بعداوتهم ، فاعتمد على تلك المصادر ونقل عنها ، وترك ما عرفه بنفسه ، وابتعد عن المصادر التي تصور مقالاتهم بصدق وتعتبر حجة عليهم لأنها لهم .

أما الثاني فقد كان يكتب كتابة رجل يسعى إلى توحيد كلمة المسلمين وتقريب وجهة النظر بينهم ، وتوضيح آرائهم المبنية على حجج وبراهين يمكن للباحث أن يتجاهلها أو يستعين بها . ويحاول — ما وسعه الجهد — أن يزرع الغشاوة التي رضعتها القرون المتعاقبة على أعين الأمة الإسلامية بقصد وبدون قصد . وهو لم يكتب عن الإباضية حتى قرأ مجموعة من كتبهم ، ومنها استخلص آراءهم التي عبر عنها ، والتي سوف نعرض لها في فصل مقبل إن شاء الله .

على أن هذا الموضوع الذي عبر عنه الأستاذ إبراهيم عبد الباقي بجملة قصيرة واضحة « لا يكفرون أحداً من أهل القبلة إلا إذا أدخل بالاعتقاد » رأى الأستاذ أبو زهرة أن يرتبط بالتعقيد اللفظي الذي تناقله كتاب المقالات ولم يتمكن أن يتحرر منه فقال : « إن مخالفيهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا » فترك القارئ العادي في حيرة وارتباك لا يعرف منزلة نفسه عند الإباضية ولا منزلتهم عنده .

على أن ذلك الموضوع الذي جرى فيه الأستاذ أبو زهرة الكتاب الأقدمين في حديثهم عن مقالات الإباضية شيء من الغموض والإبهام والإيهام . أهم جانب فيه كلمة الكفر والإباضية حين يطبقونها على من

يستحقها لا يفرقون بين موافقيهم ومخالفهم لأنها في الحقيقة إنما تدل بوضعها على معان لغوية محددة نقلها الشارع أحيانا فاستعملها للدلالة على حقائق شرعية باعتبارات محددة فلا أساس لحشر الإباضية ومخالفهم في الموضوع .

والواقع أن كلمات الكفر : والإيمان ، والنفاق ، والعصيان ، والشرك ، والكبيرة ، والإسلام . من المباحث اللغوية والمصطلحات الشرعية أو الحقائق الشرعية التي تناولتها أقلام أكثر علماء الإسلام واختلفت أنظارهم فيها حيناً واتفقت حيناً آخر . وطال فيها الجدل حتى بلغ حد المرء في بعض الأوقات ، ولالإباضية في هذه المواضيع مفاهيم كما لغيرهم والذي ساعدهم أن يطلقوا كلمة كافر على أكل الرشوة من الإباضية ومن غيرهم هو قول الرسول ﷺ : « الرشوة في الحكم كفر » وعلى من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه ، قوله ﷺ « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فيما يقال فقد كفر بما أنزل على محمد » وعلى من تهاون بصلاة ، قوله ﷺ : « من ترك الصلاة كفر » وعلى من وجب عليه الحج فلم يؤده ، قوله تبارك وتعالى : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . وعلى من يتعامل بالربا قوله تبارك وتعالى : « يمح الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » . إلى كثير من هذه النصوص التي وردت بهذا المعنى والتي إذا أمكن تأويل بعضها بالشرك أو الردة فإن بعضها الآخر لا يمكن تأويله إلا على كفر النعمة الذي هو بمعنى العصيان أو الفسوق ، أما ما يطلق عليه أصحاب الحديث : كفر دون الكفر .

إن الرسول ﷺ وصف المرتضى ، ومصدق الكاهن والعراف والمرابي

والمتهاون في أداء الفريضة ، والمسلمين المتقاتلين : « إلا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » بالكفر فما ذنب الإباضية إذا استعملوا هذه الكلمة في وصف العصاة الذين يرتكبون تلك الموبقات أو ما يشبهها — وهم على يقين أن الرسول ﷺ حين وصف المرتضى والمرابى ومن بعدهما بالكفر لم يحكم عليهم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • فاستعمل الإباضية كلمة الكفر في المواضع التي استعملها رسول الله ﷺ وفيما يشبهها ولم يريدوا بها في ذلك الحكم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • ولو حكم بالشرك والخروج من الملة على كل من ارتضى وكل من رابى وكل من صدق كاهناً أو عرافاً ، وكل من تهاون في صلاة أو حج فريضة • وكل من ارتكب معصية من المعاصي التي وصف رسول الله ﷺ مرتكبها بالكفر لما بقى من المسلمين إلا العدد اليسير • ولو سرننا مع هذا المنطق لحكمنا على جميع المسلمين بالشرك أو الردة لقوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وقد بدأ ضرب الرقاب بعده بتقليل ولم يتوقف حتى اليوم • بل إن رقاب المسلمين لتطير بأيدي المسلمين في كل يوم حتى هذا العصر ولا يبدو أنها ستتوقف فهل نحكم على هؤلاء كلهم بأنهم مشركون مرتدون ، وهل نحكم على أولئك البسطاء السذج الذين يصدقون كل شيء حتى العراف بأنهم مشركون مرتدون •

إن الإباضية في استعمالهم كلمة الكفر على العصاة ، لا يفرقون بين مخالفينهم وموافقينهم فليس هن حق الأستاذ أبى زهرة أن ينساق مع الأقدمين فيقول : « إن مخالفينهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفاراً » •

بهذا التعبير الملتوى الغامض الذى يثير الحفائظ ، ويجلب السخط ،

ويؤهم أن الإباضية يحكمون على غيرهم من جميع المسلمين بالشرك لأن الكلمة التي يبقى صداها في ذهن المسلم بعد أن يقال له إن الإباضية يقولون عنك أنك لست مشركا ولست مؤمناً ولكنك كافر أنه حكم عليه بالخروج من الإسلام وهذا ما لا يتقبله مهما تورط في ارتكاب الموبقات •

لقد حرص الأستاذ أبو زهرة أن يأتي بهذه العبارة الملتوية من المصادر التي استقى منها ، والتي كانت تكتب تحت إيعازات وإيعازات ، وأن يقرر أن الإباضية يسمون مخالفيهم كفارا ، وليقه — إذ فعل — شرح المعنى الذي تدل عليه كلمة الكفر عند الإباضية إذن لخفف في وقعها وحدتها قليلا • وهو يعلم معناها عندهم ولا ريب ولكنه لم يفعل وإنما علق عليها ببعض كلمات لا تريدها إلا غموضا عند من لا يعرف الاصطلاحات الشرعية ومدلولاتها الخاصة فليت أستاذنا أبا زهرة ، حاول إسكات هذه النعرة ، وسدّ هذه الثغرة ، وأطفأ هذه الجمرة ، ودعا إلى التسامح والانفتاح بين طوائف المسلمين جميعا •

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه سابقا « فهم يسرون في أنفسهم أن دار المخالفين ودماهم حرام » • هكذا بالحرف الواحد • وليت شعري إذا كانوا يسرون ذلك في أنفسهم فكيف اطلع عليه الأستاذ أبو زهرة ، ثم أية نفس هذه التي يحتفظون فيها بهذا السر العظيم ؟ هل هي نفس فردية أم نفس جماعية ؟ ثم من هذا الذي أخرج هذا السر وباح به ؟ من هذا الذي أفشى سر الإباضية ؟ إنهم لو عرفوه لقطعوا لسانه !! ما كنا نتوقع من قلم مثل قلم أستاذنا الكبير أن يخط هذا الكلام الذي لا يصدق عقل يحترم نفسه ، ولكن ما الحيلة والأستاذ يريد أن يعيش في تلافيف عصر ، يلعب بالكلام ، ويحارب بالإيهام ، ويناقش

بالإبهايم • ولو رجع إلى كتب الإباضية وهي ليست منه بعيدة لعرف منها أن الإباضية يلتزمون بقوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » . إن الإباضية عملاً بتشريع الله الذي بلغه الرسول ﷺ يعلنون ولا يسرون — في كتبهم ودروسهم ومجالسهم — أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام بكلمة التوحيد ، وأن أصداء خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع لا تزال ترن في جنبات صدر كل مسلم « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » لقد أعلن النبي ﷺ هذا الحكم يوم الحج الأكبر فلماذا يسره الإباضية في أنفسهم • والإباضية في تاريخهم الطويل لم يخالفوه ، وليس إسراره من مصلحتهم ولا من مصلحة أحد من المسلمين •

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه في أول هذا الفصل : « ولهم فقه مدون ، وللإباضية جهود في تحرير مذهبهم » • ويقول في موضع آخر من كتابه مما نقلناه عنه ، « ولهم فقه جيد وفيهم علماء ممتازون » •

أطلق الأستاذ أبو زهرة هذه الأحكام على الإباضية وفقههم ثم انصرف عنهم كأنما كان يفر من ملاحقة لعنة تاريخية ، ولم يقف إلا حينما بدأ يكتب عن المذاهب الفقهية ، فكتب عن الحنفية ستاً وأربعين صفحة ، وكتب عن المالكية خمسين صفحة ، وكتب عن الشافعية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الحنابلة ثمانين صفحة ، وكتب عن الظاهرية سبعاً وستين صفحة ، وكتب عن مذهب ابن تيمية سبعاً وخمسين صفحة • وكتب عن الزيدية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الجعفرية أربعين

صفحة • ولكنه لم يكتب عن الإباضية شيئا ، فما الذى أطلق تلامه هناك وقيدته هنا ؟ لقد اعتبر الزيدية والجعفرية أحزابا دينية كما قال ذلك عن الإباضية ومع ذلك فقد ألحقهما بالمذاهب الفقهية ولم يعط هذه الدرجة للإباضية • لماذا كان الاعتراف بدينك الحزبين ولم يكن بهذا الحزب ؟ رغم أنه حينما كان يعدد الأحزاب الدينية جعل هذه الفرق الثلاث تشترك في صفة الحزبية الدينية ، أما المقومات التى أهلتها — في نظر أستاذنا — لأن تدخل ضمن المذاهب أنها لها فقه مدون •

لماذا يقف شيخنا أبو زهرة من الإباضية هـذا الموقف ؟ أكل ذلك لأن أقلاما يحترمها ذكرت أن الإباضية فرقة من الخوارج ؟ وماذا يضر أبا زهرة لو بحث بنفسه عن معنى الخارجية في عقائدهم وسلوكهم لينتق من الحكم عليهم ، ولعله لو فعل لوجد معنى الخارجية بالعقيدة والسلوك أوضح وأظهر في كثير ممن يرمى الإباضية بذلك مصداقا للمثل العربى القديم « رمتنى بدائها وانسلت » ولما وجد في عقائد الإباضية وسلوكهم أى أثر للخارجية •

يبدو أن الأستاذ أبا زهرة لا يريد أن يخالف المصادر التى استقى منها والتى قد اكتسبت بقدمها جلالا وقداسة ، ولا يريد أن يعترف بالواقع الذى عليه الإباضية ، لأن ذلك يهدم كثيرا من الأحكام التى أطلقت عليهم ، ولا يريد أن يعتمد على كتبهم ومصادرهم لأن حكاية « يسرون في أنفسهم » تتردد بين عينيه وتثير الشكوك في نفسه •

وهكذا فضل أن يعتمد على مصادر غيرهم ممن سبقه بقرون ، وأن ينقل ذلك مهما كان موقعه من الصدق والحق ، وأن يتغاضى عنهم رغم

اعترافه - على الأقل في الجانب الفقهي - بأنهم في مستوى غيرهم من المذاهب الأخرى التي كتب عنها وأطال الكتابة •

وبعد كل هذا ألا يحس أستاذنا أبو زهرة بأن اعتباره الإباضية فرقة من الخوارج أمر يدعو إلى التساؤل حين يحمل آراءهم في تلك الفقرات التي سبق أن ذكرناها والتي هي ليست خاصة بالإباضية وإنما هي آراء جميع الأمة الإسلامية فهي ليست قضايا غير مجموعة من الناس باعتبارها خاصة بهم لا يقول بها غيرهم ؛ وإذا تجاوزنا الفقرة الأولى التي نقلها الأستاذ بحروفها والتي وضعها واضعوها بقصد الإبهام والإيهام فإنه يقرر أن الإباضية يحرمون دماء مخالفينهم ويعتبرون دارهم دار إسلام ولا يستحلون من غنائم المسلمين أثناء الحرب معهم إلا السلاح ويجوزون شهادة مخالفينهم والتزويج منهم والتوارث معهم وهل غيرهم من المذاهب يرون غير هذا الرأي ؟ ويقولون بغير القول إذا إستثنينا بعض الشواذ من جميع المذاهب الذين تتغلب عليهم العصبية ويوجههم الغلو كما ذكرنا أمثلة من ذلك في بعض الفصول السابقة • ويبدو لى لو أن الأستاذ أبا زهرة أراد أن يتبع أسلوباً واضحاً يتخلص من روااسب الماضي ويتحرر من أصابع السياسة التي صنعت كثيراً من ذلك الماضي لسهل عليه من بادئ الأمر أن يشرح كلمة الكفر بالمعنى الشرعى لها والذي حرص الإباضية على استعماله فقال إن الإباضية يستعملون كلمة الكفر بمعنى كفر النعمة أو المعصية أو الفسوق فإذا أطلقوا كلمة كفر على أهل التوحيد فالمقصود كفر النعمة أو العصيان كما يعبر بعض المذاهب • وإذا اتضح هذا المعنى لكلمة الكفر لم يحتج للأسلوب الملتوى الذى يستعمله الأئندمون كما أنه لا حاجة به إلى كلمة المخالفين التى دستها السياسة الماكرة فى هذه المباحث وحرص عليها كتاب المقالات دون اهتمام

بمصدرها ومدلولها • والعصيان قد يكون بسبب المتارفة وقد يكون بسبب الإهمال وقد يكون بسبب الخطأ في التأويل • والإباضية قد يطلقون حمًا قلنا آنفًا كلمة الكفر على العاصي من هؤلاء وهم يقصدون معنى العصيان ويتعاملون معه سواء كان من الإباضية أو من غيرهم على الأسس التي ذكرها أستاذنا أبو زهرة • فهذا العاصي بالمقارفة أو بالإهمال أو بالخطأ في التأويل، — يسميه الإباضية مسلمًا ويسمونه موحدا ولكنهم لا يسمونه مشركًا ويرون أن دمه حرام فلا يسفك إلا بما تحل به دماء المسلمين ويرون أن ماله حرام إلا بالطرق التي تحل بها أموال المسلمين ويرون أن داره دار للمسلمين وإذا حاربهم لم يستحلوا شيئًا من أمواله حتى السلاح خلافا لما ذكره أستاذنا أبو زهرة ويتعاملون معه كما يتعاملون مع بقية المسلمين • الشهادة والنكاح والميراث وغيرها •

ولسنا نشك أن الأستاذ أبا زهرة يعرف من حقيقة الإباضية ما يعرفه الإباضية أنفسهم عن آرائهم ومقالاتهم ولو تحرر من رواسب الماضي لما ذكرهم في الخوارج ولا في الأحزاب الدينية •

والآن أستطيع أن أخلص ما عتبنا فيه على شيخنا الكبير في النقاط الآتية :

١ -

١ — اعتماده على مصادر الآخرين عند الكتابة عن الإباضية ومقالاتهم وكان في إمكانه أن يعتمد على كتب الإباضية أنفسهم •

٢ — استعماله لنفس التعبيرات الملتوية الموهمة التي كانت تستعملها كتب المقالات المتميزة منذ قرون •

٣ — تغافله عن دسائس السياسة بحيث أصبح التركيز على معسكرين فكانت كلمة « مخالفينهم » هي محور الحديث •

٤ — انسياقه وراء آراء المستشرقين أو من أخذ عنهم في تقسيمهم الأمة إلى قسمين كبيرين : مذاهب فقهية ، وأحزاب دينية •

٥ — إيماله للكتابة عن المذهب الإباضي وفقهه وقد كتب عن كل من المذاهب الفقهية وما يسميه بالأحزاب الدينية •

٦ — إرضاء أصحاب المقالات السابقين ومن يترسم خطاهم ، أخرج الأستاذ أبو زهرة الإباضية في فرق الخوارج ولما لم يجد شيئاً يربطهم بالخوارج أو يجعل لهم مواقف منفردة شاذة تميزهم ذكر عنهم تلك الفقرة الأولى التي أعتقد أنها تميزهم كما ذكر لهم عدداً من الأقوال هي ليست خاصة بهم بل على قدر مشترك بين جميع الأمة الإسلامية غير الخوارج فيما يقال عنهم • أو بعض الشواذ حتى من أهل السنة •

٧ — كنا نطمح من أستاذنا الكبير أن يكون موقفه في هذه القضايا الهامة أوضح وأصرح ، وأن يكون أكثر تحملاً ، وأن تكون مساعيه أكثر جدية ونشاطاً وجهداً في التقريب بين طوائف المسلمين ، وإزالة الجفاء الذي اصطنعته السياسة والتعصب قديماً والاستعمار والجهل والتعصب أيضاً حديثاً • ويسرني في ختام هذا الفصل أن أعترف إلى أستاذنا الكبير أبي زهرة عن أية عبارة قد يستشعر منها سوء أدب معه • فأنا على جميع الأحوال أكن له من الإحترام والتقدير ما يستحقه هو وأمثاله من فضلاء علمائنا الاجلاء الذين خدموا الإسلام في هذا العصر خدمة لا تنساها الأجيال • وإذا عتبت عليه في النقاط السابقة فإنما هو موقف المتعلم الجسور المريح مع العالم العزيز المادة الواسع الاطلاع المنفسح الصدر الحليم الذي يحتفل شعب المتعلمين بصبر وحب •

مع عبد القادر شعبة الحمد

في سنة ١٣٨٧ هـ تشرفت بزيارة مدينة رسول الله ﷺ وكان من أهم ما يشغل بالي - بعد السلام على رسول الله ﷺ ، والصلاة في الحرم النبوي الشريف ، ثم الوقوف في منازل الوحي ، ومواطن العبد والذكرى من مقامات رسول الله ﷺ ومقامات أصحابه رضوان الله عليهم - هو زيارة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، والتعرف بعلمائها الأجلاء • وسنحت لي الفرصة في يوم فزرتها ، وتشرفت بمعرفة كثير من مشايخها العظام ، وأساتذتها الفضلاء • ولم يتح لي اللقاء بفضيلة رئيسها لأنه حينئذ كان ينجز لبعض الموام كما قيل لي •

تجولت في رحاب الجامعة العاهرة • ودخلت بعض فصولها ، واستمعت إلى بعض المحاضرات في بعض الفصول • وعندما أردت الانصراف أهدت إلى إدارة الجامعة مشكورة مجموعة من النشرات والمناهج والكتب مما تضعه الجامعة أو تتولى الإشراف عليه ونشره • وخرجت منشرح الصدر مثلوج الفؤاد • فهذه جامعة إسلامية ، تقوم في دار هجرة النبي ﷺ • توالى إرسال أشعة النور والهداية إلى حوالى سبعين بلداً - فقد قيل لي إن بالجامعة طلاباً من حوالى سبعين بلداً - وهذا فضل من الله عظيم •

فلو نجحت الجامعة في إحكام رباط المودة والأخوة بين أبنائها لقام بعد زمن وجيز دعاة مسلمون في كل جنات العالم يعتقدون وأواصر الأخوة بين الطوائف المتنافرة ، ويربطون علائق المحبة بين شعوب تدين بالإسلام ولكن فرقت بينهم السياسات والقوميات والعصبية والأهواء • وعساهم

يعودون بها إلى وحدة متماسكة كالوحدة التي أنشأها سيدنا رسول الله ﷺ ، وتلاميذه الأذكياء الأصفياء النجباء أنبررة • ورجعت إلى البيت أقلب الهدايا الثمينة التي أخذتها من الجامعة العامرة فإذا من بينها كتاب اسمه « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » والكتاب مقرر على طلاب الشهادة العالية بكليتي الشريعة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة •

أما المؤلف فهو الأستاذ عبد القادر شيبية الحمد الأستاذ بالجامعة وقد لقيته بالجامعة لقاء عابرا • كما استمعت إليه وهو يلقي دروس الوعظ والإرشاد في مسجد الرسول ﷺ بين المغرب والعشاء وقد أعد له هناك كرسي مرتفع ، ومكبر صوت مسماع •

والأستاذ عبد القادر شيبية الحمد رجل يعيش في عصر الصواريخ والأقمار وقد أتيح له أن يقيم في مدينة رسول الله ﷺ ملتقى المسلمين من كل بلد ومن كل فرقة • ومن كل مذهب • وضعت له الدولة كرسيا في الحرم النبوي الشريف ، ليلقى منه رسالة الإسلام ، ويعرف الناس بدينهم ، ويدعو أبناء هذه الأمة إلى لم الشمل ، وجمع الكلمة • وهذه الظروف المساعدة التي تحيط بالأستاذ شيبية الحمد لم تتيسر لأولئك الذين كتبوا عن الفرق الإسلامية في العصور السابقة •

لقد كان من اليسير على الأستاذ شيبية الحمد أن يتصل بعلماء الفرق وهم يتوافدون على مسجد رسول الله ﷺ في موسم الحج وفي غيره فيعرف منهم آراءهم وعقائدهم فيما يريد أن يكتب عنه وفيما يريد أن يقدمه في محاضراته لطلابه ، وكذلك يستطيع أن يعرف منهم أئمتهم وكتبهم

ليتخذها مراجع لأبحاثه ، حتى تكون أدنى إلى الحقيقة ، وأقرب إلى الصحة ، وأدعى لإرضاء أصحابها •

ولكن الأستاذ شبيبة الحمد — الذى التجأ إلى السـعودىة فأوته وأكرمته وفتحت له دور العلم والتحقيق ، وسلمت إليه جيلا من شباب الأمة الإسلامية ليزودهم بالعلم ويسلحهم بالإيمان ويربط بينهم بالحبـة والأخوة — لم يفعل شيئا من ذلك ، فلم يكبد نفسه عناء البحث عن المصادر الحقيقية للفرق ، ولم يتنازل إلى الاستفادة من العلماء ، وإنما عمد إلى كتب ألفت قبل عدة قرون فخلص ما فيها بما فيها كخاطب ليل وصاغها بأسلوب ينبىء عن الاستعجال تبدو فيه كثير من عبارات البغدادى التى اقتنست من أماكنها كأنما اختيرت لما تحمل من عنف وقسوة ثم جمع كل ذلك بين دفتين ، وجاء به إلى الجامعة الإسلامية كأنما جاء يجرء أسدا من أذنيه ثم طفق يلقي ذلك الخليط على طلبة الجامعة • لقد حدثنى بعض طلاب الإباضية فى الجامعة • أن أستاذهم حين يتحدث عن الإباضية • لم يكن يهتم بهم ولا بقوله الحق فى مذهبهم • ولم يكن يستمع إلى أحد إذا أراد مزيدا من المناقشة ، وعندما أخبروه فى بعض ما ينسبه إلى الإباضية أنه ليس من مقالاتهم وأظهروا له استعدادهم لتزويده بالمراجع التى يستطيع بها التحقق من الموضوع ، رفض الرجوع إلى كتبهم وإذا حاول أحدهم أن يتجه إليه بسؤال أسكتته بتلك النظرة المتعالية التى يحسها بعض الأساتذة المتعرفين ، وقد ينبزه بتوبيخه جارحة يضحك لها بعض الطلاب ويتألم لها آخرون •

وهكذا يستمر الأستاذ شبيبة الحمد يحاضر الأبناء المسلمين من سبعين بلداً فلسفة تنسب إلى فرق إسلامية لا وجود لتلك الفلسفة عند تلك

الفرق ويتخذ لها أئمة وعلماء لا تعرغهم ولا تعرف عنهم شيئاً بل قد تتبرأ من تلك المقالات ومن يقول بها •

وأعجب ما في الموضوع أن الأستاذ شيبه الحمد وهو يسبح بين كتب ألفت قبل عدة قرون — ويتحدث عن فرق ومذاهب قد انقرضت هي وأصحابها ونخر السوس عظامها ومع ذلك فهو يسميها « المعاصرة » ومن تلك المذاهب أو الفرق ما لا يعرف عنها شيء البتة غير الاسم الذي أورده كتاب المقالات الناقمون عليها وما نسبوه إليها من ثنائع فكيف صارت تلك المذاهب والفرق التي انقطعت حركتها في مجرى التاريخ وركم عليها الزمن عدداً من القرون • كيف صارت فرقاً معاصرة؟؟ والمؤلم في الموضوع كله أن الكتاب مقرر في أكبر جامعة إسلامية في الوقت الحاضر ، وهو يدرس في المدينة المنورة ، وفي جامعة ترعاها دولة هي الدولة التي أناط الله بها في هذا العصر خدمة الحرمين الشريفين ورعاية مقدسات الإسلام ، ثم استقبال حجاج المسلمين من جميع أصقاع الأرض بمختلف طوائفهم ومذاهبهم في كل سنة ، ودعوتهم إلى التفاهم والتعاون والتناصر • وإلى الاتحاد والعمل المتواصل للقيام بأعباء الرسالة التي أنزلها الله تبارك وتعالى لسعادة البشرية •

فكيف تسمح إدارة الجامعة العامرة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدرس أباطيل عن فرقة من فرق المسلمين على طلاب سبعين بلداً من مختلف بقاع العالم وفي أولئك الطلاب من ينتمي إلى تلك الفرقة فإذا طلبوا تصحيح الخطأ عن مقالات فرقتهم وهم أعرف بها لم يسمع منهم بل لم يسمح لهم وربما اتخذت ضدهم عقوبات صارمة منها الحرمان من الدراسة وذلك كله بمساعي الأستاذ شيبه الحمد الذي يريد أن تكون

كلمته عن الفرق نافذة وحكمه على أصحاب المذاهب لا راد له
ولا معقب عليه •

إذا كان التقليد الأعمى أوجب الراحة ، أو عدم العناية بالبحث
والتنقيب • أو حتى سوء النية هي الأسباب التي حملت شذوية الحمد على
نلك المواقف فكيف ساع للجامعة العامرة أن تغفل عن مراقبة ما يجرى
فيها في أهم ركن من أركان رسالتها ، وهي القوامة على كلمة الحق ،
المسئولة عن العمل لجمع كلمة الأمة ، المطالبة بالتحقيق والتثبت والصدق
في جميع ما تقدمه لأبناء الأمة في مجال العلوم الشرعية وإذا غفلت
الجامعة عن تتبع ما يقدم للطلبة ومعرفته معرفة تفصيلية فكيف ساع
للدولة من ورائها أن تسمح لأفراد بتخطيط مناهج وتنفيذها دون أن يخطط
لها تخطيط دقيق من أجهزة مسئولة مكلفة بالمراقبة تقدر خطوات العمل
وتوحي بها حتى يتسنى توجيه أبناء المسلمين في أهم مادة — مادة
الشرعية — توجيهها سليما مبنيا على الصدق وقائما بالحق •

إننى ما كنت لأعرض للأستاذ عبد القادر شذوية الحمد لو لم يحمل
كتابه اسم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهذا النقد الأخرى
لا نرسله إليه فقد ثبت مما قصه علينا طلابه ومن بعض المواقف مع
غيرهم أنه يملك من الجرأة ما يحول بينه وبين الرجوع إلى الحق
وإنما توجه كلمة العتب الأخرى أو الالتماس الأخرى إلى إدارة الجامعة
العامرة ، ورئيسها الوقور وأساتذتها العظام •

كنا نأمل أن تعمل الجامعة الإسلامية على التحقيق فيما يقال عن
فرق المسلمين وأن تأخذ آراءهم ومقالاتهم من كتبهم وعلمائهم وبذلك

يمكن للجامعة أن تعان كلمة الحق ، وتجمع الشمل ، وتوحد الصف وتكون في مركز القيادة الروحية لهذه الأمة بجميع مذاهبها لأنها مهدت اللقاء بينهم على نور العلم وجعلت كل واحد منهم يعرف ما عند الآخر في يقين • وإذا عسر على المؤلفين الأقدمين أن يعرفوا مقالات المذاهب والفرق من مصدرها فأخذوها من حيث ما اتفق فتسرب إليهم الخطأ والأباطيل • فقد تيسرت الوسائل اليوم — والحمد لله — للمؤلفين والعماء للاتصال والاطلاع ولا سيما لعلماء ومؤلفي الدولة السعودية ، فهي تملك من الإمكانيات البشرية والمادية والروحية ما يمكنها من الاتصال بأصحاب جميع المذاهب الإسلامية المعاصرة حقا • ومعرفة عقائدها في مصادرها سواء كانت كتباً أو رجالاً وأخذها منها •

وفي إمكانها أن تعقد مؤتمراً سنوياً لعلماء جميع المذاهب الإسلامية سواء كان ذلك في أيام الحج أو في غيره تطرح فيه القضايا الهامة وتوضح الآراء والعقائد بحججها وبراهينها • وتترود الجامعة بالمراجع المعتمدة لكل مذهب وإيضاح الأقوال المعمول بها • على أن يكون هذا المؤتمر عرض وإيضاح لا مؤتمر جدال يريد فيه كل أصحاب مذهب أن يبرهنوا على صحة مذهبهم وبطلان غيره • فإن فتح هذا الباب لا يأتي بنتيجة وقد يأتي بنتيجة عكسية •

بل إننا نطمح في الجامعة في أكثر من ذلك • وذلك بأن تكون لجاناً للتأليف يشترك فيها علماء الأمة من مختلف مذاهبهم ويصدرون كتباً حسب المناهج المقررة في الجامعة لتدرس فيها — مشتملة على المقالات الحقيقية للفرق والمذاهب المعاصرة فعلاً — وبذلك تقضى على النظرات

الضيقة ، وتوقف زحف العصبية المقيتة • وتداول دون التأثير الفردي
في ترجيه طلاب المسلمين •

إن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، يجب ألا تصطبغ بمذهب
معين فهي للمسلمين جميعا ، تقدم لهم الثقافة الإسلامية من منابعها
الصادقة • كتاب الله وسنة رسوله فإذا انتقلت بعد ذلك إلى كلام البشر
سواء ما كان منه منسوبا إلى مذهب أو ما كان منسوبا إلى فرد فإنه
يجب أن يعرض بوضوح ومن مصادر ثابتة مع التأكيد على أنه قد
لغير معصوم بل إننى أعتقد أنه مما يدخل تحت مسئوليات الجامعة
وأعمالها إذابة المذهبية وألا يكون فيها شئ غير مصادر التشريع من كتاب
أو سنة أو إجماع ثم بعد ذلك آراء الأفراد خاضعة للنقاش وللحكم
عليها بالخطأ والصواب وعمل الجامعة هو أن تقدم للطلاب تلك الآراء
كما يقدمها أصحابها بأدلتها وبراهينها مع عدم محاولة فرض رأى معين
أو مذهب معين •

ولو فعلت هذا لكسبت قلوب الملايين من المسلمين بفرقهم المختلفة
ولسقط كثير من الأباطيل التى يتنازع بها أصحاب المذاهب ولوجد كل
فرد من المسلمين عزرا قائما الأخيه فيما يذهب إليه ويقول به • ولظهرت
لها تفاهة ما يكتبه وما يقوله بعض من يسرت لهم مكانا للكتابة ومكانا
للقول •

وبعد هذه الكلمة التى أرجو أن تكون دعوة مخلصه لرعاية المناهج
في المعاهد الإسلامية • وألا تفهم بأنها نقد لإدارة الجامعة الإسلامية
أو الدولة السعودية ، أو نبل من كفاءة أساتذتها ومشايخها فإن في الجامعة

العامة من الأعلام من يشرفنى الجلوس بين يديه كتلميذ صغير • بل لقد فعلت وحضرت بالفعل حلقات دروس الوعظ للمشايخ العظام : الشنقيطى ، والإفريقى ، والجزائرى ، والكتانى وحتى شعبة الحمد • ويهمنى أن يرافقتى القارئ الكريم بعض الوقت مع الأستاذ عبد القادر شعبة الحمد فى جولة قصيرة بين صفحات كتاب : « الأديان والمذاهب والفرق المعاصرة » يقول الأستاذ شعبة الحمد صفحة ١٥٨ ما يلى :

« وكان من رأى عبد الله بن إباض أن مخالفيهم من أهل القبلة ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار • رمع ذلك لم يدرم مناكحتهم ومواريثهم ، وشهادتهم ولو على أوليائهم بدعوى أن معهم دعة المسلمين تجمعهم ، كما لم يبيع دماءهم فى السر ، وأن أسباحها فى العلانية • ورأى عبد الله إباض كذلك أن أموال مخالفيهم لا تحل لهم عند الغنيمة إذا كانت ذهباً أو فضة ، أما الخيل والسلاح وما يكون من آلة القتال فإنه حلال » •

ثم ذكر قصة خروج عبد الله بن إباض فى عهد مروان بن محمد وقتله فى ثبالة • (وقد بينا فيما سبق أن هذا غير صحيح) • ثم نقل ما قاله ابن حزم وبعض كتاب المقاتلات من أن عبد الله بن إباض رجع إلى الثعالبية وأن الإباضية فى الأندلس لا يعرفونه (وقد ناقشنا هذه الخرافة أيضاً وبيننا بطلانها فيما سبق) ثم ذكر أن الإباضية ينقسمون إلى سبع فرق : وهى اليزيدية ، والحفصية والحارثية • وهى نفس الفرق التى تعرضنا لها أثناء مناقشتنا لأبى الحسن الأشعرى وبيننا هناك أن هذه الفرق إما أنه لا وجود لها وإما أنها لا علاقة لها بالإباضية • ثم ذكر الإبراهيمية

والميمونية والواقفة والبيهسية • وهذه الفرق الأخيرة استخلصها شيبية الحمد من خرافة الأمة وبنت ثعلبة • تلك القصة التافهة التى نقلناها عن أبى الحسن الأشعري وبيننا هناك عدم صدقها عموما أو عند الإباضية فحسب وأوضحنا هناك أن تلك الفرق ليست من الإباضية ولعله من المضحك أن يقرأ الإنسان لشيبة الحمد صفحة ١١١ ما يلي :

« الإبراهيمية : هم أتباع رجل من الإباضية يقال له : إبراهيم ، وليس لهؤلاء مذهب تفردوا به : وإنما صاروا فرقة من فرق الإباضية بسبب أن إبراهيم هذا دعا جماعة من الإباضية إلى داره » • ثم يذكر قصة بيع أمة إبراهيم • وهى نفس القصة التى تكررت فى عدد من كتب المقالات •

خلاصة مذهب الإباضية

١ — يعتبرون دار مخالفيهم من أهل القبلة دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بنى عندهم » •

٢ — وقد اختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال : فقالت طائفة منهم هو :

(أ) براءة من الشرك والإيمان جميعا لقوله تعالى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » •

(ب) وقالت طائفة منهم إن النفاق قاصر على من سماهم الله عز وجل به عند نزول القرآن ، فلا نزيل اسم النفاق من موضعه ولا نسمى به غير من سمى الله عز وجل •

(ج) وقالت طائفة منهم : المنافقون أهل توحيد ولكنهم أصحاب كبائر لا يدخلون في الشرك وإن سميناهم كفارا •

٣ — من مذهبهم أن من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتل •

٤ — لم يستبيحوا قتل النساء والأطفال •

٥ — أباحوا قتل المشبهة واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذرائعهم بناء على أنهم مرتدون ، وأن أبا بكر رضى الله عنه فعل هذا بالمرتدين •
هكذا استطاع شيعة الحمد أن يلخص المذهب الإباضى فى سطور وأن يحصره فى خمس نقاط • كما فعل من قبله الأستاذ أبو زهرة وغيره •

إن للإباضية — كما لغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى — فى أصول الشريعة وفروعها عشرات من الكتب تشتمل على مئات من الأجزاء • فكيف استطاع الأستاذ شيعة الحمد ومن سار على نهجه أن يلخص تلك المجلدات الضخمة فى خمس نقاط فى نصف صحيفة متوسطة ؟

ثم هل يعنى أصحاب هذا المذهب الإسلامى لم يهتموا بشئ من أمور الإسلام غير دار المخالفين ، ومعنى النفاق وحياة النساء والأطفال ، ومصير المحدودين فى الزنى والسرقة ، ومعاملة المشبهة ؟ وإن بقية أحكام الإسلام من دين وشريعة لا هم لهم بها ، ولا بحث لهم فيها ، ولا رأى ولا عقيدة ؟

أمر يرى أن الإباضية إنما يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى هذه النقطة فقط ويتفقون فيما بقى ؟ وهل اتفق المسلمون فيما بقى ؟

أم أن الأستاذ شبية الحمد يرى أن الإسلام هو هذه النقاط فقط وأن غيره لا أثر له في عقيدة المسلمين وسلوكهم .

إن القارئ الكريم مهما فكر في هذا الملخص فإنه لا يستطيع أن يخرج منه بنتيجة • وعوض الله خيرا على أولئك الطالاب الذين ظنوا أنهم يتلقون العلم • وهم إنما تحشى أذهانهم بفراغ •

لو رجع الأستاذ عبد القادر إلى كتب الإباضية لوجد لهم بحوثا ممتعة في أصول الشريعة وفروعها ، وجميع أنواع ثقافتها • وهم يتلاقون في بحوثهم مع المذاهب الإسلامية الأخرى هنا وهناك ولا ينفردون برأى في مسألة اجتهادية إلا نادرا ، وقد لا يكون هناك شيء انفردوا به ، وعندما ينفردون برأى في مسألة اجتهادية فذلك بناء على دليل ترجح لديهم ، كما يقع في جميع المذاهب الإسلامية الأخرى •

وهذه الحركة ، حركة اختلاف المذاهب هي خاصية من خصائص الحيوية في الإسلام ، ودليل انفساحه للعقول والأفهام ، وأس صلاحيته لكل زمان ومكان •

فقد تختلف أنظار المجتهدين في مسألة فيذهب كل إلى رأى يعتمد فيه على دليل صح عنده ، وقد يعمل الناس بقول في جهة أو في زمان ثم يترجح غيره عليه فيعمل به الناس ويموت القول الأول أو يبقى في بطون الكتب فقط • وهذه حالة توجد عند جميع المذاهب بل قد تقع للعالم الواحد كما اشتهر للشافعى قديم وجديد وكذلك غيره • فإذا كانت هذه طبيعة الآراء في المذاهب فكيف أمكن للأستاذ عبد القادر أن يلخص مذهب الإباضية في خمس نقاط فقط •

على أنه حتى في هذه النقاط الخمس — التي ما هي في الواقع إلا مخلفات للحركات السياسية ، وآثار النزاع على الحكم • والتي كانت تتخذها السلطة الحاكمة وسيلة لإثارة الرأي العام ضد منتقدي حكمها والساخطين عليها لسوء سيرتها • ولإبعادهم عن مجال التأثير في الجماهير — لم يوفق ولم يعرف رأى الإباضية الحق ، لأنه لم يرجع إليهم وإنما رجع إلى خصومهم ومن أخذ من خصومهم • إذا جاز استعمال هذا التعبير • وقد أخطأ في النقاط جميعها • في بعض نسب إلى الإباضية غير ما يقولون • وبعضها استعمل فيها عبارات التعميم والإبهام • ولذلك رأيت أن أوضحها نقطة نقطة إما في فصول خاصة وأما في فصل معقود لمسائل اجتهدية غرية وبرجوع القارئ الكريم إلى مناقشتنا للأستاذ عبد القادر شيبه الحمد في النقاط السابقة يتضح له أن الأستاذ عبد القادر لم يوفق حتى في هذه النقاط التي زعم أنه يلخص فيها مذهب الإباضية فنسب في بعضها إليهم ما لا يقولون به فأعطى صورة غير صحيحة عن هذا المذهب • ولا شك أن مثل هذا التشويه قد لحق ببقية المذاهب الأخرى التي تحدث عنها في كتابه •

وهذا الجهل بالمذاهب الإسلامية ، ومقالاتها الحقيقية ، والخلط بين ما يذهب إليه كل واحد منها ونسبته إلى الآخر ، والتشويه الذي ينتج عن ذلك — سواء كان مقصوداً أو غير مقصود — هو ما يجب أن يربأ عنه حملة الشريعة الإسلامية ، والأساتذة الذين يناظر بهم تدريس مواد الإسلام ، وتكوين أجيال تحمل مشاعل النور والهداية •

أما المؤسسات والمعاهد التي جعلت لتدريس مواد الإسلام فينبغي لها في هذا العصر أن ترتفع عن المذهبية الضيقة ، وأن تتشرح صدرا

للبحث العلمى الواسع ، بنزاهة وتجرد ، وأن ترتفع عن اعتبارات الدول والأوطان مراكز مذهبية معينة لا تخرج عن إطارها ، وعن حسابان أن للدول القائمة مذهبا معيناً لا تخرج عن حدوده .

إن المؤسسات والمعاهد التى تتولى تدريس الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها يجب أن تغير مناهجها وكتبها على نمط يسمح لكل المذاهب الإسلامية أن تتاح لها فرصة عرض عقائدها وآرائها بوضوح وصحة من مصادرها الثابتة لا من المصادر البعيدة عنها والتى قد تشوهها وتثبت لها نقيض ما نعتقده ونراه . بل يجب أن نعرض آراء المذاهب جميعاً باعتبارها آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما استندت إليه في حجة أو دليل معتبرا في الشرع ، وينبغي ألا يقوم بعرض آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما استندت إليه في حجة أو دليل معتبر في الشرع ، وينبغي ألا يقوم بعرض آراء أو عقائد أى مذهب إلا علماء مستنبطون منه ، يعرفونه حق المعرفة ويميزون بين المعمول به والمتروك في أقواله ويضعونه من درجته في الصحة أو الشذوذ .

مع الدكتور هويدى

هذا مؤلف معاصر آخر ، أصدر كتاباً سماه (تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية) وخصص الجزء الأول منه للشمال الإفريقى وقد قسم هذا الجزء إلى قسمين :

القسم الأول : تحدث فيه عن مساهم الخوارج والشيعة .

القسم الثانى : تحدث فيه عما سماه الإسلام السننى .

ومع أن الدكتور هويدى يعيش فى العصر الذى يدعو كل ما فيه إلى وجوب العمل على توحيد صفوف المسلمين ، وعلى الرفق بهم ، واستعمال الكلمات المؤنسة اللطيفة فى الحديث عنهم ، مهما كانوا وأينما كانوا ، وعلى التقريب بين وجهات أنظارهم المختلفة ، وعلى منابذة الجمود والعصبية ، ورغم أن دراسته للدكتوراه كانت فى باريس ، ورغم أنه دكتور فى الفلسفة التى يفترض فى صاحبها أن يكون واسع الأفق ، منفسح النظرة ، متفهما لجميع الآراء والنظريات • رغم كل ذلك فإنك لمجرد ما تقرأ جزءا من هذا الكتاب تحس بأن تيارا قويا يجرف قلم الدكتور فى طريق معينة كأنما يسوقه بدون وعى !

جاء فى كتابه ص ٤٥ ما يلى :

« فلسفة الإباضية : يلخص الأشعرى فى (مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين) النقاط التى التقى حولها جمهور الإباضية وبوسعنا أن نجعلها على الوجه التالى » (١) •

ثم يخلط خلطا عجيبا بين ما نسبته أبو الحسن الأشعرى إلى الخوارج عامة أو إلى بعض فرقهم — كالحفصية — خاصة وإلى ما نسبته إلى الإباضية ويستخرج من ذلك الخلط العجيب ، النقاط التى يزعم أن الأشعرى اعتبرها ملخصا لمقالات الإباضية •

والسؤال هنا : ما الذى يحمل الدكتور على الرجوع إلى ما كتبه الأشعرى قبل عشرة قرون وهو يتحدث عن الإباضية فى هذا القرن ،

(١) سوف ننقل الفقرة ونعرضها للمناقشة فى اواخر هذا الفصل •

أما كان أولى به وأقرب إلى الحق والصدق أن يأخذ مقالاتهم من نفس كتبهم — وعنده منهما النذر القليل ويستطيع الحصول على غيرها لو أراد بجهد يسير عندما كتب عن المالكية رجع إلى كتب المالكية فلماذا لم يقف نفس الموقف مع الإباضية ويرجع إلى كتبهم وإنما تركهم ورجع إلى غيرهم يلتبس ما قيل عنهم قبل عشرة قرون •

يقول الدكتور هويدى فى كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى (١) :

« وكان الوهبة يطلقون على أنفسهم اسم — المسلمين — لأنهم وحدهم هم الذين يستحقون هذا الاسم فى نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبة اسم الموحدين أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين : ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً — وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق — وهم عندهم مبادئ الخوارج — فرض كفاية على كل وهبى ، وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحنسنى أول الأمر • فان أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال على عكس المشتركين • (ويمثلهم فى نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فإنه تقع عليهم الجزية » •

وبعد هذا الكلام مباشرة وضع بين قوسين (الشماخى : كتاب السير) ولا شك أن القارئ — حين يجد بعد ذلك الكلام اسم الشماخى واسم كتابه السير — يعتقد أن الكلام السابق منقول عن الشماخى إذا لم يكن

(١) سنعود الى مناقشة هذه الفقرة فى فصل آت .

بالنص والحرف فبالمعنى • ولا دلالة له غير ذلك والواقع أن كتاب السير كتاب تراجم وتاريخ لا يتحدث عن هذا الموضوع مطلقاً وليس فيه ما يشير إلى هذا الكلام لا من قريب ولا من بعيد ولست أدري كيف تورط الدكتور فألقى نفسه في هذه المشكلة التي تجعله ينسب كلاماً إلى شخص لم يقله وإلى كتاب لم يوجد فيه • هل كان يعتقد أن الكتاب من النادرة بحيث لا يعرفه الناس ولا يقرأونه وأنه إذا كان كذلك فلا بأس أن ينسب إليه ما ليس فيه •

قد تكفى سقطه واحدة كالسقطه السابقة للتدليل على المنهج الذى يسير عليه المؤلف ولكننا سوف نعرض على القارئ الكريم نماذج أخرى أكثر وضوحاً عن ذلك المنهج •

يقول الدكتور هويدى فى نفس الكتاب صفحة ٤٩؛ ما يلى :

« ومن فرق الإباضية كذلك ، فرقة النفوسية أو التميزنية أصحاب أبى يونس وسيم النفوس التميزنى الذى ثار مع أصحابه فى ولاية أبى بكر ابن الأفلح بسبب مساقى الناس • وترك اتباع الحاكم حفر هذه المساقى من غير تسوية مما أثار الناس » • (الشماخى : كتاب السير ص ١٩٥)
هكذا قال : وإذا رجعت إليها القارئ الكريم إلى كتاب السير للشماخى صفحة ١٩٥ فإنك سوف تجد كلاماً يناقض تماماً ما أورده الدكتور عن الإباضية وعن أبى يونس ونسبه إلى الشماخى • وليته حين نسب هذا الكلام إلى الإباضية لم يتورط فيذكر المؤلف والكتاب والصفحة وليته إذ ذكر المؤلف لم يذكر الكتاب والصفحة • وليته إذ ذكر المؤلف والكتاب لم يذكر الصفحة حتى يمكن — دفاعاً عنه — أن يستمسك الإنسان ولو بخيط

رقيق واه ولكن ما الحيلة والدكتور يريد أن يظهر بمظهر من يتبع الأسلوب العلمى فوقع فى هذه المشكلة • والآن أيها القارئ الكريم إذا رجعت الى كتاب السير للشماخى ص ٩٥ فإنك سوف تجد فيه ما يلى بالحرف الواحد :

« (١) أبو يونس وسيم النفوس التميزنى ، قال أبو زكريا إن الإمام استعمل على قنطرة أبا يونس وسيم — وما ولاها ، فأحسن السيرة • وسبب خروجه من جبل نفوسة الى قنطرة ، أن خدمة اذا احتطبن فى مساقى أرباع الناس تركن الحفر فى غير تسوية ، فيمكن الماء عند مجئ المطر • فخشى البناءات • فولى قنطرة ، فأحسن السيرة وعدل فى القضية ، وأحسن الى الرعية ، وربما طلع على أشرف موضع حيث يسمعه الأتقى والأدنى فينادى • الاقرار من الصدقة ، والفار من الصدقة يؤذى ويكرر ذلك ، وتمادى على ولايته وعدله الى أن مات مرضياً حميداً » •

ولا شك أن القارئ الكريم يرى الفرق الكبير بين ما قاله الشماخى فى السير وبين ما نسبته اليه الدكتور هويدى • ولكى تتم الصورة ويتضح موقف الدكتور هويدى أنتقل للقارئ الكريم ما يتعلق بالموضوع فى كتاب السير •

يقول الشماخى محمد سعد بن أبى يونس وسيم التميزنى فى كتابه السير ص ٢١٤ ما يلى :

(١) أى ومن علمائهم أى علماء الإباضية •

« وقال أبو زكريا أرسل أبو يونس وسيم بن سعيد ابنه سعداً الى تيهرت ليتعلم العلم ومعه نفث بن نصر فتعلما عند الإمام • فلما بلغا من العلوم ما أراد الله • أرادا الرجوع الى بلدهما وذلك وقت موت أبي يونس عامل الإمام على قنطارة — وتقدمت أخباره — فاختر الإمام أفلح سعد الأحكام الناس وقدمه في موضع أبيه • هذا نص ما قاله الشماخي عن أبي يونس وسيم وعن ابنه سعد • وعن المقارنة يظهر لك مناقضة ما قاله (الدكتور هويدي لما جاء في سير الشماخي فبينما يصفه الشماخي بالتقى والورع وفراره من الشبهات واختيار الإمام له — من أجل هذه الصفات — فؤلاه عاملا له • ويقرر الشماخي أن أبا يونس بقي عاملا للإمام حتى توفي وأنه كان مرضياً عنه من الناس ومن الإمام ويقرر أيضاً أنه أرسل ولده الى ثاهرت ليدرس العلم على الإمام وأنه فعلا درس عليه حتى بلغ مراده ورجع الى بلده فاختره الإمام أيضاً عاملا في مكان أبيه •

هذه الصورة التي وضحها الشماخي وقد جاء الدكتور هويدي بصورة مناقضة لها تماما ونسبها الى الشماخي والدكتور هويدي يزعم أن أبا وسيم انتقد خدم الحكام فثار على الإمام وثار معه الناس حتى كونوا فرقة تسمى النفوسية والتمييزية وهو كلام لا أساس له مطلقا لا في الواقع ولا في كتاب السير ولا في غيره من كتب التاريخ الإباضي وربما نقل الدكتور هذه الفكرة عن بعض المستشرقين وأن أولئك المستشرقين لم يفهموا كلام الشماخي ففسروه بهذه الصورة ونقلها عنهم الدكتور ، دون الرجوع الى الأصل • وإلا فلا تفسير لهذا التناقض بأى اعتبار ولا سيما أن عبارة الشماخي من الواضح بحيث لا تحتاج الى تفكير ولا تفسير • ومما وقع فيه الدكتور هويدي أيضا من نسبة كلام الى ناس لم يقولوه أو تحريف ما قالوه بحيث يؤدي معنى غير المعنى الذي قصده المؤلف الأصلي ما نسبته الى أبي الحسن الأشعري فقد جاء في كتاب الدكتور هويدي ما يلي :

« يلخص الأشعري في (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)
طبعة ريتز — الطبعة الثانية — ١٩٦٣) النقاط التي التقى حولها جمهور
الإباضية وبوسعنا أن نجعلها على الوجه التالي :

تأولوا في عثمان نحو ما تأولت الشيعة في أبي بكر وعمر ، وزعموا
أن عليا هو الحيران الذي ذكره الله في القرآن الكريم (٦ : ١٧) « قل
أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا
الله • كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه
إلى الهدى » اثنتا قل إن هدى الله • هو الهدى أمرنا لنسلم لرب
العالمين » •

وإن أصحابه الذين يدعونه إلى الهدى أهل النهروان ، وزعموا أن
عليا هو الذي أنزل الله سبحانه فيه الآية : « ومن الناس من يعجبك قوله
في الحياة الدنيا » (٢ ، ٢٠٤) وأن عبد الرحمن بن ملجم هو الذي أنزل الله
فيه (ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله) •

وإذا رجع القارئ الكريم لم يجد هذا الكلام فيما كتبه الإمام
الأشعري عن الإباضية وإنما يجد هذه الفقرات ضمن شنائع أخرى أشد
منها وأخرى نسبها الإمام أبو الحسن إلى الحفصية — أتباع حفص بن
أبي المقدم — وعلق عليها الإمام أبو الحسن هناك بقوله : « إلا أن جل
الإباضية يبرأون منه إلا من تبعه — أي يبرأون من حفص وأتباعه لشناعة
مقالاته — ولكن الدكتور هويدى الذى نسب إلى الشماخي ما نسب
لا يعجزه أن ينسب إلى أبي الحسن الأشعري ما يريد أن ينسب •

وفي الحين الذى يذكر أبو الحسن أقوال الحفصية ثم ينص على
أن الإباضية يبرأون من ذلك أى يبرأون من الأقوال وممن قال بها — يأتى

الدكتور هويدى فيأخذ مما نسب الى الحفصية فقرة - لعلها أُنسب ما نسب الحفصية - فيجعلها مما يلتقى حوله الإباضية وينسب ذلك كله الى أبى الحسن الأشعرى مفسراً قول أبى الحسن « إلا أن جل الإباضية يبرأون منه » بقوله هو النقاط التى يلتقى حولها جمهور الإباضية يعنى أن أبى الحسن يقول إن جمهور الإباضية يبرأون ممن يقول هذا فيترجمه الدكتور هويدى الى جمهور الإباضية يلتقى حول هذا • ويعطى لكلمة يبرأون التى وردت على لسان أبى الحسن كلمة يلتقون التى وردت على قلمه • والدكتور يفعل هذا مع هذه الكتب وهى مطبوعة ومتداولة بين أيدى المتقنين • ولا يشعر بحرج - فيما يبدو - فى موقفه لأنه يقصد هذا •

والذى يتتبع ما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية - رغم ذكره لبعض كتبهم - يحس أن الدكتور يجهل كثيراً من الأشياء التى تناولها بالحديث عنها ، سواء ما كان منها مقالات وآراء فى الشريعة الإسلامية أو ما كان منها أحداثاً وتاريخاً وبلداناً والى القارىء الكريم أمثلة فى أخطائه فى الأحداث والتاريخ والبلدان •

يقول فى كتابه ص ٥٨ ما يلى :

« حيث أن الوارجلانى فى أحد فقهاء وفلاسفة الإباضية الرستميين فى جبل نفوسة » • وأبو يعقوب كما هو معروف ليس رستمياً وإنما هو سدرائى وليس من جبل نفوسة وإنما هو من سدراته وسكن وارجلان فنسب إليها وقيل له أبو يعقوب الوارجلانى •

والرستميون سكنوا ثاهرت وقد انقرضوا قبل ثلاثة قرون من

وجود أبى يعقوب في وارجلان ووارجلا تقع في الجنوب الشرقى للجزائر
بينما تقع شاهرث في الشمال الغربى للجزائر أما جبل نفوسة فيقع في ليبيا
والأماكن الثلاثة متباعدة عن بعضها ولا علاقة في النسب بين أبى يعقوب
والرستميين ولكن الدكتور — حسبما يبدو — لا يفرق بين هذه الأسماء ،
ولا يهتم أن يفرق •

يقول في كتابه ص ٤٩ ما يلى :

« أبو يونس وسيم النفوس التميزنى الذى ثار مع أصحابه في
ولاية أبى بكر بن الأفلح » •

وأبو يونس لم يثر على إمامه أبداً • وبقي عاملا له حتى توفى —
كما أوضحنا ذلك من قبل — وهو لم يدرك إمامة أبى بكر لأنه توفى إمامة
أفلح وقد تولى ابنه سعد الولاية من بعده على قنطرة للإمام أفلح •

وكل ما كتبه الدكتور هويدى في هذه الفقرة خطأ ، وأشد النقد
إنما ينصب عليه بسبب نسبته هذا الكلام الى الشماخى بتجديد الكتاب
والصفحة بينما يحمل الكتاب والصفحة ما يناقض هذا الكلام مناقضة
كاملة •

هذه شواهد مما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية وهى —
مع شناعتها أقل من بعض ما لم نتعرض له — وقد كتب عن بنى حيزاب
كلاما تنقزز منه انفس ، يبدو أنه نقله عن بعض المستشرقين الحاقدين
على بنى ميزاب بترجمة حرفية ركيكة يظهر فيها — بوضوح — سخافة
التعبير والخطأ في نطق الأسماء •

وَزعم الدكتور هويدى أنه تناول بالتحليل بعض مصادر الفلسفة الإباضية ولكنه فيما يبدو أنه نقل تلك الدراسات عن بعض المستشرقين بما فيها من خطأ وجهل بمعانى المصطلحات كما تحدث عن الحركة العلمية والتاريخية بكثير من التخييط والجهل .

مع الدكتور هويدى أيضاً

مهمة الشرح والإيضاح مهمة عسيرة ، وهى تقتضى ممن يضع نفسه فى موقف الشارح أن يكون ذا استعداد للقيام بهذه المهمة العسيرة .

ومن أهم الوسائل لذلك — فوق الملكة الفطرية — أن يمتلك القدرة على الفهم الصحيح . وأن يقوى على إيصال الصورة الحقيقية للموضوع إلى الآخرين فى وضوح ، وأن يكون قاهماً فهماً صحيحاً لا يخطئ ، لما يريد شرحه ، وأن يكون أميناً فى نقل المعانى وأن يكون واضح التعبير غير جاهل بالمصطلحات ، وأن يكون عارفاً باللغة واشتقاقها معرفة دقيقة فإن أختلت فيه هذه الوسائل فإن شروحه لا تكون إلا صوراً من الغموض ، وعجائب من الخلط والتشويه . والدكتور هويدى يصر — وهويكتب عن الإباضية — أن يقدم شروحا وتعاليل كثيرة يكتنفها الخطأ من كل جانب . وسوف أناقش معه فى هذا الفصل مثلين مختصرين . الأول فى المعنى اللغوى لكلمة مفردة والثانى لفقرة تتضمن بعض الاصطلاحات .

المثال الأول :

جاء فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية نقلا عن السماخى صفحة ٣٧ ما يلى : « فأتعدوا ليوم معلوم يجتمعون فيه » . وقد شرح كلمة (أتعدوا)

بقوله (أى أعدوا العدة) ووضعها بين قوسين • وأحسب أن عبارة الشماخي واضحة لا لبس فيها ولا تحتاج الى شرح • ولكنها لا تعنى ما ذهب إليه الدكتور إلا على باب من الالتواء والتأويل لأن كلمة (اتعدوا) تعنى أنهم اتفقوا على موعد يتلاقون فيه ، أو وعد بعضهم بعضا باللقاء ، أو حددوا لأنفسهم زمانا أو مكانا يجتمعون فيه أو ما يؤدي هذا المعنى ففسر كلمة (اتعدوا) بقوله أعدوا العدة أى استعدوا والفرق بين معانى اتعدوا واستعدوا وأعدوا واضح في استعمالات اللغة العربية لأن (اتعدوا) مشتقة من وعد وهي مادة أخرى غير مادة عد ، وأعد ، واستعد •

ولكن الدكتور — وهو يتعاطى الشرح والتفسير — لم يحمل نفسه عناء التدقيق ، تذوق معانى في الكلمات في استعمالاتها الصحيحة المختلفة • ولا عناء الرجوع الى قواميس اللغة ، للتأكد من سلامة فهمه • ولا حتى عناء التأمل في سياق العبارة وما تؤديه وأعتقد أن الاستهانة بالدقة في معاشي المفردات واستعمالاتها من رجل يشتغل بالأبحاث الفلسفية ، لا ينبغي • ما تفرضه الفلسفة من التدقيق في معرفة الحقائق •

المثال الثاني :

يقول الدكتور هويدى في كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى :

« يقال الإباضية الخوارج (الوهبية) (١) أو (الوهابية) وكان

(١) هذه التسمية خاصة بالإباضية تطلق عليهم دون غيرهم من الفرق التى انشقت عنهم • وسبب تسميتهم بهذا الاسم أن فرقا انشقت عن الإباضية وانحرفت عن أصولها وعقائدها واحتفظت باسم الإباضية رغم أنها صار لها أسماء جديدة • فاطلق الإباضية الاصلاء على أنفسهم كلمة الوهبة تمييزا لهم عن غيرهم من الفرق التى مالت الى الخوارج أو الى المعتزلة • كالتنكار والحسينية وغيرهم وستجد مزيدا من التفصيل والإيضاح عن هذا الموضوع في الفصل الخاص بالحديث عن فرق الإباضية •

الوهمية يطلقون على أنفسهم اسم (المسلمين) لأنهم وحدهم هم الذين يستجقون هذا الاسم في نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهمية اسم (الموحدين) أى أنهم في نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضا • وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق وهو عندهم مبادئ الخوارج فرض كفاية على كل وهبى — وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحسنى أول الأمر ، فان أبوا فيجب عليه قتالهم • لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال ، على عكس المشركين (ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فانه تقع عليهم الجزية •

حرص الدكتور هويدى حرصا شديدا على أن يذكر كلمة الخوارج قبل أو بعد كلمة الإباضية كأن إحداها تفسير للأخرى مما اقتضاه أن يكرر كلمة الخوارج — دون أية حاجة إليها — في الصفحات القليلة التي كتبها نيفا وثلاثين مرة مما يبعث السأم والاشمئزاز في نفس القارئ من هذا التثبث اللفظي الذى يسيطر على حواس الكاتب كأنما خشى أن ينفلت من الإباضية دون أن يلتصق بهم الخوارج • وفى مقابل هذا حرص حرصا شديدا أيضا كلما ذكر المذهب المالكى أن يلحقه بكلمة السنى في إصرار وتثبت عجيبين كأنما هناك مذاهب مالكية كثيرة يتحدث هو عن واحد منها فقط أو كأنما يخشى أن ينفلت منه المذهب المالكى دون أن تلتصق به كلمة السنى • ولا يدل هذا التثبت اللفظي الساذج — إن دل على شيء — إلا على أن الكاتب في قرارة نفسه لا يصدق هذا ولا يؤمن به • وإنما يقوله ويحرص على قوله خوفا من وهم يطارده في أعماق نفسه أو كالمحدث الذى لا يثق فيما يقوله و يعلم أن الناس لا يصدقونه فيؤكد كل جملة من حديثه بيمين دون أن يطلب منه يمين •

يقول الدكتور هويدى « وكان الوهبة يطلقون على أنفسهم اسم المسلمين » • ثم يذهب يشرح كلامه هذا الواضح بتفسير معقد فيزعم أن الوهبة يقصرون اسم المسلمين عليهم ولا يطلقونه على غيرهم لأنهم وحدهم الذين يستحقونه ، ولأنهم القائمون بالسنة •

وأريد أن أقول للدكتور هويدى بعبارة واضحة مختصرة إن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع أهل القبلة وهم داخلون فيها وقد يطلقونها ويريدون بها الإباضية بقرينة تدل على ذلك إما لفظية وإما بدلالة السياق وهى ترادف كلمة الموحدين فى أغلب الاستعمالات ولهذا فكلام الدكتور هويدى غير صحيح وهناك بحوث شرعية مطولة بين علماء الأمة فى معانى كلمات مؤمن وموحد ومسلم ومشارك وكافر ونافق وفاسق وعاص والعلاقات بين بعضها والبعض الآخر والخصوص والمعموم فيها ولكل المذاهب الإسلامية فى هذا الموضوع مواقف محددة للإباضية فيها موقفهم المحدد •

وأما إنهم يحسبون أنفسهم عاملين بالإسلام قائمين بالسنة فهذا صحيح وكل مذهب من المذاهب الإسلامية يعطى لنفسه هذا الحق ويأباه عن الآخرين لأنه إذا كان للآخرين المخالفون له على الحق فهو على الباطل • ولذلك تجد كل أهل مذهب يحرصون على أن يسموا أنفسهم : أهل السنة ، أهل الحق ، أهل الاستقامة •

وربما كان مهما أن يفهم الدكتور أن جميع أصحاب المذاهب الإسلامية قد يطلقون كلمة المسلمين ويريدون بها مذاهبهم الخاصة بقرينة تدل على ذلك ولو تأمل فى كتب المذهب (المالكي السنى) لوجدتها مئات المرات قد

أطلقت كلمة المسلمين على أتباع الإمام مالك فقط ولا حرج في ذلك فيى
وغيرها لا تريد تحجير الواسع كما أراد أن يفسر الدكتور • بقى — في هذه
النقطة أن يعلم الدكتور أن الإباضية إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الإباضية
خاصة فإن لهم أسماء خاصة كالإباضية والوهبية وأهل الدعوة وأهل
الاستقامة وكثيرا ما يرد في كتب الفقه قال أصحابنا أو هذا قول أصحابنا
على أن كلمتى الأصحاب وأهل الاستقامة تستعملها مذاهب أخرى للدلالة
على نفسها أما الإباضية والوهبية وأهل الدعوة فهو خاص — عند الإباضية
بالإباضية •

يعد هذا التفسير المتوى الذى لا لزوم إليه من الدكتور هويدى
ينزلق قلمه إلى عبارة توحى بأن الكاتب يريد إشغال فتنة بين الإباضية
من جهة والمالكية والحنفية من جهة أخرى فقد قال : أما المالكيون والحنفيون
الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبة اسم الموحدين أى أنهم فى
نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً •

ليست أدري هل كان الدكتور هويدى يحس بما تدل عليه هذه
العبارة وأنها لا تصدر فى هذا العصر إلا عن إنسان يريد أن يثير فتنة ،
ويغرق كلمة ويزرع البغضاء بين الناس وأنه اختصار المذهبين المالكية
والحنفية ليجعل منهما مقدح النار • وإلا فلماذا خصصهما دون بقية الفرق
والمذاهب • ولماذا رجع إلى تلك العبارة الغامضة الموهمة التى قيلت قبل
عشرة قرون مضت • إن كلمة الموحدين من الناحية الشرعية يطلقها
الإباضية على كل من أقر بالجملة وليست خاصة بالمالكية والحنفية بل
تخلط عليهما وعلى الإباضية أنفسهم وعلى غيرهم من الفرق والمذاهب
التي آمنت بالله ورسوله •

إن الإباضية يطلقون على المالكية وغيرهم اسم المسلمين ويعاملونهم ويعاملون غيرهم — ممن أتى بالجملة — معاملة المسلمين لا يتقصونهم شيئا أبدا ما عدا الاستغفار وطلب الرحمة من الله فهذه حقوق شخصية والإباضية يرون أن الولاية والبراءة الشخصيتين واجبتان فعلى كل مسلم أن يتسولى ويجب ويستغفر ويسترحم للمسلم الذى يراه موفيا ويعمل صالحا وعليه أن يبغض ويبغض إلى الله من كل عاص إذا عرفه بشخصه فإذا لم يعرفه توقف فيه حتى يعرفه •

وخلاصة مناقشة هذه النقطة أن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع المسلمين دون تفريق وقد يطلقون كلمة المسلمين ويقصدون بها جزءا منهم بدلالة قرينة أو سياق وهذا هو الأسلوب الموجود فى أحاديث جميع الفرق والطوائف وعندما يتحدث أى متحدث عن النصر والهزيمة بين جيوش المسلمين وأعدائهم فقد ترد أمثال هذه العبارات فعندما يقال انتصر المسلمون فى أسبانيا أو انهزموا فى موقعة كذا فهم يعنون بذلك المسلمين الذين هم فى الواجهة • ولا شك أن المسلمين الذين هم بعداء عن أرض القتال ليسوا منتصرين أو منهزمين فى الوقائع السابقة ، وعندما يكون القتال بين غرق من المسلمين أو دول من المسلمين فيقول أحد الفريقين انتصر المسلمون أو انهزموا أو فعلوا كذا فهو بالتأكيد يريد بكلمة المسلمين الجناح الذى هو فيه أو ينتهى إليه وقد استعمل كلمة المسلمين للدلالة على هذا القسم الخاص ولكن التعبير مع هذه الدلالة لا يعنى إخراج القسم الآخر من الإسلام أو الحكم عليه بالكفر • أظن أن هذا يكفى لإيضاح هذه النقطة التى حاول الدكتور هويدى أن يستعملها فى غير حقيقتها •

بعد هذا كله يتورط الدكتور هويدى تورطا مخجلا حين يقول :

« وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين إلى الدين الحق — وهو عندهم مبادئ الخوارج — فرض كفاية على كل وهبى وأن عليه أن يبدأ باقناعهم بالحسنى أول الأمر فإن أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال • على عكس المشركين (ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية ... الخ) فإنه تقع عليهم الجزية » • الواقع أن هذا الكلام غير مستقيم ولا سليم وصاحبه فيما يبدو لا يفرق بين فرض العين وفرض الكفاية فبينما يقول إن دعوة الموحدين إلى مبادئ الخوارج فرض كفاية عند الإباضية يناقض قوله هذا فيزعم أن ذلك يجب على كل فرد وأنه على كل فرد أن يدعوهم بالحسنى فإن لم يستجيبوا قاتلهم وهذا كلام يناقض بعضه بعضا وهو يزعم هنا أن الدين الحق عند الإباضية هو مبادئ الخوارج ولكنه في آخر الفصل بعد أن يقسم الإباضية إلى مجموعة من الفرق يقول وجميع هذه الفرق للإباضية تبرأ من فرق الخوارج • فإذا كانت تبرأ منهم فكيف تعتبر مبادئهم هي الدين الحق • وبوضوح واختصار نستطيع أن نقول إن هذا الكلام لا أساس له عند الإباضية ولم يوجب الإباضية أبدا — لا من باب فرض الكفاية ولا من باب فرض العين — على كل وهبى أن يدعو أصحاب المذاهب الأخرى إلى مذهبه ولا أن يقاتلهم وأقصى ما يطالب به الفرد الإباضى في هذا الموضوع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأسلوب المعروف في هذا الباب •

ولعل الدكتور الفيلسوف مرت به عبارة في بعض كتب علم الكلام تقول إن على الإمام أن يدعو مخالفه إلى ترك ما به ضلوا وإلا أعذر إليهم وقاتلهم ومثل هذه العبارة ترد عند الحديث عن الدولة ومن يخرج عنها بصفة عامة • والوجوب هنا على الإمام • والمدعو ليس هم المالكية

أو الحنفية أو غيرهم وإنما هم الطائفة الخارجة على إمام العدل مهما كان مذهبها لأنها طائفة باغية فيطلب إليهم الإمام أن يتركوا ما به ضلوا أى برروا به بغيرهم عن الإمام وأن يرجعوا إلى الأمة فإن امتنعوا قاتلهم وشتان بين موضوع وموضوع وما أحسب أنه يستقيم في تفكير أو عقل أن يلزم كل فرد من مذهب بدعوة غيره إلى مذهبه فإن امتنع قتله وعلى كل حال فهذا شيء لم يكن عند الإباضية •

أما عباراته الأخيرة في هذه الفقرة وهى قوله : (ولكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال على عكس المشركين ويمثلهم في نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فلا معنى لها ولا داعى إليها ولا علاقة لها بالموضوع ويخيل إلى أنها كانت كذلك في كتاب المستشرق الذى ينحت منه الدكتور فلم يفهمها ولم يجد لها موصفا فوضعها بين قوسين وجراها حتى وقعت في هذا المكان صدفة ومن غير تدبر ولا تفكر ولا إمعان •

لعله مما يفيد القارئ الكريم أن أعود معه فألخص له أخطاء الدكتور في شروحه السابقة التى لا تستند إلى حقيقة فيما يلى :

١ — اتعد القوم — وعُد بعضهم بعضاً — حدوداً موعداً للقاء — اتفقوا على اللقاء في زمان أو مكان أو فيهما • وليس معناها أعدوا العدة •

٢ — كلمة الخوارج حتى على رأى من يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج • ولا ترتبط بالإباضية ارتباطاً لفظياً مستمرا •

٣ — الإباضية في الاستعمالات العامة يطلقون لفظ المسلمين على أمة الإجابة وهذا الأكثر في استعمالهم وقد يقصدون به الإباضية فقط بدلالة قرينة لفظية أو من السياق •

٤ — كلمة الموحدين يطلقها الإباضية على جميع من نطق بكلمة التوحيد في المسلمين وليست خاصة بالمالكية والحنفية كما تشعر عبارة الدكتور •

٥ — شرحه لكلمة الموحدين بأنها تعنى أنيم ليسوا مشركين وليسوا مسلمين غير صحيح والموحدون هم المسلمون وكل المسلمين في جميع الأزمنة والأمكنة هم موحدون •

٦ — لا يوجب الإباضية على أى إباضى أن يدعو غيره إلى الإباضية ولا يجيزون له مطلقاً أن يقبل أحداً من المسلمين سواء استجابوا له أو لم يستجيبوا وسواء دعاهم أو لم يدعهم • لأن الدعوة أمر شخصى من حقه أن يستعمله هو فقط ولا يوجب عليه أحد • ولو دعا أحداً فلم يستجب له فقتله لوجب قتله قصاصاً •

٧ — الإباضية لا يرون أن الدين الحق هو مبادئ الخوارج بل يرون أن مبادئ الخوارج ضلال وباطل وأن الدعوة إليها دعوة إلى الباطل سواء كانت دعوة بالحسنى أو بالشدة •

٨ — الإباضية يفرقون بين أحكام المشركين وأهل الكتاب والصائبين فلكل واحد من هؤلاء حكم خاص به لا يتعداه إلى غيره • والتسوية بينهم في حكم الجزية خطأ من الدكتور فإن المشركين ليسوا من أهل الجزية • ولا تقبل منهم •

٩ — ذكر عددا من الفرق قال إنها من فرق الإباضية ثم قال :

« وجميع هذه الفرق تتبرأ من فرق الخوارج الأخرى : الأزارقة والبيهسية والنجدات والصفرية ... الخ لكن اسم الوهبة يجمعها ويطلق عليها لكنها » • وصحيح أن الإباضية الوهبة يبرأون من جميع فرق الخوارج لكن ليس صحيحا أن كلمة الوهبة تطلق على جميع فرق الإباضية • وقد رأينا أن نخصص فصلا لمناقشة موضوع فرق الإباضية أو الانشقاق عند الإباضية وفي إمكان القارئ أن يراجع هذا الموضوع هناك •

أحسب أن هذه النماذج البسيطة التي عرضناها في هذا الفصل من تخطيط الدكتور كافية للدلالة على قيمة الكتاب في عرضه لفلسفة الإباضية •

هويدى فى تبعية المستشرقين

للمستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام — سواء كانت كتابتهم عنه كدين ، أو عن الأمة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن مذهب من مذاهبها كمذهب أو فرقة — أساليبهم ودوافعهم ومراميهم الظاهرة والخفية .
ومهما كان المشرقون مخلصين للبحث العلمى فى هذه المواضع فإنهم — فى الحقيقة — أشد إخلاصا للدوافع والرامي الحقيقية التى حملتهم على الكتابة عن الإسلام أو عن المسلمين ، أو عنهما معا .

والواقع أنهم نجحوا إلى مدى بعيد فى تحقيق أهدافهم البعيدة التى يرمون إليها بكتاباتهم ، ومحاضراتهم ، وندواتهم ، وأسمارهم ، ولعل من أبسط أهدافهم أن يتركوا لهم ظلالة فى بلاد الإسلام خاصة ، وفى الشرق عامة . وقد استطاعوا — فعلا — أن يكونوا فى البلاد الإسلامية ومن أهلها مستعربين من حملة الأقلام وأصحاب الفكر ، ينظرون إلى الشرق من نفس الزاوية التى ينظر منها المستشرقون مع فارق بسيط هو أن المستشرقين الغربيين إنما يخدمون — بما يقدمونه عن الشرق — مصلحة الغرب أى مصلحة بلادهم . أما المستعربون الشرقيون فهم إنما يخدمون أيضا — بما يقدمونه عن الشرق والغرب — مصلحة الغرب أيضا . أى مصلحة الوجهين لهم ، المؤثرين عليهم ، أى أن المستشرقين الغربيين استطاعوا أن يتركوا لهم فى الشرق ظلالة تتحرك لتحركهم ، ومفكرين وفلاسفة يفكرون بأسلوبهم ويتكلمون بمنطقهم ، ويققدسون حججهم ولو كانت تافهة مضحكة ، ويعتزون بآرائهم ولو كانت نسيجا من الأباطيل أو الأضاليل . ويلهثون وراء ما يسيرون إليه ولو كانت الإشارة من طرف البنان ومن مكان بعيد .

ولعل من أغرب ما يصادفك في هذا الباب أن تقرأ لبعض المستعربين المشهورين كلاما ينقله مترجما عن كاتب غربي ، فتعرف أن النص إنما هو لكاتب مسلم استشهد به الغربي إما نقلا أو اقتباسا فترجمه إلى لغته الأجنبية . فجاء الكاتب المسلم أو المستعرب المسلم فترجم النص من جديد إلى اللغة العربية — لأنه لا يعرف أن النص عربى — وعندما تقرؤه تحس بالألم يعتصر فؤادك ، وذلك لأن الترجمة الأولى من العربية إلى الأجنبية اطفأت نصف الروح من النص ، وترجمته الثانية من الأجنبية إلى العربية اطفأت النصف الثانى ، فلم تبق منه إلا عبارة ميتة . إن الكاتب المسلم المستعرب المعتز بتبعيته للمستشرقين لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه يعتمد على ما يكتبه المستشرقون في القضايا الإسلامية اعتمادا كلياً وهو يترفع — بزعمه — أن يرجع إلى المصادر الإسلامية فهو يجهل تلك النصوص وأصحابها ومواقعها بل وحتى مقدار استفادة المستشرقين بها . وإما أنه يعرف ذلك ويطلع عليه ولكنه يرى أن استناده على فيلسوف غربي أرفع لقدره وأعظم لعلمه ، وأفيد لكتاباته ، وللأسماء الأعجمية الغربية رنين خاص في آذان هؤلاء كما جعل لأسماء حكماء الهند وفلاسفة الإغريق رنين خاص في بعض فترات التاريخ .

والدكتور هويدى ممن يعتمد على المستشرقين في تحليل الفلسفة الإسلامية ويعتز بما ينقله عنهم ، ويضع آراءهم في درجة البراهين ، ويفضل إيرادها والاستشهاد بها في تثبيت النظريات وتقرير الأحكام . يقول الدكتور هويدى في كتابه (تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية) طبعة ١٩٦٦ ص ٢٧٠ ما يلى :

« يشبه دوزى في كتابه (تاريخ المسلمين في إسبانيا) قيام حركة الخوارج في المغرب ونجاحها بقيام الحركة الكلفائية في اسكتلندا ونجاحها ، وذلك لما تنطوى عليه كل من الحركتين من انتصار للمبادئ الديمقراطية في الدين ، ولما أدت إليه كل من الحركتين من تثبيت لدعائم الديانة التي أقامت كل منهما في رحابها : الديانة الإسلامية والديانة المسيحية .

وعلى العكس من ذلك ذهب جوتيه — في كتابه العصور المظلمة للمغرب — إلى أن في القول بأن حركة الخوارج ديموقراطية مبالغة كبيرة . وذلك لأنه « قد يستهينا القول بأن الأصل في دعوة الخوارج أنها كانت غلبة تحركها روح ديموقراطية ديماجوجية ، لكن هذا لن يكون إلا نظرة أوروبية مبالغا فيها إلى هذه الحركة ، ومنهجا غير صائب للتعبير عنها ، حقا أننا نلتقى على رأس هذه الحركة في المدن الكبيرة ، برجال من القاعدة الشعبية ، مثل ميسرة ، أول خليفة خارجي ، الذي كان مجرد سقاء بسيط في مدينة طنجة فيما يرويه ابن الأثير ... ولكن هذه الحركة التي كانت ملحمة عسكرية كبرى ، استعانت من غير شك بقبائل الزناتية التي طبعت على الحرب ، وكان أفرادها رعاة سلموا مقاليد أمورهم إلى قيادة أوروستقراتية ، فرجل مثل « أبو قررة » كان دون أدنى شك أميرا » .

هنا ينتهي كلام المستشرقين ويعلق الدكتور على ذلك بقوله : « لكننا نخالف جوتيه الرأي ونذهب إلى أن حركة الخوارج ديموقراطية في أساسها ، لأن العبرة بالمبادئ التي أتت بها ، أيا كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمى إليها رجالها ، وليس هناك ما يمنع من اعتناق

أمير أوروستقراطى مثل (أبى قره) المبادئ الشعبية الديمقراطية التى نادت بها الخوارج غير أنه إنصافا للحقيقة علينا أن نقرر أن الخوارج وإن كانت المبادئ التى قدموها لنا ذات صبغة ديموقراطية إلا أنهم كانوا متمسكين بعروبيتهم إلى الحد الذى جعلهم يحتقرون الموالى وينفرون منهم • وقد روى ابن الحديد فى شرح نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية • فقال لها الخوارج فضحتنا وليس من شك أن هذه العصبية لا تتفق مع المبادئ الديمقراطية التى لا تعرف تعصبا ضد أى جنس •

لعلنا من مناقشة هذا النموذج نستطيع أن نعطي صورة للقارىء الكريم وضع له أسلوب المستشرقين — ومن يسير فى مخططهم — فى معالجة قضايا الشرق ، إذ لا شك أن المستشرقين يناقشون القضايا الإسلامية بموازين خاصة ، ويحاولون أن يخضعوها لمقاييس معينة عندهم يجب — فى رأيهم — أن تنطبق عليها كل الانطباق • وربما يتضح لنا أيضا أن الدكتور هويدى يسلك نفس المسلك ، وفى إمكانك أن تتأمل — فى الفقرات السابقة — وهو يعالج الحركات الإسلامية قبل عشرة قرون ، ويقيسها بالمقاييس الغربية اليوم ، معتمدا فى ذلك على ما كتبه المستشرقون سالكا نفس السبيل التى سلكوها فى التحليل والتعليل وإثبات البراهين • وتأمل تحليل الفقرات السابقة فيما يلى : المستشرق دوزيه يرى أن حركة الخوارج تشبه حركات الكفائية لما تنطوى عليه من المبادئ الديمقراطية •

والمستشرق جوتيه يرى أن وصف حركة الخوارج بأنها ديموقراطية مبالغة كبيرة ، ويحتج لرأيه هذا بأن أبا قره اليفرنى بويح إماما للخوارج وقد كان أوروستقراطيا قبل ذلك •

والدكتور هويدى يقرر أن الخوارج ديموقراطيون ، ويرد على المستشرق جوتيه بأنه ليس هناك ما يمنع من اعتناق أمير أروستقراطى مثل (أبى قرة) المبادئ الشعبية للديموقراطية ، ولكنه مع ذلك يعود فينفى عن حركة الخوارج مبادئ الديمقراطية — إنصافا للحقيقة كما يقول — وذلك لأن الخوارج متمسكون بعروبتهم • والدليل على هذا التمسك أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقالوا لها فضحتنا ، والعصية القومية لا تتفق مع مبادئ الديمقراطية ومنطلق الفرضية والتحليل في الفقرات السابقة أن المستشرق دوزى يزعم أن سبب نجاح حركة الخوارج هو كونها تمثل مبادئ ديموقراطية ولكن المستشرق جوتيه لا يعجبه هذا الرأي فيرده محتجا بأن فردا أروستقراطيا قد انضم إليهم وأن حركتهم كانت في الشرق ولا ينبغي لنا أن ننظر إليها بمنظار غربى فهم إذا ليسوا ديموقراطيين حين سمحوا لأروستقراطى أن يكون من بينهم • ولحركتهم أن تنبت في الشرق • ويأتى بعد ذلك الدكتور هويدى فيرد أولا رأى جوتيه بأن الأروستقراطى قد يكون تخلى عن أروستقراطيته واعتنق المبادئ الديمقراطية ولكنه يعود فينكر على الخوارج أن يكونوا ديموقراطيين لسبب آخر هو تمسكهم بعروبتهم ، ويستدل على تمسكهم بعروبتهم أن أحد الموالى خطب امرأة منهم فقالوا لها فضحتنا •

هكذا ترى أيها القارئ الكريم أن بحثا فلسفيا عميقا يتناول قضية هامة هي قضية الديمقراطية في حركة تاريخية هامة تمتد ما بين الصين والمحيط الأطلسى يناقشها ثلاثة فلاسفة : مستشرقان وعربى — نفيًا وإثباتًا — بناء على رأيهم في فرد واحد أو بناء على قصة وردت في كتاب أدب — يعلم الله مقدار صحتها ولو صحت لما كان لها أى أثر في الموضوع •

إن المستشرق جوتيه يستكثر أن تقوم في الشرق حركة ديموقراطية ولذلك ينبرى للرد على المستشرق دوزى حين زعم أن حركة الخوارج إنما انصرت لأنها تنطوى على حركة ديمقراطية في الدين — ويرى أن دوزى أخطأ التقدير لأنه نظر الى تلك الحركة القائمة في الشرق بمنظار أوروبى مبالغ فيه ، يعنى أنه لو قامت تلك الحركة في أوروبا لأمكن أن تعتبر حركة ديمقراطية أما وهى في الشرق فليس ذلك ممكناً لأن الديمقراطية أكبر من تفكير الشرق في رأى جوتيه ولكى يبرهن على أن تلك الحركة ليست ديمقراطية فتش بين زعماء الخوارج فوجد أن الحركة الخارجية أسلمت قيادها في طرف من أطراف الأرض الى رجل أورستقراطى يرجح أنه كان أميراً فكان هذا سبباً كافياً لكى نحكم بأن حركة الخوارج ليست ديمقراطية •

فالحركة التى تكونت في الجزيرة العربية وامتدت شرقاً الى الصين وغرباً الى المحيط وعاشت عدداً من الأجيال أو عدداً من القرون كلها تنهدم في رأى هذا المستشرق بحادثة بسيطة ، وهى أن قبائل زنانة — وهى قاعدة شعبية — أسلمت قيادها الى أبى قره الذى يظن أنه أورستقراطى • وبوصول هذا الرجل الى مركز القيادة في طرف من أطراف الأرض على مجموعة ضئيلة من الناس — فسدت الديمقراطية في حركة الخوارج على اتساع مداها • مع أن حالة هذا الرجل الذى وصف بأنه أورستقراطى لم يعرف ما إذا كان حقاً أميراً ، ولم يعرف ما إذا كان حقاً أورستقراطياً ، ولم يعرف ما إذا كان — حين تولى قيادة الخوارج في طرف من الدنيا — باقياً على أوروستقراطيته أم أنه التزم بالمبادئ الجديدة التى اعتنقها والتى اختير للإمارة من أجلها • ثم إنه لم يكن أميراً على الخوارج كلهم • ولا على فرقة كاملة منهم في جميع أوطانها ، وإنما كان عبارة عن رجل تولى قيادة مجموعة من الناس ثائرة على الدولة في معارك حربية محدودة

حالته النجاح في بعضها والفشل في الأخرى بعد هذا يأتي الدكتور هويدي مستعملاً نفس المنطق والأسلوب سائراً في نفس المنهج كأنما يترسم خطى مرسومة فيرد على المستشرق جوتييه باحتمال أن يكون أبو قرّة قد تنازل عن أروستقراطية والتزم بمبادئ الديمقراطية ولم يهتم الدكتور بهذا البناء الضخم الذي يقوم أو ينهار بسبب رجل واحد ، ولم يهتم أيضاً بتلك الطعنة المسمومة التي ترغم أن مثل هذه الحركة يحتمل أن تقوم عليها ديمقراطية لو أنها كانت في أوروبا أما وهي في الشرق فلا ، وبعد أن ينتقد الدكتور رأى جوتييه ويرد عليه كما رأيت ويصف حركة الخوارج بأنها تنطوي على الديمقراطية يعود فينفى أن يكون الخوارج أصحاب ديمقراطية بسبب آخر غير سبب جوتييه وذلك أنه عثر أثناء مطالعته على قصة في شرح نهج البلاغة ترغم أن رجلاً من الموالى خطب امرأة خارجية فقال لها أهلها لقد فمضحتنا ...

ودون أى شرح لهذه القصة • ودون أى تأكيد لصحتها أو كذبها ، ودون أى تعليق على أحداثها يجعلها دليلاً على أن الخوارج متمسكون بعروبتهم والعروبة قومية والقومية ضد الديمقراطية وهكذا تكون هذه القصة عن الفتاة وخاطبها سبباً في إبعاد الديمقراطية عن حركة الخوارج •

أنا لم أشرف بدراسة الفلسفة ولكنني كنت أعتقد أن الآراء الفلسفية لا يمكن أن تبني إلا على حقائق ثابتة أو على الأقل مؤكدة ، فأى شأن لهذه القصة التي رويت في كتاب قيل إن أصله موضوع حتى يجعل منها الدكتور هويدي برهاناً على حكم فلسفى •

الخوارج في ذلك الحين كانوا منتشرين في جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وهم يتكونون من جميع الجنسيات المختلفة التي يتكون منها

المسلمون في مختلف أوطانهم ولهم عدد غير قليل من القيادات منها قيادات تصلة ومنها قيادات منفصلة • ولهم عدد غير قليل في العادات والممارسات ولم نعرف هذا المولى الذى تجاسر فخطب فتاة خارجية هل هو عربى الجنسية أم له جنسية أخرى ، ولم نعرف أيضاً لماذا غضب أهلها الآن الفتى مولى ؟ أم لأنه غير عربى ؟

فكيف أمكن أن نسلب عن جميع الخوارج نتائج حركة شاملة بسبب كلمة صدرت عن أفراد أسرة إذا صحت الحكاية ؟ أليس من الأسر أن نخرج تلك المرأة وأسرتها من نظام الديمقراطية أو من طابور الخوارج بدلا من أن نلغى حكماً أعطيناه لحركة شملت العالم الإسلامى كله بسبب كلمة صدرت عن فرد أو أفراد ليسوا هذه المرة حتى في مراكز قيادية ؟

لست في هذه المناقشة أحاول أن أثبت أن حركة الخوارج كانت حركة ديمقراطية أو لم تكن فهذا موضوع لا يهمنى وليس هذا مكانة • وإنما أردت أن أضع بين يدى القارئ الكريم أمثلة من مناقشات المستشرقين ومن يسير في ركابهم لبعض القضايا الإسلامية •

فهذا هو منطق المستشرقين في معالجة القضايا الإسلامية ، وهذا هو منطق من يسرون في ركابهم ويتأثرون بخطاهم •

البحث عن التوافه والجزئيات والشسواز ثم تضخيمها وإبرازها وتبسيط الأضواء عليها حتى تأخذ المكان الأوضح في المناقشات عامة ، وحتى يقضى بها على الحقائق الثابتة الأصيلة • حين تبني أحكام عامة على شواذ الوقائع كأنها هي أصول الحركة أو أصول الحياة •

وقد رأيت في تطبيق نظرية الديمقراطية الدينية حركة الخوارج كيف نوقشت بطريقة تكاد تكون هزلية فأثبتها مستشرق لأنها تشبه حركة أخرى قامت في أوروبا ونفاها مستشرق آخر لأنه لا يجوز أن ينظر الى الشرق بالمنظار الذى ينظر به الى أوروبا ولأن رجلا — يشك أنه كان أميراً — وصل الى مركز القيادة ، وبنفياها متفلسف عربى لأن أهل فتاة عربية ساءهم أن يتقدم الى خطبتها أحد الموالى •

ومن المؤسف أن الدكتور هودى قد تأثر بالمستشرقين الى حد أنه اصطنع أسلوبهم فى الحديث والعرض ، وفى تضخيم التوافه والشواذ ، وفى إغفال الحقائق الواضحة البارزة ومحاولة إخفاؤها وإذابتها ، وقد تأثر بهم حتى اللهجة التى يستعملونها ، فهم — بطبيعة الحال — غرباء عن الإسلام والمسلمين ، ولذلك فعندما يكتبون عنه أو عنهم ، تلحم أساليبهم ، روح الغربة ، ثم روح التعالى ، ثم روح المقاضاة والحكم •

وعندما تقرأ للدكتور هويدى تحس بنفس الشعور وبنفس الخطوات كأنك تقرأ لأحد المستشرقين • إنك تستشعر الغربة فعلا فتحس بأن من كتب ذلك هو غريب عن الموضوع وليت أنك تحس بهذا الإحساس وأنت تقرأ له عن الفرق التى سخط عليها فقط لكن الواقع المؤلم أنك تجد هذا فى جميع أجزاء الكتاب حتى وهو يكتب عن « الإسلام السنى » الذى يريد أن يظهر بمظهر المتمسك به المدافع عنه •

ومن المؤلم أن يقع الدكتور فى هذه الحباله — حباله تقسيم الإسلام الى إسلام سنى ، وإسلام شيعى ، وإسلام خارجى — وربما توسع متوسعون فيما بعد فقالوا إسلام حنفى وإسلام مالكى ، وإسلام ظاهرى

وغير ذلك من الأسماء أو الأنواع ما دام كل نوع منها يصلح لأن يكون وسيلة سهلة للحصول على شهادة دكتوراه أو ما يوصل إليها .

ونحن نعرف — بوضوح — أهداف المستشرقين الذين ابتكروا هذه التسميات وهذه التقسيمات ولا يزالون يبتكرون حرصا منهم على إظهار الإسلام بأنه فكرة بشرية متأثرة ، وأن المذاهب الإسلامية لا تخرج عن كونها إما محافظة على تلك الفكرة بجمود ، وإما بتعديلات حسب منازع زعماء تلك الفرق .

لقد وقع الدكتور في هذه الحباله فاستساغ التسميات والتقسيمات فتشبهت بها في حرص وجعل يرددتها في اعتزاز . حتى أنه في فصل واحد من كتابه ردد أكثر من عشر مرات بنفس الصيغة التي يستعملها المستشرقون الغربيون وب نفس الأسلوب الذي يوحى بنظرة التعالي والمقاضاة والحكم . وإلى القارئ الكريم نماذج من ذلك :

يقول الدكتور هويدى في كتابه لتاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية صفحات (١٤١ — ١٥٢) ما يلي :

١ — « يقال الإسلام السننى فى مقابل الإسلام الشيعى ، لأن الشيعة هى الفرقة الإسلامية التى تقابل بالقضاء أهل السنة والجماعة » .

٢ — « سنقتاول تاريخ الإسلامى السننى وسنقصد به كل التطور الذى شهده الفكر الفلسفى الإسلامى » .

٣ — « يحسن أن نبدأ بأن نقدم للقارئ مراحل انتشار الإسلام السننى فى الشمال الإفريقى » .

٤ — « نستطيع أن نتخذ من تاريخ خروج عقبة بن نافع الى المغرب

عام ٤٦؛ وتأسيسه مدينة القيروان نقطة بدء تاريخ الإسلام السننى فى الشمال الإفريقى •

٥ — « وقدم هؤلاء الفقهاء الى المغرب وانتشارهم فى ربوعه يفقهون الناس • فى أمور دينهم يعد مرحلة هامة فى مراحل انتشار الإسلام السننى فى الشمال الإفريقى » •

٦ — « وبهذا نستطيع أن نعد ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري مرحلة هامة من مراحل انتشار الإسلام السننى فى شمال إفريقيا » •

٧ — « ويعد حكم الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السننى فى شمال إفريقيا » •

٨ — « يعد قيام دولة الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السننى فى الشمال الإفريقى » •

٩ — « أما تطور علم الكلام والنزاع الذى شهده التفكير الإسلامى بعد هذا بين الفرق والمدارس المختلفة ، مع ما امتاز به هذا كله من فلسفة وجدل متأثر فى هذا بعلوم الأوائل (علوم اليونان والتيارات الفلسفية اليونانية) فهو وإن كان قد بعد قليلا أو كثيرا عما يمكن أن نسميه بالفلسفة القرآنية إلا أن من الممكن أن نعد مع هذا تطورا للرأى • وامتدادا للإسلام السننى ، وتنشيطا له ، ومظهرا من مظاهر صحة هذا الإسلام السننى » •

ألا ترى معى أيها القارئ الكريم أنك لا تستطيع أن تفهم من الفقرة الأخيرة مما نقلناه هنا ، إلا أن علم الكلام والنزاع بين الفرق

والمدارس المختلفة ممتزجا بعلوم اليونان وفلسفتهم قد بعد عن فلسفة القرآن ، وهو مع ذلك مظهر من مظاهر صحة الإسلام السنى . قد أكون أسأت تلخيص الفقرة السابقة ، ولكنها على أى حال لا تعطى إلا هذا المعنى أو قريبا منه .

أما الفقرة الرابعة مما نقلناه لك فتقرر الإسلام السنى بدأ فى سنة ٤٦ بعد خروج عقبة . فماذا جاء الفاتحون السابقون قبل عقبة ، وفيما ذهبت الدماء ؟ وماذا كانت تصنع الجيوش فى هذه البلاد ؟ وما هو الإسلام الذى جاء به عمرو بن العاص ومن بعده حتى مجىء عقبة ؟ إنك عندما تقرأ الفقرات السابقة بعباراتها الكاملة فى مواضعها من الكتاب تحس أن الذى يكتب ذلك الكلام هو شخص غريب عن الإسلام يتعالى عنه ، ويناقشه كما يناقش أية فكرة بشرية ، ولقد بقى يلعب بما يسميه (الإسلام السنى) فى عشر صفحات من كتابه دون أن تبدو له شخصية إسلامية مرتبطة بالموضوع . ورغم أنه أظهر تعصبا واضحا للمذهب المالكى حتى يكاد يكون الكتاب كله محاولة للدعوة إليه عن طريق الفلسفة ولكنك تحس بنوع من الجفوة الخفية بين الرجل والإسلام وبنوع من الانفصام حتى بينه وبين هذا المذهب الذى يمجده ويكاد يدعو إليه علنا ومظاهر التقرب الى الإسلام عموما والى المذهب المالكى خصوصا لم تفلح فى إخفاء تلك الجفوة أو ذلك البعد وبدت معهما فى صورة متكلفة مصطنعة لكن القلم يكتب عن غير عقيدة صاحبه وفى استطاعتك أن تتأمل العبارة الأخيرة فى الفقرة الأخيرة مما نقلناه لك سابقا (ومظهرا من مظاهر هذا الإسلام السنى) وهى عبارة جافية غليظة كأنما فى الإسلام هذا وذاك وذلك .

إن أى مستشرق معاد للإسلام لا يأمل فى أكثر من أن ينجح فى أن

يَدْخُلُ إِلَى أَذْهَانِ الْمُسْلِمِينَ أَمْثَالُ هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ ، أَوْ أَمْثَالُ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ !
وَأَنَّهُ لِكَسْبِ لَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْمُسْلِمُ عَنِ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مِنْ
الْجَفْوَةِ وَالتَّعَالَى مَسَاوِيَا لَهُ بَأَرَاءَ الْبَشَرِ • وَأَنْ يَعتَبِرَ الْمَذَاهِبَ الْإِسْلَامِيَّةَ
قَدْ ابْتَعَدَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَتَأَثَّرَتْ وَتَطَوَّرَتْ بِمَا عَرَفَتْهُ مِنْ عُلُومِ
(الْأَوَائِلِ) وَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرَ صَالِحٍ وَأَنَّ السَّيِّئَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ
بِمَذَاهِبِهَا الْمُخْتَلَفَةِ قَدْ تَخَلَّتْ عَنْهُ مِنْذُ زَمَانٍ وَأَخَذَتْ بِغَيْرِهِ مِنْ عُلُومِ
(الْأَوَائِلِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ) وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الصُّورَةُ الَّتِي يُعْطِيهَا
الدُّكْتُورُ عَنِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي يُؤَيِّدُهَا بَلْ وَيَتَعَصَّبُ لَهَا فَمَا يَرْجَى مِنْهُ أَنْ يَقُولَ
عَنِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي يُحَاوِلُ هَدْمَهَا :

إِنَّ الْمُسْتَشْرِقِينَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ عَنْ سُوءِ نِيَّةٍ أَمَّا الدُّكْتُورُ فَقَدْ
يَكُونُ فَعَلَ مَا فَعَلَ عَنْ حَسَنِ نِيَّةٍ وَسَلَامَةِ طَوِيَّةٍ •

لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ وَجَدَ الدُّكْتُورُ هُوَيْدَى الْقُدْرَةِ فِي نَفْسِهِ عَلَى أَنْ
يَقْسِمَ الْإِسْلَامَ إِلَى أَقْسَامٍ يَهَاجِمُ بَعْضُهَا وَيَنْصُرُ الْبَعْضُ الْآخَرَ •

الْإِسْلَامُ دِينٌ مُتَكَامِلٌ شَامِلٌ لَا يَنْقَسِمُ تَبَعًا لِلْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالْمَفَاهِيمِ •
وَلَا تَبَعًا لِلْأَشْخَاصِ وَالْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ • وَلَكِنْ آرَاءُ النَّاسِ وَأَعْمَالُهُمْ هِيَ
الَّتِي تَنْقَسِمُ بِالنَّظَرِ إِلَى مُطَابَقَتِهَا لِلْإِسْلَامِ ، وَاسْتِنَادِهَا عَلَيْهِ وَاسْتِمْدَادِهَا
مِنْهُ • وَمَا أَحْسَبُ أَنَّ إِنْسَانًا يَتَّقَى اللَّهَ تَوَاتِيهِ الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ يَقُومَ إِسْلَامُ
سُنَى وَإِسْلَامُ شَيْعَى ، أَوْ إِسْلَامُ سُنَى وَإِسْلَامُ بَدْعَى ، أَوْ إِسْلَامُ شَافِعَى
وَإِسْلَامُ مَالِكَى • وَلَا حَتَّى إِسْلَامُ مُحَمَّدَى نَسَبَةً إِلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ
وَهُوَ الَّذِي جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِذَا صَحَّتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ الْآخِرَةُ
— مَعَ ثِقَلِهَا وَغَرَبَتِهَا — فَإِنَّ غَيْرَهَا لَا يَصِحُّ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ •

ولكن ما الحيلة وأخونا هويدى دكتور فى الفلسفة من باريس ،
غلابد أن ينظر الى الإسلام بالمنظار الذى ينظر به إليه فلاسفة
المستشرقين •

وبعد هذا كله فإن كتاب الدكتور هويدى صورة مشوهة أخذت فى
كتاب « الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ، للمستشرق الفردىبل » •
ولو أتيح لذلك الكتاب أن يسترجع ما أخذ منه لما بقى للدكتور هويدى
إلا أوراق بيض ، ويتخللها قليل من السواد بين غلافين أخضرين يحمالان
عنوان الكتاب ... لقباً علمياً ضخماً لمؤلف ...

عز الدين التنوخى

الأستاذ عز الدين التنوخى • عضو المجمع العربى بدمشق : معروف بجهوده الصادقة فى خدمة الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، وقد اهتم — فيما اهتم به — بتراث الإباضية فى المجالين الشرعى والأدبى ، وقد تحدث عنهم بشئ من الإسهاب — والتفصيل ، ويسرنى أن أضع بين يدى القارئ الكريم مقتطفات مما كتب عنهم •

قال فى مقدمته عن ديوان أبى بكر بن أحمد بن سعيد السقالى الذى قام بطبعه الأديبان سليمان وأحمد ابنا شيخنا الفاضل محمد عبد الله السالى • بالمطبعة العمومية بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م الصفحة ١٠١ • ما يلى :

« ويكفى فى الدلالة على مبلغ جهالتنا بعمان وأهلها ، إن السواد الأعظم من العرب والمسلمين يظنونهم من غلاة الخوارج ، كالأزارقة والنجدات والصفرية • حتى أن ابن خلدون نفسه يقول ما نصه : « والخوارج بها كثيرة ، وكانت لهم حروب مع بنى بويه » • مع أن إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية من الدعايات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولا ، ثم عن التعصب المذهبى ثانيا ، لما ظهر غلاة المذاهب • فقد خلطوا بين الإباضية والأزارقة والصفرية والنجدية فالإباضية لم يجمعهم جامع بالصفرية والأزارقة ومن هنا نحوهم إلا انكار الحكومة بين على ومعاوية •

وأما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد (والحكم بكفرهم كفر شرك) فقد انفرد به الأزارقة والنجدية والصفرية ، وبه استباحوا

حمى المسلمين ، ولما كان مخالفوهم لا يتورعون ولا يكلفون أنفسهم
مؤنة البحث عن الحق ليقفوا عنده حيث خطوا بين الإباضية الذين
لا يستبيحون قطرة دم موحد بالتوحيد الذى معه ، وبين الذين استحلوا
الدماء بالمعصية حتى قتلوا الأطفال تبعا لآبائهم مع أن الفرق كبير جدا بين
المستحل والمحرم فما بعد الحق الا الضلال . ومن جهل علمائنا بعمان
وأهلها وعلومهم وآدابهم أنهم لم يطلعوا على كتبهم الدينية ، ولا على
الفقه الإباضى المبني على الكتاب والسنة ، ولا على مسند الإمام
الربيع بن حبيب ، وسنده ثلاثى عن أبى عبيدة التميمي ، عن جابر بن
زيد عن الصحابة وقد أخذ جابر وأبو عبيدة عن الصحابة ، وجابر بن
زيد من رجال البخارى ومسلم أخذ عن سبعين من الصحابة البدرين ،
وكان من تلامذة حبر الأمة عبد الله بن عباس . وقد طبع هذا المسند
القديم مع شرحه للإمام عبد الله السالمى فى أربعة مجلدات ، طبع
اثنان منها فى مصر والثالث بدمشق . « وبعد حديث عن أسرة السالمى
المجيدة ، وخدمتها للعلم والأدب ، وقيامها على نشر الثروة الثقافية فى
عمان قال الأستاذ التنوخى فى نفس الصفحة : « فمن الجهل بعمان
وأهلها أنه ليس فى كتب تراجمنا كيتيمة الدهر للثعالبي ذكر لشعراء
عمان وبعد أن ذكر الثعالبي شعراء أكثر الأقطار العربية وغيرها ، ذلك
أنهم بجهالة المؤرخين بعمان وأهلها ، أو لتعصبهم السياسى والمذهبى ،
أهملوا الكلام على مذهبهم وثقافتهم . وانتباه العرب فى أيامنا هذه
لعروبتهم ولتاريخهم السياسى والعلمى ولسعيهم لجمع شملهم وإعلان
وحدتهم القومية ، كل ذلك مما يوجب البحث عن هذا للشعب العربى
الصريح بنسبه ، والجيد بحسبه ، ومضرب المثل بفصاحته وشجاعته
العربية ، وجهاده وكفاحه للمستعمرين » . وجاء فى مقدمته على ديوان
النبهاني . صفحة ٣٦ ما يلى :

« وقد نشرت فى دمشق أخيرا بعض هذه الكتب ، كالجـزء الثالث

من شرح مسند الربيع بن حبيب ، وهو أقدم كتب الحديث وأصحها ،
وشارحه العلامة نور الدين السالمى ، وقد خرجت أحاديث المسند وشرحتها
وجلبها فى الصحيحين وسائر الكتب الستة من كتب السنة . مما يدل على
أن مذهب إباضية عمان والمغرب من أقرب المذاهب إلى السنة كما ذكر
ذلك الإمام المبرد فى كامله ، وابن حزم وغيره من المحققين .

وقال فى مقدمته لكتاب « خلاصة الوسائل فى ترتيب المسائل »
ما يلى :

« لقد حذا أئمة عمان حذو ملوك الإسلام من العرب والعجم
فى استفتاء علماء بلادهم فى النوازل الطارئة ، والمشاكل المتعلقة بالدين ،
فكانوا يجيبون عن الأسئلة التى يسألهم عنها عمالهم من الحكام ، بخط
أيديهم ، مما يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى الأحكام ، واعتمادهم
على الكتاب والسنة . وكانوا يحثون عمالهم على مراقبة الله فيما
يصدرونه من أحكام ، مراعين فى ذلك مصالح الرعية ، فإن دين الله يدور
مع المصلحة ، ومعتصمين بالكتاب والسنة . وآثار الصحابة والسلف
الصالح وأقوال الأئمة المجتهدين كذلك كان المتداعون من الرعية .
المختلفون بعمان . يستفتون الأئمة والفقهاء والمتبحرين فى نوازلهم ،
ويثبتون بفتاواهم ما يدعون ، فكان يجتمع لدى الفقيه أو المفتى
أو القاضى مع مرور الزمن كثير من الأجوبة على أسئلة الناس . فتارة
كانوا يجمعون تلك الفتاوى المهمة والأقضية فى كتاب خاص . وتارة
كان يجمعها بعض أولاد المفتين أو تلاميذهم كما فعل الأمير الفاضل
البار السيد صالح بن عيسى بن صالح الحارثى جزاه الله خيرا . فى نشر
فتاوى جده الإمام المحتسب الشهيد صالح بن على الحارثى المجموعة
فى كتاب (عين المصالح فى أجوبة الشيخ صالح) . »

وبعد هذا تحدث عن عدد ممن سلك هذا المسلك من ملوك المغرب وغيرهم ممن جمع فتاوى المفتين (من مختلف المذاهب) وسلكها في كتاب اعتبر مرجعا في تلك النوازل والقضايا ، ثم قال :

« هذا والمطلع على الفتاوى العمانية يجد مصنفها يعتمد بآدى الأمر على كتاب الله ثم على السنة ، وينظر في أشباه وقائعه التي ألفت فيها المجتهدون من السلف الصالح • وإذا ما وجد فتوى لأحد أئمة السنة كالإمام أبى حنيفة والشافعى وأحمد ومالك والأوزاعى تشابه فتواه استشهد بها تأييدا لفتواه ، واستثناسا بأقوال المجتهدين من قبله • ولولا خشية الإسهاب الممل لأتيت بأمثلة من ذلك •

ومن علم أن علماء الإباضية يرجعون في الحديث إلى مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدى التى يروى أحاديثها أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن الصحابة وأكثر أحاديثه فى الصحيحين وأمّهات كتب الحديث — وقد كان الإمام جابر يعد من أكبر تلاميذ حبر الأمة عبد الله بن عباس — وأخذ عن أجلة الصحابة ، ومنهم سبعون بدريا • وقد سأل أحد البصريين عبد الله بن عباس عن شيء فقال له : تسألوننى وفيكم جابر بن زيد • وفى حديث سفيان عن ابن دينار عن عطاء أن ابن عباس قال : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عن كتاب الله عز وجل •

وجاء فى كتاب الجرح والتعديل لابن حاتم السرازى عن ابن خيثمة قال : سمعت يحيى بن معين يقول : أبو الشعثاء جابر ابن زيد • روى عن قتادة أنه بصرى ثقة ، وقد أجمعوا على إمامة (م ١١ — الإباضية)

يحيى بن معين وتوثيقه وحفظه وهو الذى يقول عنه أحمد بن حنبل :
السماع فى يحيى بن معين شفاء لما فى الصدور ، خلقه الله ليظهر
كذب الكذابين • وكل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث • « وقد
أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وخلائق لا يحصون ،
والذى يظهر كذب الكذابين يظهر صدق الصادقين ، كأبى الشعثاء جابر
ابن زيد إمام الإباضية •

ومما قلته فى مقدمة الجزء الثالث فى شرح الجامع الصحيح مسند
الربيع بن حبيب الفراهيدى • ومن أعلم أهل السنة بالإباضية ،
وأعظم من كتب (فى علماء للسنة) الإمام المبرد فى كتاب الكامل فقد
قال ما نصه : (قول ابن إياض أقرب الأقاويل إلى السنة) وقال
الإمام ابن حزم : (أسوأ الخوارج الغلاة ، وأقربهم إلى قول الحق
الإباضية) (ويقول النور السامى شارح المسند فى مقدمة تحفة الأعيان
وهو من علماء عمان الأئمة : « ليس من رأينا بحمد الله الغلو فى
ديننا ، ولا الغشم فى أمرنا ، ولا التعدى على من فارقتنا ... الله
ربنا ، ومحمد نبينا والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا • وبیت الله
الحرام قبلتنا ، والإسلام ديننا »)

لاجرم أن كل من يقول هذا القول • ويعترف هذا الاعتراف ، فهو
من المسلمين الناجين ، وكل من يتهم الإباضى بالزيف والضلال •
فهو ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجاهل ، جمع الله
ما فرقوا ، ورتق ما فتنوا ، ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط
الكافرين •

وقال الأستاذ التنوخى فى مقدمته على شرح الجامع للصحيح مسند
الإمام الربيع بن حبيب ما يلى :

» ومن يمين الطالع عن الحديث أن يكون الربيعان : الربيع بن صبيح والربيع بن حبيب في طليعة ركب الجامعين للحديث والمصنفين فيه .
ومن الأسف ألا ندري شيئاً عن مصير مسند ابن صبيح ، وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات ، من لطف الباريء أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب ، ثم من نعمه على أن وفقني لإعادة نشره مع شرح علاقة عمان عبد الله بن حميد السالمي ، ولما يطلع على المسند وشرحه في علماء مصر والشام والعراق إلا قليل .

الثلاثيات : وقد ذكر أئمة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوتتفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح ، وأن المرتبة العليا ما أطلق عليه بعض رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثية . كـمسند الزهري عن سالم بن عبد الله ابن عمر عن أبيه ، وسند إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود ، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر ، وهو قول البخاري لأن هذه الأسانيد قصيرة السند ، وقريبة الاتصال بالينبوع ، المحمدى ، واشتهر رجالها بقوة الحفظ والضبط وكمال الصدق والصيانة والأمانة ، وذهب الإمام أبو منصور التميمي إلى أن أجل الرواة عن الإمام مالك بن أنس هو الشافعي فأجل الرواة على ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي عن مالك ويسمى هذا المسند سلسلة الذهب .

ويشبه هذه السلاسل الذهبية سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس . ورجال هذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم . وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا إنقطاع وإعصال ، لأن الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال إسنادها ، ولم يسقط في أسانيد الثلاثية أحد .
و (المعضل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالى كقول

مالك : قال رسول الله ﷺ وقول الشافعى قال ابن عمر ، وقد يورد على قولنا هذا أن في مسند الربيع البلاغ والسماع مما يجعل الحديث مرسلا ، ويجب على هذا القول أن رجال هذا المسند إذا نقلوا عن غير مشافهة بينو ذلك بقولهم بلغنى أو بلغنا ، أو سمعت عن فلان أو نحو ذلك مما يبعد بالمسند عن التدليس ، فهم رحمهم الله اجل واتقى من أن يوهموا الناس السماع وليسوا بسامعين ، وبذلك يظهر أن عننة هذا المسند مقطوع باتصالها ، لأن أبا عبيدة أخذ عن جابر ، وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة ، حتى قيل إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة .

ومن مزايا هذه الثلاثيات أو السلاسل الذهبية . سهولة حفظها ، وحافظ المسند الثلاثى الرجال ، إذ روى حديثاً من أحاديث صدره بسنده الثلاثى الذى لا يختلف في جميع أبوابه ، وحفظ الأحاديث الثلاثية أيسر على المستظهر من حفظ سلاسل طويلة كثيرة الحلقات والرجال ، ولأنه سهل على حافظ الثلاثيات معرفة رجالها لقلتهم . والتثبت من أوصافهم بالحفظ والصدق والأمانة ، أكثر مما يعرفه عن رجال سلسلة عديدة الحلقات قد يوجد بينهم من لا يطمئن القلب بصدقه وديانته ، مما يضعف الحديث ويجعله غير مقبول .

ولما زيا هذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات نذكر منها :

ثلاثيات الإمام أحمد بن حنبل المطبوعة أخيراً بدمشق سنة ١٣٨٠ وشرحها في جزأين الإمام محمد السفارينى ، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث .

١٠ ثلاثيات البخارى وهى في صحيحه إثنان وعشرون حديثاً غالبها عن

مكى بن إبراهيم عن حدثه من التابعين وهم من الطبقة الأولى من
شيوخه ، مثل محمد بن عبد الله الأنصارى وأبى عاصم النبيل ، وأبى نعيم ،
وخالد ابن يحيى على بن عباس •

وثلاثيات الدارمى وهى خمسة عشر حديثاً وقعت فى مسنده بسنده
وثلاثيات الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن محمود بن ناجى
وغيرهم • ونضيف اليوم إليها :

ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدى وأحاديثها فى مسنده من أصحابها
رواية وأعلامها سنداً • ورجال سلسلتها الثلاثية هم :

أبو عبيدة التميمى ، وجابر بن زيد الأزدى ، والبحر عبد الله بن
عباس شيخ جابر ، وغيره من الصحابة وهم بأجمعهم مشهورون بالحفظ
والخطب والأمانة والصيانة ، وهذا السند لا يختلف فى جميع أبواب
المسند كما يختلف فى سائر كتب الثلاثيات •

هذا حكم المتصل من أخبار هذا المسند ، و (المنقطع) بإرسال أو
بلاغ فى حكم الصحيح لثبوت وصله من طرق أخرى • وأما (المرسل)
فقد جاء فى التدريب (٦٧) عن ابن جرير قال « أجمع التابعون بأسرهم
على قبول المرسل ولم يأت عنهم إنكارهم ولا عن أحد من الأئمة بعدهم
إلى رأس المائتين • قال ابن عبد البر : كأنه يعنى أن الشافعى أول من
رده •

وقال السخاوى فى فتح المغيث : قال أبو داود فى رسالته : أما
المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بما فيها فيما مضى • مثل سفیان

الثوري • ومالك والأوزاعي ، حتى جاء الشافعي فتكلم في ذلك وتابعه أحمد وغيره » وقل من المشتغلين بالحديث في ديارنا الشامية • وفي مصر والعراق وغيرها ، من له معرفة برجال هذا المسند الثلاثة • وكذلك يحسن بنا أن نعرفهم ولو بإيجاز ، فأول رجال السند هو :

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (المتوفى ١٥٨) وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد ، فروايته عن جابر ، روايه تابعي عن تابعي • وقد روى أبو عبيدة أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبي هريرة ، وابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها • وروايته هذه عنهم موجود بعضها في هذا المسند الصحيح • وهى رواية تابعي عن صحابي •

شيوخه : أخذ أبو عبيدة العلم عن لقيه من الصحابة وعن الجابرين : جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، وعن ضمار السعدي وجعفر السماك وغيرهم •

تلاميذه : وحمل العلم عن أبي عبيدة خلق كثير منهم الربيع بن حبيب الفراهيدي صاحب هذا المسند ، وفيهم (حملة العلم إلى المغرب) وهم : أبو الخطاب المعافري ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتي وإسماعيل ابن درار الغدامسى ، وأبو داود القبلى النفاوى ، وكان الإمام أبو الخطاب المعافري قد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبي عبيدة • وبأمره نصب الإمام عبد الله ابن يحيى الكندى في أرض اليمن ، وجمعت أمارته اليمن والحجاز • وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله اسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام • فقال

له أبو عبيدة : أتريد أن تكون قاضيا مع ابن درار ، قال : رأيت أن
ابتليت بذلك » •

وأما جابر بن زيد الجوفي الأزدي أبو الشعثاء (٩٣ هـ) أصل المذهب
في عمان والمغرب ، وصاحب عبد الله بن عباس ، فقد كان أشهر من
صاحبه وقرأ عليه ، وذكر أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب)
أن ابن عباس قال : أسألو جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب
لوسعهم علمه • وقال إياس ابن معاوية : رأيت البصرة وما فيها مفت
غير جابر بن زيد • وقال الحصين : لما مات جابر بن زيد وبلغ موته
أنس ابن مالك قال : مات أعلم من على ظهر الأرض • ولما مات جابر
ودفن قال قتادة : ادنوني من قبره ، فأدنوه فقال : اليوم مات عالم العرب ،
وعن ابن عباس قال عجا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم
جابر بن زيد لو قصدوه لوسعهم علمه • شيوخه وتلاميذه والذين حمل
عنهم العلم ، أو حملوه عنه : أولهم وأخصهم به عبد الله بن عباس • فقد
أكثر من الحمل عنه وعبد الله بن عمر •

وممن أخذ عنه : قتادة ، وعمرو بن دينار وأيوب وخلق •

وإذا تأمل الإنسان روايات هذا المسند وجده يروى عن كثير من
الصحابة وإذا كان عدد من لقيهم من أهل بدر بلغ سبعين رجلا فما ظنك
بمن لقيهم جابر بن زيد من سائر الصحابة ، وأشهر أصحابه الراوين عنه :
أبو عبيدة ، ومنهم ضمام بن السائب ، وأبو نوح وحيان الأعرج ، وكلهم
من الفقهاء المجتهدين ، وناهيك قوله : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر
فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر • • (ابن عباس • شرح المسند • أما
شارح هذا المسند فمن الحق أن نلّم من ترجمته بما يصور حقيقته

وبيّن منزلته بين العلماء المحققين • فهو الشيخ نور الدين أبو محمد بن حميد بن سلام بن عبيد بن خلفان ابن خميس السالمى الضبى (١٢٨٦ — ١٣٣٢) انتهت إليه رئاسة العلم بعمان وظهر ذلك فى تأليفه الجمة فى مختلف الفنون الشرعية والعربية مع التحقيق فى مسائلها والإجادة من تأليف كتبها ورسائلها •

صفاته : كان رحمه الله ضريرا قوى الذاكرة والذكاء ، شديد اليقظة على تطورات قومه بعمان ، فقد عمل كثيرا على إعادة الإمامة إلى القطر العمانى الذى قلما عرف الملكية قديما إلا فى ظروف شاذة ، كما وقع على عهد بن نبهان فى عصر ابن بطوطة •

ولم يكن يكتفى بميوله وآراءه فى الإمامة عن السلطان فيصل بن تركى سلطان عمان ، ولكنه لم يجد منه انقيادا إلى إعلان الإمامة بدسائس الإنجليز الذين يتحينون الفرص للانقضاض على أقطار الخليج العربى ، ومطامعهم فى جزيرة العرب ، ونفطها ومعادنها لا تحتاج إلى تعريف •

وما زال هذا العالم العامل يعمل على بث الدعاية للإمامة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يخشى فى إعلان الإمامة سطوة غاشم ، حتى بدت للعلماء المساعى البريطانية ، لحمل سلطان مسقط على الاعتراف بالحماية البريطانية • فأسلس العلماء القياد للنور السالمى ، شارح هذا المسند • وأعلنوا الإمامة بمبايعة الإمام التقي العلامة (سالم بن راشد الخروصى) وبذلك نهض المترجم له ببلاده وأقصى عنها خطر الاستعمار ، وما فى عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه ، ولا فيهم من روح قوميته مقاومة للمستعمرين إلا منه ، فهو مضرم نارها وملهب أورها ، وأن الإنسان ليعجب كيف استطاع أن يؤلف تلك المكتبة فى عمره القصير وهو لم يبلغ الخمسين •

فهو في قصر عمره وكثرة كتبه نظير شيخنا الجمال القاسمي بدمشق
رحمهما الله •

ومن تلك الكتب :

١ — تحفة الأعيان في تاريخ عمان جزءان طبع أولهما في مصر •

٢ — الحجيج المقنعة في أحكام صلاة الجمعة ، طبع بهامش شرح
شرح طلعة الشمس في أصول الفقه •

٣ — شرح المسند الصحيح للإمام الربيع بن حبيب الفراهيدي من
أئمة القرن الثاني في أربعة أجزاء طبع الأول منها بمطبعة الأزهار البارونية
والثالث بالمطبعة العمومية بدمشق في هذه السنة •

٤ — سواطع البرهان : رسالة في تطورات العصر في اللباس جواب
سؤال بعض أهل زنجبار •

٥ — مدارج الكمال : أرجوزة في الفروع الفقهية تنيف عن ألفي
بيت وهو نظم مختصر الخصال للإمام أبي إسحاق الحضرمي — مطبوعة •

٦ — معارج الآمال : شرح لهذه الأرجوزة وهي تنبئ عن غزارة
علمه ورسوخة في علم الشريعة ، قيل إنه يبلغ ستة عشر جزءاً •

٧ — غاية المراد ، أحد متون أصول الكلام •

٨ — مشارق أنوار العقول ، شرح أرجوزته في أصول الدين شرحها
شرحاً وافياً عد بها من أحسن كتب الأصول تحقيقاً وتحريراً وتنسيقاً طبع
مصر •

٩ — أنوار العقول ، أرجوزة في أصول الدين تزيد على ٣٠٠ بيت •

١٠ — بهجة الأنوار : شرح أنوار العقول طبع بهامش طلعة

الشمس •

١١ — طلعة الشمس : ألفه في أصول الفقه جدير بأن يعد من أنفـس

كتب الأصول •

١٢ — جوهر النظام : أرجوزة في الأديان والأحكام الشرعية والحكم

وهي في بضع عشر ألف بيت مطبوعة •

١٣ — بلوغ الأمل : أرجوزة في أحكام الجمل الثلاث في الإعراب

نفيسة جدا •

١٤ — الفتاوى العمانية : في سبعة أجزاء منها كتاب حل المشكلات •

١٥ — رسالة تلقين الصبيان لمدارس عمان وقد طبعت بدمشق

بالمطبعة العمومية هذه السنة بإشرافنا وهي رسالة مفيدة للصبيان والرجال

• معا •

١٦ — المنيل الصافي في العروض والقوافي أرجوزة تزيد على ٣٠٠

بيت •

وإذا أطلع المنصف على هذا الشرح ، وجد الشارح واسع الاطلاع ،

وألفى شرحه واضحا مبينا ، وتعابيره صحيحه فصيحة ، أسلوبها المساواة •

فلا هي مهروبة عملة ولا مفرطة الإيجاز مخلة — وأما أبحاثها فيها فإنها تدل

على اعتدال في التحقيق وبعد عن التعصب ، فكثيرا ما ينقل عن العلماء

المخالفين كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة • ويستشهد بأحاديث

الشيخين وأئمة الحديث كأبى داود الترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى والطبرانى والبيهقى وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، مما يدل على أن الإباضية فى المشرق والمغرب مذهب قريب من مذاهب السنة .

والناظر فى شرح النور السالى عالم عمان ، يمتلىء طمأنينة بما ذكرته ، وقلما رأينا من رجال المذاهب غير السنية من يستشهد برجال الحديث والفقهاء من أهل السنة هذا الاستشهاد فقد ورد (١) .

وما آثرت تفريخ أخاديت المسند والشرح — ولا سيما ما رواه الشيخان — إلا لتطمئن قلوب إخوانى أبناء السنة بأن مسند الربيع الذى بنى عليه المذهب الإباضى هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء فى الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخارى وغيره ، لكى لا يقع فيما وقع فيه خصوم الإباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدية والصفرية المانعين لموارثة ومناكحة مخالفهم .

ومن أعلم أهل السنة بالإباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الإمام المبرد فى كتابه الكامل فقد قال ما نصه : « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » .

وقال ابن حزم : « أسوأ الخوارج حالا الغلاة وأقربهم الى قول أهل الحق الإباضية » وابن إباض هو عبد الله بن إباض المرى التميمى الذى عاصر معاوية وعده الشماخى فى السير من التابعين ، وكان من أتباع

(١) والعكس صحيح أى أن رجال المذاهب الأربعة قلما يستشهدون بأقوال غيرهم إلا فى مقام التشنيع أو النقد أو الرد .

الإمام جابر بن زيد مؤسس المذهب الإباضى ، ولو نسب المذهب الإباضى الى جابر بن زيد تلميذ ابن عباس ، كان فى رأى أصح علما ، واصدق نسباً .

واليك ما يقوله الشارح المعتدل المنصف فى مقدمة (تحفة الأعيان) « وتدعو الى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاته أهله ، فمن عرف الحق وأقر به توليناه ، وخرمنا دمه ، ومن أنكر حق الله منهم ، واستحب العمى على الهدى ، وفارق المسلمين ، وعاندهم ، فارقناه وقاثناه حتى يفىء الى أمر الله ، أو يهلك على ضلالته من غير أن تنزلهم منازل عبدة الأوثان ، فلا تستحل سبائهم ، ولا قتل ذراريهم ، ولا غنيمة أموالهم ، ولا قطع الميراث منهم (كعالة الخوارج) ولا نرى الفتك بقومنا ، ولا قتلهم فى السر وإن كانوا ضاللا ، لأن الله لم يأمر به فى كتابه ، ولم يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين ، فكيف نفعله نحن بأهل القبلة ، ونرى أن مناكحة قومنا ، وموارثتهم لا تحرم علينا ، ما داموا يستقبلوا قبلتنا ، ولا نرى أن نقذف أحدا ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم أنه فعله ، خلافا (للخوارج) الذين يستحلون قذف من يعملون أنه برىء من الزنا من قومهم ، وهم بذلك مضلون » . فالإباضية اليوم فى عمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين ، والتمسكين بالكتاب والسنة . وقال النور السالى أيضا « ليس من رأينا — بحمد الله — الغلو فى ديننا ، ولا الغشم فى أمرنا ، ولا التعدى على من فارقنا .. الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا : والسنة طريقتنا ، وبيت الله الحرام قبلتنا ، والإسلام ديننا » ولذلك يحرم على المسلم اتهام أخيه المسلم فى دينه بعد هذا الاعتراف فيكون من المتأئين ، الذين يسارعون فى تكفير المسلمين وهم الذين عناهم النبى ﷺ فى قوله : (ويل للمتأئين من أمتى) أى الذين يحكمون على الله بقولهم فلان فى الجنة وفلان فى النار .

ويفهم من شرح هذا المسند أن الشارح من المتمسكين بالحديث الصحيح ، وأرباب العقل الراجح ، والمعظمين لرسول الله ﷺ وأقواله ، والمهتدين بسنته وأفعاله ، فهو في شرحه لهذا المسند يمحص أقوال العلماء ، ويختار على أقوال أهل المذهب ما صح من حديث الرسول ﷺ فليس هو ممن يرى (العمل على الفقه لا على الحديث) قال شارح (الصراط المستقيم) : « إذا وجد تابع المجتهد حديثا صحيحا مخالفا لمذهبه هل له أن يعمل به ويترك مذهبه ؟ فيه اختلاف ، فعند المتقدمين له ذلك • قالوا : لأن المتبرع والمقتدى به هو النبي ﷺ ، ومن سواه فهو تابع له فبعد أن علم وصح قوله ﷺ فالمتابعة لغيره غير معقولة » •

قلت ولذلك لا يجوز التعصب للمذاهب تعصبا يستهتر به بحديث الرسول ﷺ فإن ذلك من الفسق ، والبعد عن الدين ، والخروج على سيرة الصحابة والتابعين •

ومن هؤلاء الجاحدين المتعصبين كما يقول بعض الأئمة — من إذا مر عليه حديث يوافق قول من قلده انبسطوا ، وإذا مر عليهم حديث يخالف قوله ، أو يوافق مذهب غيره ، ربما انقبضوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

هذا وما كان أهل عمان أقرب فرق الخوارج الى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما اطلعت عليه مبنى على السنة ، وتقديم العمل على الحديث لا على الفقه • والمذهب عملا بما جرى عليه إمامهم جابر بن زيد الذي عمل بنصيحة شيخه عبد الله بن عمر الذي روى عنه لقد جاء في (الحجة البالغة) أن ابن عمر رضى الله عنه قال لجابر بن زيد « إنك من فقهاء

البصرة ، فلا تفت إلا بقرآن ناطق ، أو سنة ماضية غاينك إن فعلت غير ذلك هلك وأهلك » •

ولذلك نعتقد ونقول : إن المعتول ، ومن القلب المقبول ، ألا نهتدي إلا بقوله تعالى : « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » •

مع إبراهيم عبد الباقي

من قرأ كتاب الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي (الدين والعلم الحديث) يبدو له واضحاً أن الأستاذ إبراهيم كاتب نزيه حريص على وحدة الأمة المسلمة ، يحارب بقوة كل ما يحرك الفتن ، ويسبب الفرقة ، كما يحارب بقوة وبصيرة تلك البدع المنكرة التي انحرفت بسلوك المسلمين ، وضللت عقائد البسطاء منهم ، وربما أزاغتهم أحياناً عن معنى التوحيد الخالص .

وقد تحدث عن الإباضية في كتابه القيم ، ويسرنى أن أضع بين يدي القارئ الكريم ما قاله الأستاذ إبراهيم عبد الباقي ص ٢٥٢ من كتابه الدين والعلم الحديث :

(طرف من عقائد الخوارج)

« لقد شاع في المسلمين أن جميع الخوارج غير مسلمين ، ولكن الناقد البصير لا يصح أن يجرد البعض من الإسلام ، لأنهم في خروجهم على مذهب لهم فيه تأويل ، ومنهم عبادة وزهاد ملأوا الكتب بورعهم وتقواهم ، هذا ولما كان الوقت شحيحاً يضمن على بالبحث عنهم والتنقيب اتصلت بمن له خبرة بهم ، وهو زعيم طائفة منهم تسمى الإباضية » .

هذا الزعيم يسمى أبو إسحاق إبراهيم طفيش موظف بدار الكتب المصرية فكفاني مؤنة البحث ، وكتب الكلمة الآتية » .

بعد هذه المقدمة البسيطة نقل الأستاذ إبراهيم الفصل الذي كتبه له

الإمام أبو إسحاق طيفيش عن الخوارج وسوف نجده ضمن فصول هذا الكتاب تحت عنوان (نبذة عن الخوارج) •

وبعد هذا الفصل قال الأستاذ إبراهيم عبد الباقي ما يلي :

يريد الأستاذ — أى أبو إسحاق — بالمذاهب المتعنة أن كل طائفة متشبثة بمذهبها ، ولو كان الحق مع مذهب غيرها ، وهذه آفة القديم والحديث ، إذ أن الحق أحق أن يتبع ، والمنصف يسير مع الحق حيث سارت ركائبه ، وكان عمر رضى الله عنه ينظر فى الحكم فإن كان فى كتاب الله قضى به ، وإن لم يكن فى كتاب الله نظر فى السنة فإن لم يجده فى السنة جمع رجال الدين ، فإذا اجتمع رأيهم على شئ قضى به •

أما الآن فقد خالف الناس ، واتبعوا المذاهب وإن كان ذلك مخالفا للسنة هذا وقد أخبرنى الأستاذ أبو إسحاق بأن مذهب الإباضية أكثر انتشارا فى جنوب الجزائر فى (وادى ميزاب) وفى تونس (فى جزيرة جربة) وفى ليبيا فى (جبل نفوسة) وفى (زنجبار وعمان) باليمن حيث يوجد نظام الإمامة المطابقة فى بيعتها لبيعة الخلفاء الراشدين « (١) •

بعد هذا التعليق البسيط ينقل الأستاذ إبراهيم عبد الباقي مقتطفات من مقال للأستاذ مصطفى الشكعة سوف ننقله لك ضمن فصول هذا

(١) آخربيعة فى هذا النمط باجماع الامة كانت سنة ١٣٣٨ هـ للإمام أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخليلي وقد سار بالإمامة على منهج العدول فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ولما توفى اجتمع أهل الحل والعقد سنة ١٩٤٥ م. على بيعة الامام غالب بن على ولكن مكائدات الاستعمار الانجليزى ادخلت اصابعها الى عمان ففوضت أركان الإمامة ، وأخرجت الامام من عمان .

الكتاب ، وبعد أن انتهى الأستاذ إبراهيم من الاستشهاد بمقال
أبي إسحاق والشكعة قال :

وقد تصفحت من كتبهم ما يأتي :

أولا : جرهر النظام في علمي الأديان والأحكام للإمام نور الدين
أبي محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى العمانى رحمه الله وله
تعليق عليه ، ولد سنة ١٢٨٦ هـ وتوفى سنة ١٣٣٢ هـ •

ثانيا : شامل الأصل وانزع لحمد بن يوسف أطفيش •

ثالثا : جامع أركان الإسلام للشيخ العلامة سيف بن ناصر بن
سليمان الخروصى طبع أول مرة بمطبعة الآداب سنة ١٣٣١ هـ •

رابعا : مشارق أنوار العقول • طبعة السيد حمودة بن محمد بن
سعد سلطان زنجبار بمطبعة المحروسة سنة ١٣١٤ هـ •

خامسا : الوضع المختصر في الأصول والفقه تأليف الإمام ابن
زكرياء يحيى بن أبي الخير الجناونى رحمه الله تعالى نشره وعلق عليه
الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم طفيش طبع بمطبعة الفجالة الجديدة •

وقد استنتجت من هذه الكتب ما يأتي :

أولا : التنزيه المطلق لله تعالى ، ويوجبون تأويل المتشابه بما يليق
بجلال الله تعالى كاليد تزول بالقوة وتارة بالنعمة ، فمذهبهم مذهب
الخلف في المحكم والمتشابه •

(م ١٢ — الاباضية)

ثانيا : لا يرون رؤية الله تعالى في الدنيا ولا في الآخرة ، وهذا من كمال الله تعالى ، لأن الرؤية تستدعى مشابهة الله لخلقه ، وكذلك يستدلون بالآية الشريفة : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) •

وما جاء في السنة لا يعارض القرآن الكريم ، لأنه خبر الآحاد ، وخبر الآحاد لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يصح دليلا على صحة العقائد ، ويفسرون الحجب في الآية (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) بأنه غير الرؤية •

ثالثا : يرون أن صفات الله تعالى ذاتية ليست قائمة بمعان قائمة بذاته •

رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامي ، كإنكار ما علم من الدين بالضرورة ، كأن ينكر إنسان صفة من صفات الله تعالى أو نبيا من الأنبياء أو حرفا من القرآن الكريم •

خامسا : يرون أن القراءات السبع متواترة •

سادسا : يعرفون المذهب الاجتهادي بقولهم : المذهب هو ما استبان به لكل فرقة عن الأخرى في الفروع التي لا تأثيم فيها ، فحصرية الرأي وحرية المذهب مكفولة ، وأن الخلافة لا تكون إلا من أهل الحل والعقد •

سابعاً : أن مرتكب الكبيرة عندهم ليس مشركاً ، وأن أهل الجنة خالدون فيها ، وأهل النار خالدون كذلك ، فهم يخالفوننا في عقيدتنا ، وهو أن العاصي من المؤمنين يدخل النار حتى يظهر من معصيته ، لأن المعاصي رجس ، والجنة طاهرة فلا يدخلها إلا الطاهرون •

ثامناً : يخالفوننا في بعض فروع الفقه ، مثل رفع اليدين عند التكبيرات في الصلاة ، ومثل وجوب سجدة التلاوة حين سماع الآية ، وغير ذلك من المسائل التي لم تكن موضع إجماع •

مع الأستاذين • التنوخى وإبراهيم عبد الباقي

لقد عرضت عليك أيها القارئ الكريم ما كتبه كل من الأستاذين الفاضلين : عز الدين التنوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقي عن الإباضية ، ونقلته لك بنصه ، وذكرت أيضا أن هذا المنهج الذى سارا عليه هو المنهج السليم الذى يجب أن يسلكه من يريد أن يكتب عن أى فرقة • وذلك بأن يتصف بالنزاهة والتجرد ، وأن يتحلى بالصدق والأمانة ، وأن يعتمد — فى تقرير آراء وعقائد أى طائفة ونسبتها إليها — على كتبها ومراجعها وعلمائها لا على ما يكتبه عنها غيرها • لأن ذلك الغير فى أغلب الأحوال يقف منها موقف الخصوم •

ومن هذه الأسس يستطيع الكاتب أن يعرض الحقيقة ، حقيقة ما يعتقد أصحاب الفرق ويقولونه ، ويدينون به دون تحريف أو تدليس أو غموض أو إيهام مقصود •

وقد سلك الأستاذان التنوخى وإبراهيم هذا المسلك السليم وهما يكتبان عن الإباضية • فرجعا إلى مصادر الإباضية • وبذلك جاءت كتابتهما سليمة من السفساف والأباطيل التى تجدها عند كثير من كتاب المقالات الأقدمين منهم والمحدثين • كما جاءت كتابتهما سليمة — أيضا — من الفراغ والخواء الذى تحسه وأنت تقرأ لبعض الكتاب المقلدين الذين يعتمدون على ما يجدونه دون فهم أو تمحيص أو بحث عن الدوافع والبواعث اكتفاء بإسناد ما يقولونه إلى مصادر تاريخية تاريخية أضفى عليها القدم ثوب القداسة ، ليتخلصوا من مسئولية إعلان كلمة الحق •

وبالرجوع إلى ما كتبه الأستاذان الفاضلان ونسباه إلى الإباضية مما سبق عرضه على القارئ الكريم يبدو أنه لا يوجد شيء عندهما يحتاج إلى مزيد من النقاش والبحث غير نقطة واحدة جانبية . تلك النقطة هي انسياقهما وراء التيار التاريخي الجارف الذي يصر على اعتبار الإباضية فرقة من فرق الخوارج .



ونحن لا نلومهما — في موقفهما هذا — ولا نعتب عليهما ، فقد استطاع التدليس التاريخي أن يصنع هذه الدعوى الكاذبة بثوب الحقيقة حتى انطلت على بعض الإباضية أنفسهم في القديم وفي الحديث .

بل لقد حدثني بعض الشباب عن تخصص في التاريخ بأنه يفترض بذلك ويعتز ، لأنه يفهم أحداث ذلك العصر ويفسرهما بروح هذا العصر . فكان يعتبر الخوارج طلائع ثورية ، يمثلون الدور الثوري على الظلم والفساد والرشوة ، وهو بهذا الفهم يعتز بأن يكون خارجياً أو ينتمي إلى فرقة خارجية ، بمعنى أنه ينتمي إلى فكرة ثورية تحمل في مسيرتها التاريخية نضالاً ضد فساد الحكم لا يهدأ ولا يستقر .

وهذه الصورة الثورية التي يعجب بها هذا الشاب وزملاؤه وإضرابه من الشباب الذي أثارت نقمتهم الأوضاع الفاسدة في أنظمة حكم فاسد جثم على صدر الأمة بكلكلة الثقيل ، ثم محاولة التخلص منه .

هذه الصورة ليست فكرة مقصورة على الخوارج أو على الإباضية أو على فرقة معينة من فرق المسلمين .

إن الثورة على الظلم والفساد والرشوة وما يتبع ذلك من البلاء

والمحن ، إنما هو المنهج الذى جاء به الإسلام ، ودعا إليه المسلمين ، ودعا المسلمون إليه • وقاموا به فى مختلف أدوار التاريخ ، ولم تسكت الألسنة الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر ، ولم تكف الأيدى النائرة فى أى فترة من فترات الحكم المنحرف •

ولم يمض حاكم ظالم دون أن تناله صفعات مؤلمات من النافرين فى الأمة المسلمة من جميع الفرق والمذاهب ، حتى من أتباع الأئمة الذين ينهون عن استعمال العنف ، ويحذرون من الفتنة ، ويفضلون استبداد الحاكم على شق عصا الطاعة ، وأحداث الخلاف والتسبب فى إراقة الدماء • ويتغاضون عن الدماء التى تريقها أيدى الحكام الظلمة ولكنهم لا يسكتون عن الدماء التى تريقها النعمة ضد أولئك الحكام •

تستطيع أن تبدأ ملاحظة ذلك من أول العهد التى بدأ فيها الحكام ينحرفون عن نظام الخلافة الرشيدة إلى ملكية مستبدة ، أو كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم « ملك عضوض » ولو أن أولئك الملوك لم يسموا أنفسهم ملوكا ، وحافظوا على مظهر التسمية فكانوا حراسا — على مجرى التاريخ — أن يدعواهم الناس بأمراء المؤمنين أو أئمة المسلمين •

والإباضية مثل غيرهم من المسلمين فى هذا المجال • كانوا من أشد من ينتقد تصرف المنحرفين ، ويطالب ولاية الأمور أن يتقيدوا بأحكام الإسلام ، وأن يقتدوا بالخلفاء الراشدين الذين أرضوا الله تبارك وتعالى وأرضوا الأمة فرضيت عنهم •

ويتضح لأولئك الإخوة الشباب من هذا انتقاد الإباضية للتحكم

الظالم ، ومحاولتهم الإطاحة به في بعض الأحيان • وعلمهم على إيجاد دولة ، تطبق أحكام الإسلام ، وتنتقيد بها ، وتشددهم في مجابهة العدوان ، ومعارضته بقوة وعنف !

كل هذا لا يلحقهم بالذوارج ، ولا يجمعهم معهم في صعيد واحد ، ولا يجعلهم فرقة منهم •

وفي المسلمين — بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وآرائهم ، ولا سيما في عهد الدولة الأموية حينما كان انتقال الحكم من خلافة رشيدة الى ملك عضوض ، قد سبب فجوة عميقة ، أو هوة خشي المسلمون أن يتردوا فيها ثم يعسر عليهم الخروج منها — أمثلة حية واضحة لكثير من التابعين وتابعي التابعين ، بل ومن بقية الصحابة رضوان الله عليهم • فقد كانوا من أقوى الثائرين على الفساد الذي بدأ بانحراف الحكم عن الخلافة الرشيدة إلى ملك عضوض يتقاتل عليه أصحاب الدنيا • وقد استشهد في هذا السبيل عدد من أفذاذ الرجال ، ومع ذلك لم يسموا أنفسهم خوارج ، ولم يعتروا بذلك الاسم ، ولم يشرفهم أحد في أتباعهم والمعجبين بهم بهذا الاسم ، أو يطلق عليهم هذا اللقب •

ويكفى أن أذكر الأمثلة لأولئك الثائرين على الانحراف والفساد شهيد كربلاء الإمام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن الزبير نجل ذات النطاقين ، وسعيد بن جبير وزيد بن علي ابن الحسين • وكل واحد من هؤلاء يمثل ثورة عارضة من الأمة المسلمة على الحكم الظالم ، والخروج عليه ، ومدافعة حتى الاستشهاد •

وإذا شاء القارئ الكريم أن يضيف إلى هذه القائمة أسماء الثوار الشهداء الذين سالت دماؤهم على سيف الحكم المستبد ، والذين نجحوا في ثوراتهم أو فشلوا فإنه يستطيع أن يملأ المجلدات الضخمة بما جرى من ذلك عبر التاريخ • ويأخذ الإباضية أو بعض الإباضية حيزهم الضيق أو الواسع في تلك المجلدات ، ولا يمكن أن يخلو منهم مجلد •

ومن البديهي أن أولئك الثوار ابتداء من سيد الشهداء الإمام الحسين ومن سار على نهجهم في مختلف العصور — لم يحملهم التطرف ، والسخط على فساد الحكم ، إلى مخالفة أحكام الإسلام ، فيستحلون من الناس ما حرمه الإسلام ، وعصمت كلمة التوحيد من دماء وأموال وأعراض •

هذه النقطة بالذات — وهى التطرف فى السخط حتى تستحل به الدماء البريئة ، والأموال المعصومة ، والأعراض المحصنة بحكم الله — هى الفارق الوحيد بين الثورية والخارجية • إذا سمحنا لأنفسنا فاستعملنا كلمة الثورية — بمدلولها المعاصر — على أحداث التاريخ فى تلك العصور •

فإن عبد الله بن الزبير — مثلاً — كان قد ثار على الحكم الأموى المنحرف وكان الحكم قائماً عندما ثار ابن الزبير فخرج عن الطاعة كما تعبر السنة الأنظمة الحاكمة فى كل عصر وكل عهد ولكنه مع خروجه على حكم الدولة القائمة ، لم يعتبر خارجياً ، ولم يسم نفسه بهذا الاسم ، ولم يسمه اتباعه بذلك ، ولم يتجرأ أحد من خصومه أن

يصفه بذلك في ذلك الحين • فلماذا لم يكن ذلك يا ترى ؟ ذلك أن اطّاق لفظة الخوارج إنما كانت تعنى من يخرج على نظام قائم فلا يكتفى بمحاربة النظام القائم — سواء كان عادلا أو جائرا — وإنما يضيف الى ذلك أن تستحل دماء وأموال ، وحرّمات من يخالفه ، ويحكم عليهم بأحكام المشركين ، ويطبقها عليهم ما تمكن من ذلك • ولم تكن هذه الآراء ولا هذه السيرة لعبد الله بن الزبير مثلا ولذلك فنحن قد نستطيع أن نعهده في مركب الثائرين ، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نعهده من الخوارج ، لأنه — ببساطة — لم يكن يدين بدين الخوارج فلم يكن يحكم على غيره من المسلمين بالشرك ولم يكن يستحل منهم : لا الأموال ولا سبى النساء والأطفال ، ولا دماء من لم يعترض سبيله ويرفع في وجهه السلاح • وإنما كان يرى أن المسلمين جميعا أخوة له ، فهو يقتصر في ثورته على محاربة الحكم الظالم ، والجيش الباطش ، ومن يسـمى الى تثبيت أركان الظلم •

ونفس الموقف نستطيع أن نعطيه لبقية الثائرين في أدوار التاريخ الإسلامى الطويل وفي عهود الفساد والظلم • فلم يتلقب أحد منهم بذلك ، ولم يلقبهم به أحد من الناس ، لهذا الفارق الوحيد فحسب • ويدخل في هذا الجانب حتى أولئك الذين خرجوا على الحكم وثاروا عليه ولم يكن قصدهم الحقيقى هو إزاحة الظلم ولكن الوصول الى الحكم ما لم يدينوا بذلك المبدأ الذى يضع المسلمين في صفوف المشركين ويبيح منهم ما حفّله الله لهم بكلمة الشهادة •

إن الثورة على الظلم والظالمين ومحاربة الفساد في أنظمة الحكم ، أهم واجبات المسلم ، وقد كان ذلك هو المبدأ الذى سار عايه أئمة

المسلمين مع اختلاف فى الطرق والمناهج ، فمنهم من يكتفى بالثورة اللسانية ، ومنهم من يمد يده الى السيف من أول حركة ، ومنهم من يجمع بين الاثنين ، ومنهم يتخذ موقفا غير مباشر فى مكافحة الظالمين وذلك بنقد الظلم والفساد عامة دون التعرض لمن يتصف بذلك •

وقد يستفحل الاستبداد فيقيد الأيدى ، ويكتم الأفواه ، وتبقى الثورة حبسية فى الصدور حتى تنفجر فى يوم من الأيام فتطيح بالظلم والظالمين • ولو طال بهم المدى •

والخوارج حين ثاروا على ما اعتقدوه ظلما ، ورأوه انحرافا بالحكم عن المنهج الإسلامى الثورى الى منهج دكتاتورى مستبد ، لم يقصروا الثورة على أجهزة الحكم الفاسد فقط — ولو فى نظرهم — وإنما تجاوزوا ذلك الى أن حكموا على غيرهم من المسلمين بأحكام المشركين ، واستباحوا منهم ما أباحه الله من الكفار • وبذلك انتقلوا من وصف الثورية الى وصف الخارجية الذى يعنى الخروج من الدين • أى من مجموعة كانت تطالب بحق تؤيدهم فيه كل الأمة — ولو بقلوبها حتى أولئك الذين لم يشتركوا فى أية ثورة قط لا باليد ولا باللسان — الى فرقة قد انفصلت عن الأمة المسلمة انفصالا دينيا كاملا ، بحيث حكمت على الأمة المسلمة بأحكام المشركين (١) لأنها فى نظرهم قد كفرت : إما بكونها مع الظالمين ، وإما برضاؤها وبقائها تحت حكمهم •

(١) يجب أن اذكر هنا أننى لم اتمكن من الحصول على أى مصدر من مصادر الخوارج حتى اعرف حقيقة ما عندهم من كتبهم وأن ما اسندته اليهم

وقد كان رد الفعل لهذا الموقف من الأمة المسلمة أن حكمت الأمة على هذه الثورية المنحرفة المتطرفة بنفس الحكم ، وبإدلتها نفس الموقف وأطلقت عليها لفظ الخارجية والخوارج وهي تنقصد بذلك خروج من يدين بذلك من الدين بسبب الحكم على المسلمين بالشرك ومعاملتهم معاملة المشركين . وهكذا بعدت بينهم المسافة ، واتسعت الشقة . فالخوارج يرون أن الحكام الظالمين ومن أعانهم على حكمهم ومن سكت عنه أو رضى به وبقي تحت سلطانهم كل هؤلاء قد كفروا وتحل دماءهم وأموالهم وسبى نسائهم وأطفالهم . والآخرون يرون أن الخوارج كفروا لأنهم كفروا المسلمين .

بعد هذا الحديث أريد أن أوجه الى القارئ الكريم السؤال الآتى :
حتى أو لم يعتبر الفرد أو الطائفة من الخوارج ؟

أحسب أن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تحدد الموقف بالنسبة للإباضية ، وتضعهم فى مكانهم الطبيعى فى المذاهب الإسلامية .

لقد أوضحنا فيما سبق أن الثورة على أى حكم والخروج عليه لا يكفى سببا لأن يضع صاحبه أو أصحابه فى قائمة الخوارج ثم يسلط عليه

فى هذا الفصل وفى غيره من الفصول وفى كتبى السابقة انما اخذته من مصادر غيرهم التى كتبت عنهم وهى فى أغلبها تقف منهم موقف الخصوم بها فيها كتب الإباضية فان كان ما نسب اليهم حقا فنحن مسئولون عن دراستنا وآرائنا وان كان ما ينسب اليهم باطلا من القول نالعهدة على الرواة من كتاب التاريخ والمقاتلات واننى استغفر الله وأتوب اليه .

الحكم الذى سلطه التاريخ على الخوارج والأحكام التى سلطها الخوارج على غيرهم • فقد خرج أهل الأمصار على عثمان — وهو خليفة راشد — ولم يسمهم أحد حينئذ خوارج ، وخرج طلحة والزبير وعائشة على على — وهو خليفة راشد — ولم يسمهم أحد خوارج ، وخرج معاوية على أمير المؤمنين على — وهو خليفة راشد — ولم يصفه أحد بالخارجية • وثار الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير وزيد بن على ويحيى بن زيد على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج • بل إن زعماء الدولة العباسية أنفسهم كانوا قد خرجوا على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج ، بل ونقض الأميين بيعه المأمون وخرج عليه المأمون ولم يطلق اسم الخوارج على أى منها •

ومعنى هذا أن الخروج على نظام الحكم القائم والثورة عليه — سواء كان الحكم عادلا ونظيفا كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين ، أو كان ملكا عضوضا كما كان فى عهد الدولة الأموية وما بعدها وما كان يقرم به عمالها أمثال الحجاج وزيد وعبيد الله بن زياد وأضرابهم — فإنه لا يكفى لأن يعتبر الفائزون عليه خوارج لمجرد ثورتهم على الحكم وخرجتهم عنه • إن الخروج عن الحكم الظالم ، والثورة عليه • ومحاولة الإطاحة بأجوزته الفاسدة هو من أوكد الواجبات على الأمة المسلمة إذا لم تخش شرا أكبر ، ومن قام بذلك الواجب لا يمكن أن يعتبر خارجيا ، ولا يجوز أن يوصف بالخارجية إلا إذا تطرف فتعدى ذلك الى الحكم على المسلمين بأحكام المشركين ، فاستباح منهم الدماء والأموال ، واستحل سبى النساء والأطفال ، وتلك هى معانى الخارجية فى أية ثورة أو حركة مسلحة •

وواضح أنها خارجية عن الإسلام لا عن حكم قائم لدولة قد تكون باغية تتحكم في رقاب أمة مسلمة كريمة وصفها الله تبارك وتعالى بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتذللها وقد تنفذ فيها عمليا فظائع من السلوك لم تخطر على بال الخوارج حتى وهم في أشد حالات الحق والغيظ ، وإذا كان هذا واضحا وصحيحا وواقعا فما هي العلاقة أو الرابطة بين الإباضية والخوارج ؟

إن الإباضية من احرص المؤمنين على التقيد بما ثبت في النصوص الشرعية من أحكام المسلمين وهم يعتقدون أن كل من نطق بكلمة الشهادة فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم فلا يستحلون دماء أحد من أهل القبلة إلا بالحق بينته وحددته الشريعة الإسلامية كالردة وقتل النفس وما في معناها من الحدود •

ولا يستحلون مال أحد إلا بالطرق التي رسمتها الشريعة الإسلامية للتعامل بين الناس : فريضة في كتاب الله ، هبة عن تراض ، بيع عن تراض وما في معناها • أما قتل الأبرياء وسبى الأطفال والنساء فقد وقفت دونها كلمة التوحيد ، وصانها عن هذه المذلة والهوان • ولا يستحلون هذا حتى من البغاة والمعتدين مهما بالغوا في مسلكتهم الظالم •

فلا اعتبارات التي سمى الخوارج — من أجلها — خوارج لا وجود لها عند الإباضية مطلقا • بل إنهم أبعد الناس عنها عقيدة وقولا وعملا وجميع كتاب المقالات — رغم إصرارهم على إن الإباضية من الخوارج — يشهدون بذلك ويسجلونه في كتبهم •

لو كانت الخارجية نسباً أو صحراً أو حتى صداقة يزعم أن للإباضية

بهذا النسب وشيعة أو قرابة ويزعم أن لهم فيها عما أو خلا أو صديقا • ولكن القضية ليست كذلك • القضية قضية عقائد معينة محددة ينبنى عليها سلوك تنتج عنه آثار • فمن أين جاءت الخارجية الى الإباضية ولماذا يصر مؤرخو الفرق الإسلامية وكتاب المقالات الدينية على هذا الموقف ؟ يقول الأستاذ مصطفى الشكعة « إنهم رموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشية ، أى الترام كون الإمام من القرشيين » • والحقيقة أنه لا شيء البتة عند كتاب المقالات والمؤرخين يمكن أن يكون سببا لإطلاق كلمة الخوارج على الإباضية إلا أحد أمرين هما : رفض القرشية ، واعتبار التحكيم خطأ • فهم يلتقون مع الخوارج في هذا الرأي لا غير وهذا — فيما يبدو — هو كل ما يتعلق به القوم غير أن السياسة الماكرة في العهد الأموي وفيما بعد أيضا حاولت أن تضرب كل من ينقدها بما يناسب ظروفه ولما كان الإباضية لا يعترفون بالقرشية أساسا أو مؤهلا وحيدا للإمامة فقد أضفت عليهم لقب الخارجية ثم جاء أعوانها فاخترعوا للإباضية عقائد وشنائع بثوها عنها فاننتشرت بين الناس وقامت حائلا للموضوع وطففت تلك وراجت فتناولتها الأقلام بالإثبات والترسيخ •

ولقد أوضحنا من قبل أيضا أن القول بأن التحكيم خطأ لا يخرج قائله من الإسلام ، ولا يفصله عن الأمة المسلمة ، ولا يكفي لأن نسلط عليه حكما رهيبا يجعله مكروها من المسلمين ، ثم يستمر هذا الحكم طول التاريخ ، ويمتد مع امتداد الزمن ، وأوضحنا أيضا أنه إن كان إنكار التحكيم واعتباره خدعة سياسية يراد بها تفريق جيش أمير المؤمنين على هو الخارجية أو هو السبب في إطلاق لفظة الخوارج • فأحسب أن أمير المؤمنين عليا وخيار أصحابه أمثال عمار والأشتر وعبد الله بن عباس يكونون رؤساء للخوارج • ذلك أن كتب عن موضوع التحكيم تكاد تكون

مجمعة أن أمير المؤمنين كان أول أو من أوائل من تنفطروا للمكيدة ولم يقبل التحكيم لا مكرها • وأنه أنكره بشدة ، وأبان لجيشه — الذى عمل فيه الطابور الخامس عمله — عواقب تلك المكيدة • وأنه لم يقبل التحكيم إلا مضطرا ، عندما وجد جيشه معرضا للتفرقة والتمزق ، وربما للتناحر • وكان على رأى الإمام على وعلى رأى أصحابه فى اعتبار التحكيم مكيدة لا ينبغى قبولها أكثر أئمة المسلمين منهم الإمامان العظيمان الحسن البصرى ومالك بن أنس حسبا أورده المبرد فى كامله وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة بل استطيع أن أزعم أننا اليوم وفى هذا العصر — وقد مضى على تلك الأحداث ثلاثة عشر قرنا ونصف — عندما نقرأ أخبارها نشعر بالأسف والحسرة لأن تلك الخدعة الجريئة قد انطلت على أكثرية جيش على حتى اضطر للاستجابة لها رغم معرفته القصد منها ، وتقديره لنتائجها ، وعلمه علم اليقين أن القصد من تلك العملية لم يكن مراعاة للمصلحة العامة • ولا نظرا لخير الأمة ولا تحكما للكتاب فى شيء •
جهل فيه حكم الكتاب •

فهل يعتبر من يحس هذا الإحساس — اليوم — ويرى هذا الرأى من الخوارج •

لا شك أن الإباضية يرون أن التحكيم خدعة وخطأ لا ينبغى قبوله ، ومع الإباضية فى هذا الفهم وهذا الاعتقاد أكثر أئمة المسلمين فى مختلف المذاهب ، فإذا كان الخوارج هم الآخرون يرون هذا الرأى فهل يعنى

(١) راجع كتابه اسلام بلا مذاهب ، وكتاب الدين والعلم الحديث للأستاذ إبراهيم محمد الباقى ص ٢٦٦ طبع المكتبة التجارية الكبرى •

هذا أن الإباضية ومن يرى رأيهم في قضية التحكيم أو في قضية الخلافة أصبحوا خوارج لأنهم التفتوا معهم في فكرة •

أحسب أن هذه النقطة هي النقطة الوحيدة التي يلتقى فيها الإباضية مع الخوارج • ويلتقى فيها مع الخوارج كثير من الأمة • أما في موضوع الخلافة فأصبحت الأمة كلها فيما يبدو ترى رأى الخوارج قولاً وعملاً •

وينفصل الإباضية عن الخوارج — في غير النقطة السابقة — انفصالاً كاملاً لالقاء معه • ويقفون معهم أعنف المواقف في الحرب والسلام • فهم عندما يكونون معهم في الإسلام ، يعلنون البراءة منهم • ويطردونهم من مجالسهم ، وينكرون عليهم في عنف وشدة ، ويمنعونهم أن يتحدثوا إلى الناس عن آرائهم المتطرفة • ولقد يكون إنكار الإباضية على الخوارج أعنف وأقسى من إنكار غيرهم عليهم — بقطع النظر عن المواقف العسكرية التي كانت تتفهمها دول كانت تحافظ على عروشها لا على معتقداتها وعلى سلطتها وهيبتها لا على دينها •

ومع كل هذا فقد استطاعت الدعاية السياسية في العهد الأموي أن تضفى لقب الخارجية على الإباضية • وجاء المؤرخون الموجهون فنشروا ذلك في كتبهم وفي أحاديثهم وفي المجالس الخاصة والعامة ، ثم جاء من بعدهم كتاب المقالات فأخذوا ما وجدوا دون تحقيق أو ترو أو نقد • وقد وجد الكذابون والمشنعون والمستغلون ميداناً فسيحاً للافتراء والزيادة فنشروا الأباطيل يتناقلها الناس كأنها وقائع • أخذها كتاب المقالات كمادة علمية حشوا بها كتبهم فأصبحت مرتبة الحقائق الثابتة التي لا يتوجه إليها نقد ولا يرتفع بصدها نقاش •

ولا شك أن الذين كتبوا عن الإباضية واعتبروهم من الخوارج كان لكل واحد منهم مستنده ومنهجه ودوافعه • وربما كانوا باتجاهاتهم ودوافعهم ومستنداتهم لا يخرجون عن الأنواع الثلاثة الآتية :

١ — النوع الأول : اعتقدوا حقاً أن الإباضية فرقة من الخوارج ، وتشبعوا باعتقادهم أنها فرقة ضالة مبتدعة ، بل وحتى أسوأ من ذلك لو أمكن ، واشتد — من أجل هذا — حقدهم عليها وبغضهم لها ، وهم مستعدون لتقبل كل ما يقال عنها من تشنيع وحتى الزيادة عليه برضى واطمئنان دون الشك في صحة ذلك أو محاولة للبحث عن الحقيقة •

٢ — النوع الثانى : استندوا على مصادر موجودة واعتمدوا عليها دون نقد أو محاولة لمعرفة حقيقة الإباضية من وراء ذلك وهم يرون أنهم فعلوا ما ينبغى لهم مادام الواحد منهم يستطيع أن يدل على مصدر لمستند عليه •

٣ — النوع الثالث : درسوا شيئاً عن الإباضية واطلعوا على كتبهم وعرفوا منها البون البعيد بين الإباضية والخوارج وعلموا ، أن كثيراً مما يقال في كتب المقالات لا أساس له ، ولكنهم مع ذلك استسلموا للتأثير التاريخى في إطلاق كلمة الخوارج على الإباضية باعتباره اسماً مميزاً فقط لا يدل على ما تحمله كلمة الخارجية من المروق ومانشتمل عليه وتوحى به في الخروج عن الدين والأمة ، فهم يطلقون لفظ الخوارج على الإباضية كما يطلق أى لقب مكروه على شخص دون اعتقاد بأن ذلك الشخص يحمل شيئاً من مدلوله ومعانيه •

ويبدو لى أن الأستاذين : عز الدين التنوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقي ومن سار على نهجهما من هذا القسم • فهما — مع تقريرهما لبعد الإباضية عن الخوارج البعد الكامل — وتوضيحهما للفارق الظاهر فى ذلك — لم يتحرجا أن يذكرنا أن الإباضية فرقة من الخوارج • بل لقد تجرأ الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقي فوصف صديقه أبا إسحاق طفيش (رحمه الله) بأنه زعيم طائفة منهم ، ولست أدري ما هو الإحساس الذى ثار فى نفس الإمام الكبير حين قرأ ذلك ، ولا كيف كان لقاءه معه بعد ذلك • ولكن أبا إسحاق على كل حال لم يتعرض لموقفه الشخصى فى إطلاق الخارجية عليه ، وإنما استجاب للكاتب الكبير ، وعرض موضوع الخوارج عرضا مسهبا وضعه تحت تصرف الأستاذ إبراهيم فنشره — مشكورا — بنصه فى كتابه القيم •

والحقيقة أن الإباضية فى جميع العصور — مع أنهم يبرأون من الخوارج ومن معنى الخارجية التى شرحناها سابقا — تعودت آذانهم أن تسمع من يصفهم بها فى القديم والحديث • حتى تمسك بها المتطرفون منهم على سبيل التحدى ، وكان الكثير منهم لا يجد لها إحساسا أو طعما معينا ، وإنما ألفوها كما يآلف أى إنسان تتفق مجموعة من أصدقائه وأصحابه على أن يلقبوه بلقب مكروه ويصرون على مناداته به ، فيغضب ويثور فى أول الأمر ثم يلين ويتغاضى ثم قد يستسلم ويستجيب ويعترف به على طوله المدى ، وقد علقت بالأفراد والأسر والقبائل القصاب من هذا النوع حاربوها فى مبدأ الأمر ، ثم استسلموا لها ، ثم اعترفوا بها فأصبحت أعلاما لهم •

على هذا المستوى سكت بعض الإباضية عن سماهم خوارج فى

العصور السابقة ويسكت لها اليوم آخرون ، وربما وجد من اعتر بها في القديم والحديث من باب المناكفة والتحدى وربما وجد من شذ وتطرف مراغمة وكيدا فانتسب إلى الخوارج وقال ببعض شعاراتهم •

ويبقى بعد كل ذلك الإباضية — دون اعتبار للأفراد والشواذ والمتطرفين — مذهباً إسلامياً بقواعد وأصوله المبنية على الأسس الشرعية المعتبرة من كتاب وسنة وإجماع وقياس صحيح • يحمل علوم الشريعة عدوله ، ينفون عنه تحريف المغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين وشبه المبتدعين

الباب الثالث

المستشرقون

✱ المستشرقون

✱ مع إميل فيلكس جوتييه •

✱ مع كرلو الفونسو نيلينو •

✱ اللقاء بين الإباضية وأهل السنة •

القسم الثالث

المستشرقون

اهتم المستشرقون بالقضايا الإسلامية عامة • وقدموا فيها دراسات واسعة ، وبحوثا مختلفة • منها القيم ، ومنها الأقل قيمة •

وقد حاولت أن أراجع موضوع الإباضية في بعض كتاباتهم فلم أستطع أن أفصل موضوع الإباضية في بحوثهم عن بقية المواضيع الإسلامية • وفرضت على أساليبهم — في مناقشة قضايا الشرق عموما ، وقضايا الإسلام خصوصا — أن أغير منهجي الذي كنت وضعته لمناقشة هذه البحوث وقد رأيت أن أقدم مباحث هذا القسم من الكتاب كما يلي :

١ — المستشرقون : أعرض في هذا الفصل نماذج من كتاباتهم مع تحليل موجز لبعض الفقرات منها •

٢ — إميل جوتيه : أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثل للمستشرقين المتعصبين الذين يكتبون عن الشرق والنظرة الاستعمارية المتعالية لا تفارق أحاسيسهم ومنطق السيادة التي يريدون أن يفرضوها على العالم لا تختفى من أذهانهم •

٣ — كارلونيلىنو : أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثل

للمستشرقين الذين يلتزمون الأسلوب العلمى دون أن يؤثر عليهم
— ظاهرا — إحساس آخر أو دافع غير دافع خدمة الثقافة الإنسانية
حسبما يبدو للقارئ •

٤ — مقارنة موجزة للقاء بين الإباضية وأهل السنة فى النقاط التى
جعلهم نيلينو مواضيع لقاء بين الإباضية والمعتزلة •

والواقع أن هذه الفصول الصغيرة القصيرة لا تكفى لإعطاء صورة
حقيقية وصحيحة عن جهود المستشرقين — سواء منها الجهود النبيلة
النظيفة ، أو الجهود الماكرة الدساسة — وعسى الله تبارك وتعالى أن
يبصر لى العودة إلى موضوع « القضايا الإسلامية بين أيدي
المستشرقين » فأتناولها بعمق أكثر ، وفهم أصح ، واطلاع أوسع •
ودراسة أكثر استيعابا ، وأسلوب أكثر نعومة وتهذبا •

المستشرقون

قلت في بعض الفصول من هذا الكتاب ! إن للمستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام — سواء كانت كتاباتهم عنه كدين ، أو عن الأمة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن فرقة من فرقهم كفرقة أو مذهب — أساليبيهم ودوافعهم ، ومراميهم الظاهرة والخفية ، ومهما كانوا مخلصين للبحث العلمي ، ولخدمة الثقافة الإنسانية في هذه المراضيع ، فإنهم — في الحقيقة — أشد إخلاصا للدوافع الحقيقية التي دفعتهم إلى الكتابة عن الإسلام والمسلمين • وهم لا ينسون مطلقا أن أقلامهم يجب أن تتم ما عجزت عنه سيوف الصليبيين ، وأنهم يمثلون الترفع الحضارى الذى يعتقدونه للإغريق والرومان أى لشعوب الغرب على شعوب الشرق التى خضعت — فى يوم من الأيام — لحضارتهم وعسكريتهم ويرون أن ذلك التفوق والتحكم يجب أن يستمر بأيديهم وأيدي أبنائهم وأيدي أحفادهم ، وأن كل واحد يمثل — فى عصره — موقف القيادة لسيطرة الغرب على الشرق • وإن لم يحمل الشارات العسكرية •

على أن هؤلاء المستشرقين ، عندما يتناولون هذه المواضيع يختلفون بعض الاختلاف فى طريقة تناولها فمنهم من تدفعه الحماسة فيكشف بسرعة ، وتبدو مقاصده من ثنايا كتاباته واضحة • حتى أن مواقف بعضهم لا تختلف عن الضباط العسكريين الذين يتوجهون إلى الإحتلال بقوة السلاح •

وفيهم من يملك من الدهاء ما يستطيع معه أن يدس إلى قارئيه ما يريد من الأفكار دون أن يثير منهم حاسة الانتباه ، وغريزة رد الفعل •

وهم فى أغلب الأحوال ينطلقون من نقط متشابهة ، ويتتبعون وسائل متقاربة ، ومن ذلك مثلاً : يعمدون إلى وسيلة ظاهرها علمى بحث ، وباطنها وسيلة من وسائل التخدير وكسب الاستيثاق ، تؤثر على القارئ البسيط من النظرة الأولى فتملأ نفسه بالإعجاب أولاً ، والتصديق ثانياً ، والثقة ثالثاً . وعندما يصل القارئ معهم إلى هذه المرحلة فإنهم يكونون قد كسبوه نهائياً .

ومن الأساليب البسيطة فى هذا المجال أنهم عندما يريدون أن يتناولوا موضوعاً بالبحث يقومون بإعداد قوائم طويلة من المراجع والصادر باللغات المختلفة — ولاسيما اللغة العربية — يثبتونها فى صدر كل بحث أو عند نهايته . مع أنهم — عند مناقشة الموضوع — قد لا يحتاجون إلى الكثير من تلك المراجع ولا يعودون إليها . ولكن ذكر أسمائها بتلك الوفرة يوحى باستفراغ الجهد ، ودقة التحقيق والتمحيص ، ثم بالثقة . ثم هم يتصيدون منها شواذ الأخبار والأحداث فيكرونها عليها ، ويؤيدون بها مقاصدهم الخفية .

ولست بهذه الملاحظة البسيطة أغمز سعة اطلاعهم فأنا على يقين كامل بأنهم قد تؤثر لهم من الدراسة — بسبب مجهوداتهم الشخصية ، ومساعدات حكوماتهم ومؤسساتهم المادية والمعنوية — ما يتيح لهم من سعة الإطلاع ، وغزارة المادة ، ووفرة الجهد فى الدراسة والبحث أو مواصلة العمل والاستمرار فيه ، ما لا يتاح لغيرهم أبداً . فهم بذلك من أكثر الناس اطلاعاً على المواضيع التى يهتمون بها ويبحثونها ، ولكنهم مع ذلك يقصدون بذكر المصادر — مع الحصول على إعجاب القارئ وثقته — إلى تخديره بتلك الوسيلة التى توحى إليه مسبقاً بغضلة المجهود المبذول من أجل الوصول إلى الحقيقة فىكون طيعاً بين أيديهم .

وأنا وإن كنت سلكت مسلك التعميم في الحديث عن المستشرقين لا أدعى أن رأيي هذا ينطبق على كل فرد منهم فهذه — لا شك — دعوى لا تصح ، ولا يمكن لى أن أزعها ، ضرورة أنني لم أعرف كل المستشرقين ولم أقرأ كل ما كتبه من عرفت منهم • ولكن الصورة التي انطبعت أمامي مما قرأته من كتاباتهم كانت على هذا النحو الذي وصفته • وليطمئن القارئ الى أنني لا أرمى القول جزافاً فإنني سوف أضع بين يديه صوراً توضح تلك الجوانب من كتاباتهم فألى القارئ الكريم تلك الصور تحت عناوين مستوحاة من بحوثهم وكتاباتهم •

١ — الروح الاستعمارية المتمكنة :

إذا أخذت مثلاً كتاب « ماضى شمال أفريقيا » تأليف الأستاذ إميل فليكس جوتييه وترجمة الأستاذ هاشم الحسيني نشر الفرجاني فإنك بمجرد ما تبدأ قراءة مقدمة الكتاب تحس كأنك تقرأ تقريراً لأحد خبراء الاستعمار الفرنسى عن المغرب • فهو من جانب يحاول أن يدس الى أبناء المغرب ما يقنعهم بفقر المغرب واحتياجه وعدم تماسكه • وهو من جانب آخر يثير حماس الاستعمار حين يشيد بفضل ما قام به الرومان في القديم والفرنسيون في الحديث من جهود مثمرة لازدهاره أو هو بذلك يريد أن يؤكد على نقطتين مختلفتين :

الأولى : إشعار أبناء المغرب أن بلادهم فقيرة ومحتاجة وغير متماسكة ولا يمكن أن تقوم إلا على يد استعمارية خارجية تسندها والدليل على ذلك أنها لم تزدهر إلا على يد الاستعمار الرومانى في القديم والاستعمار الفرنسى في الحديث •

الثانية : إن استعمار الغرب للشرق حق من حقوقه يجب أن يحرص عليه وقد كان المغرب يزود الرومان بكثير من الغلال ويجب أن يستمر هذا الوضع أبداً بأن تكون بلاد المشرق مصدراً للغلال ومتنفساً اقتصادياً للغرب .

يقول الأستاذ جوتييه في كتابه السابق ابتداء من ص ٩ ما يلي :

« كل شيء يتبدل على حين غرة اللغة والدين والمفاهيم السياسية والاجتماعية . إنه تاريخ شديد التقطع الى أجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، ففى أوروبا تطور متكامل حسب خط متصل ، أما المغرب فسلسلة من التبدلات المفاجئة » .

ويقول بعد أسطر :

« ومن الثابت أن رقعة المغرب القابلة للسكن والحراثة لها إمكانيات ضئيلة . إنها شريط بمحاذاة المتوسط والمحيط طوله ٣٠٠٠ كيلو متر . وعرضه ١٥٠ كم ويسبب طبيعته هذه لم يتخذ شكلا مستمرا » .

ويقول بعد أسطر :

« أما في المغرب فالوحدة سهلة التحقيق ، لكنها سهلة الزوال أيضا . ودولة المغرب كالعطور في الليل وتذبل في الصباح .

ويقول بعد أسطر :

« فجميع مناطق المياه الراكدة في هذه البلاد عبارة عن شطوط جرداء لماعة زاخرة بالملح » .

ويقول بعد أسطر •

« وحيثما سرت في الطرق والمنعطفات تشاهد مواقع الملح » •

ويقول بعد أسطر :

« حتى في الأرض القابلة للزراعة في الجزائر لا تجد الرطوبة الكافية للخصوبة • فتربة المغرب كنسبة بفعل التبخر » •

ويقول بعد أسطر :

«كانت روما زمن الأباطرة تؤمن لشعبها القوت عن طريق فرض الضرائب وكانت إفريقيا تدفع في الواقع مايطعم ٣٥٠ر٠٠٠ نسمة • في هذه الجهة يمكن اعتبارها إهداء لروما • ولا ينفي ذلك وجود أساليب جديدة لتحسين الري ولا سيما وأن هناك نوعاً من الزراعة خاصة ببلاد الملح ، لكنها طرق شاقة ، والمغرب ليس أرضاً شديدة الخصوبة • ولا هو البلد الصالح لتربية الماشية • فليس الثيران المغربية أضخم جثة من حمير أوروبا • وتربية الماشية تحتاج لتأمين السبل اللازمة للحصول على قوتها في سنوات الجفاف المريعة •

كذلك ليس المغرب بلاد صناعة • فوديانه ليست مخازن احتياطية للمياه • والأرض تفتقر للفحم الحجري والليثيث • ومنجم الفحم الوحيد المستغل حالياً هو منجم كيناسنا وليس مهماً جداً • أما منجم جرادة فيبدو أكثر أهمية ، لكنه لم يستغل بعد ، والنفط لم يتفجر حتى الآن • ولم يعثر الجيولوجيون في تربة المغرب على الفحم المتحول من أشجار الغابات ،

وإنما عثروا على الملح والجبس • ولكن لعنة بلاد الملح قد حلت به منذ
أقدم العصور » •

ويقول بعد أسطر :

« ولا نعنى بهذا أن الشمال الإفريقي يشكوا الفقر المدقع • فقد
عرفت الجزائر حقبة من الإزدهار الكبير » •

ويقول بعد أسطر :

« كان ذلك في العصر الفرنسي » •

ويقول بعد أسطر :

« وأما الجزائر الرومانية فكانت كما يقول علماء الآثار مدينة
بازارها لزراعة الزيتون ، وقد عثر على آثار في إيطاليا تثبت قدوم
الزيت من شمال إفريقيا » •

« ويردد الناس عبارة أطلقها أحد المؤرخين المسلمين حول ازدهار
إفريقيا في عهد الرومان : — كل البلاد من طرابلس حتى طنجة ،
كانت إطار واحداً وسلسلة متواصلة من القرى — وتدل العبارة على أن
السفر بين طرابلس وطنجة يجري في الظل » •

ويقول :

فنحن نعلم أن الفواكة من زيتون وتين وعنب سبباً من أسباب
ازدهار إيطاليا الوسطى وبلاد البحر الأبيض المتوسط إذ تلزمها أسواق
خارجية منفتحة • لذلك فالازدهار يمكن اصطناعه الى حد ما لأنه منوط
بظروف سياسية معقدة •

ويقول :

« فالصناعة تحتاج الى زبائن في الخارج ، ومن حسن حظ الشمالى الإفريقى توفر الفوسفات فيه بحيث أصبح مركزاً لتصدير هذا المعدن الى أرجاء المعمورة ، وفيه أيضا الحديد بكميات كبيرة وكذلك التوتياء والرصاص . ولم يجر التنقيب عن هذه المعادن منذ الإمبراطورية الرومانية وحتى الاحتلال الفرنسى . ولم يكن بالإمكان تصنيع المعادن في البلاد نفسها . لهذا كنا نرى في الموانئ الجزائرية أنواع المعادن تصدر الى جانب البضائع الأخرى . فيوضع الرصاص ، والتوتياء في أكياس أما الحديد والفوسفات فتجمع أكواما تنتظر السفر الى الخارج » .

ويقول :

« واذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفى ذاته على حد قول فيدال دى لا بلاشى . فالمغرب على العكس من ذلك » .

ويقول :

« والواقع أن هذا الشريط الذى يبلغ طوله ٣٠٠٠ كيلو متر يمتد من الشرق الى الغرب ضمن خطوط عرض وطول متشابهة ، فحيث ما نذهب نجد السماء نفسها ، والتربة عينها ، فما من بلد أقل تنوعا وتجانسا . وجفاف المناخ لا يسمح لتحقيق الازدهار محليا » .

ففى بلاد واسعة كالمغرب تتمتع بإمكانيات طبيعية كبيرة من حيث المعادن والصوف والزيوت والنبذ . لا تسهل الاستفادة من الثروة ، إذ يحتاج الأمر الى التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع الإنتاج ،

وتأمين التصدير ، فالمغرب بحكم مناخه لا يكفى نفسه اقتصاديا ويحتاج ،
للتعاون مع الغير » •

« نقلت للقارئ الكريم أكثر ما فى مقدمة الكتاب حتى تكون لديه
الصورة التى أردت عرضها واضحة ، وأستطيع أن أخصها له كما يلى :
المستشرق جوتييه فى مقدمته لهذا الكتاب صور المغرب الذى يمتد مسافة
٣٠٠٠ كيلو متر بأنه منطقة فقيرة جرداء تلاحقتها لعنة الملح لا يمكن أن
يكفى نفسه اقتصاديا وذكر فى بعض الأحيان أن المغرب خال من الثروة
فقرته كلسية ، ومياهه ملحة ، والمعادن به مفقودة ، وما وجد به لم
يستغل • والنفط لم ينفجر فيه • وهو غير صالح لتربية الماشية • وثوره
ليس أضخم من الحمار الأوروبى ، وهو ليس بلادا صناعية ووديانة
ليست مخازن احتياطية للماء •

« ومع هذه الصورة القائمة التى توضع للمغرب تندس فكرة
استعمارية توحى بأن هذا المغرب قد ازدهر قديما حتى استطاع أن يمون
الشاطئ الشمالى للبحر الأبيض المتوسط وذلك عندما كان تحت رعاية
الرومان ، وأنه ازدهر حديثا وهو تحت الاستعمار الفرنسى • وفى
الإمكان أن يستمر مزدهرا إذا وجد التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع
الإنتاج • وتأمين التصدير • ويشير جوتييه بعبارة واضحة الى أن المغاربة
لا يستطيعون أن يقوموا بذلك وإنما يحتاجون الى معاونة الغير فيقول :
« فالمغرب بحكم مناخه لا يكفى نفسه اقتصاديا ويحتاج للتعاون مع
الغير » •

ومعنى هذا أن على أبناء المغرب — إذا أرادوا الازدهار لمغربهم —

أن يعتمدوا في ذلك على الاستعمار الفرنسى الذى أشار إليه جوتييه بكلمة « مع الغير » والذى يرشحه لأن يقوم فى الوقت الحاضر بدور الرومان فى العصور الخالية ومن الغريب أنه ساغ فى منطق جوتييه وهو يرسم للمغرب تلك الصورة البائسة أن يذكر فى نفس المقدمة أن الزيت المغربى كان يصل الى إيطاليا وأن الرومان كانوا يؤقتون منه قوت ٣٥٠.٠٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فالمغرب فقير ، ولا يكفى نفسه اقتصاديا ، ويتكالب عليه الاستعمار الغربى من العهد الرومانى الى العهد الفرنسى محبة فى سواد عيونه ، وتضحية من أجل الله والإنسانية أنه منطق الاستعمار على أقلام جنود الإستعمار ولو حملوا أشعار الدراسة والعلم •

ولعل مما يبعث على الضحك هذه العبارة التى جاء بها جوتييه تعزية لنفسه وتخفيفا للحسرة التى يحس بها لو استغنى المغرب عن خدمات فرنسا قال :

« وإذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفى ذاته على حد قول فبدا دى لا بلاش فالمغرب على العكس من ذلك » •

يكاد القارئ يحس بدموع الكاتب تتساقط من عينه حسرة وأسفا وهو يتصور هذا الموقف الذى يستغل فيه المغرب عن فرنسا ولم يجد موقفاً يقفه غير موقف وكيل لثيم غنى بلغ رشده ويستعد لتسليم أمواله فيقف وهو يتظاهر بما ليس فيه قائل لليتيم البالغ • ياناكر الجميل قد نسيت لكل ما قدمت لك من خدمات ولكن لا بأس فأنا لا يقتلنى الجوع

ولكنك أنت سوف تضع ثروتك وتصبح بعد رعايتي وعنايتي مشردا
معدما • ثم ينهمر بالدموع •

٢ — زعزعة الثقة بالمصادر الإسلامية :

قد لا يدعوني الموقف في هذه النقطة الى التعليق وإنما يكفى أن
أعرض على القارئ الكريم مقتطفات مما يقوله بعض المستشرقين في
هذا الصدد فيتضح ما يبيتون • والى القارئ الكريم نماذج من ذلك •
من كتاب ماضى شمال إفريقيا :

« وإن نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد
صعوبة في فهم الأمور ، ذلك لأن الدراسات الشرقية تقسم ببعض
الانغلاق على الرأى العام » ص ٤٧ •

« في طبيعة العقل الشرقى القديم عدم تمييزه بين الأسطورة
والواقع وقد اصطدم الغربيون كثيراً بهذه الحقيقة ، حيث كانوا يتكبدون
الكثير من المشاق للحصول على أمر مهم سمعوا عنه ، وسرعان ما يفتاجأون
بأنه مجرد أسطورة ٢٢٩ ص ٦٩ •

« فالعربى شأن البربرى لم يكن يعنى بالتاريخ ولم يستيقظ
الفضول العلمى فى الإسلام إلا فى مرحلة متأخرة مع العباسيين ، وتسرب
الأفكار الداخلية » • ص ٤٤ •

« لكن الصعوبة ليست هنا • إنما الصعوبة فى التسرب الى عقول

المؤرخين الذين يختلفون عن مؤرخى الغرب ، ويصعب علينا فهمهم »
• ص ٤٨

« وليس لدينا نحن الأوروبيين أى حس دينى ، أما الشرقيون
فليس لديهم أى حس بالتاريخ • ولعل الحس الدينى والتاريخى يتعارضان
١
• ص ٥٥

« ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشف هذه المبالغات لدى كبار
المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودى والبكرى وليس فقط لدى الأسماء
الصغيرة » • ص ٧٠

(ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملا إذا
ذكروا أسماء الملوك ونسب حكمهم) • ص ٧١

« كاتب لامع جدا هو ابن خلدون وآخرون مجهـولون تقريبا على
غرار مؤلف روض القرطاس ، غير أن لهم جميعا ذهنية شرقية بمعنى أن
مفاهيمهم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل » • ص ٨٧

«عاش ابن خلدون فى القرن الرابع عشر فلا بد من تأثره بالمؤرخين
القدماء ، وأسطورة أفريقتوس تناقلتها الأجيال بين مؤرخ وآخر حسب
المفهوم العربى التقليدى للتاريخ » • ص ٩٨

« إن عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش »
• ص ١٠٠

« أو ليس فى الأرجح إذن أن يكون المؤرخون العرب قد فكروا

بحمير التي امتلأت أذهانهم بها ، وأغفلوا قرطاجة اليونانية التي لم يكتشفوا وجودها « قط ص ١٠٠ •

« وقد ذكر المؤرخون العرب المعروفون بمبالغاتهم خبر ابنة البطريق » • ص ٧٥ •

« والواقع أنه لا يسهل علينا مع المؤرخين العرب أن نميز الحقيقة من الخيال » • ص ١٧٥ •

« وليس ذلك بسبب الغموض والإبهام للذين اكتنفا كتاب المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية » • ص ١٧٨ •

« وقد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربي من الأمور السارة » • ٢٢ ص ١٨٧ •

« ولا يذكر المؤرخون العرب بجفافهم المعتاد وعدم اهتمام بتحليل الأسباب عن ذلك الشيء الكثير » • ٢٢ ص ١٨٩ •

« والغريب أن الكاهنة قد ألهمت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عادتهم في الكتابه » • ٢٢ ص ١٩٢ •

« خبرات بعض المؤرخين والفلاسفة والأطباء في العصر الإسلامي وخصوصا من كتب منهم باللغة العربية يزيديونها إيضاحا في هذا الباب • إلا أن أقوالهم يجب أن تؤخذ بحذر لأنها مقعمة بالأخطاء التاريخية والخلط بين المسائل » • هذه الفقرة للمستشرق ماكس ماير هوف — التراث اليوناني ص ٣٨ وبالرجوع الى هذه الفقرات التي نقلتها في أقرب

المصادر التى وقعت عليها يدي نجد أن الصورة التى يراد أن تنطبع في ذهن القارئ عن المصادر التاريخية الشرقية عامة والمصادر العربية خاصة هى ما يلى :

- ١ — الدراسات الشرقية تتسم بالانغلاق على رأى العام •
- ٢ — العقل الشرقى لا يميز بين الأسطورة والواقع •
- ٣ — العربى كالبربرى لم يكن يعنى بالتاريخ والفضول العلمى فى الشرق الإسلامى انما نتج عن تسرب الأفكار الداخلية •
- ٤ — المؤرخون الشرقيون ليس لديهم حس بالتاريخ وإنما يكتبون عن إحساس دينى •
- ٥ — يظن المؤرخون العرب أنهم أدوا واجبهم إذا كتبوا عن الملوك وسنى حكمهم •
- ٦ — جميع المؤرخين العرب بما فيهم ابن خلدون لهم ذهنية شرقية ، ومفاهيم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل •
- ٧ — المؤرخون العرب ينقلون أساطير التاريخ بمفهوم عربى تقليدى •
- ٨ — عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش •
- ٩ — المؤرخون العرب معروفون بمبالغاتهم •
- ١٠ — لا يسهل تمييز الحقيقة مع المؤرخين العرب •
- ١١ — كتابات المؤرخين العرب تتميز بالغموض والإبهام •

١٢ — العثور على حيوية عند مؤرخ غربى أمر سار لأنه أمر نادر •

١٣ — يتصف مؤرخو العرب بالجفاف وعدم الاهتمام بتحليل
الأسباب •

١٤ — المؤرخون والفلاسفة والأطباء فى العصر الإسلامى وإن
أعطوا صورة واضحة إلا أنه يجب أن تؤخذ أقوالهم بحذر لأنها مفعمة
بالأخطاء والخلط • هذه كما يرى القارىء الكريم بعض الحقن التى يدسها
المستشرقون فى ثنايا أبحاثهم العلمية • وخدمتم للثقافة الإنسانية • وقد
اخترنا منها تلك الحقن الظاهرة الواضحة التى يدركها كل قارىء ، ويحس
بها كل من يمر عليها ، ولا شك أن فى أثناء كتاباتهم فى الآراء والأفكار ما هو
أخطر مما ذكرناه ، وأكثر خفاء ، وأسرع تسرياً الى أذهان القراء
لا سيما القراء العاديين والقراء الذين يقبلون على كل جديد ويهشون
له •

إن القارىء العادى والباحث المتعطش — وهو يبحث عن المعارف —
تمر به تلك الحقن هيئة لينة ناعمة فى بادىء الأمر ، ثم صريحة واضحة
لابسة ثوب الحقيقة العلمية •

عندما يظن الكاتب المستشرق أنه قد استمال القارىء الشرقى إليه •
وجذب انتباهه ، يضرب بعد ذلك ضربته ليحطم إذا ما اعتقد أن قارئه قد
مر بالمراحل المطلوبة واستوعبها وهى : التشكك أولاً ثم النقد الموجه
ثانياً ، ثم الإزدراء والاحتقار والإهمال والتحول ثالثاً • ثم السير فى
المنهج الذى يريده المستشرق الخبير أخيراً •

ويستطيع القارئ الكريم أن يتعرف على هذه الخطوات بسهولة عند المراجعة في أكثر كتب المستشرقين ، من الفقرات السابقة نستطيع أن نأخذ الأمثلة الآتية :

أ — خطوة التشكك : « وان نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد صعوبة في فهم الأدور » • « من طبيعة العقل الشرقي القديم عدم التمييز بين الأسطورة والواقع » •

ب — مرحلة النقد الموجه : « ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشفت هذه المبالغات لدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودي والبكري وليس فقط لدى الأسماء الصغيرة » • « ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملا إذا ذكروا أسماء الملوك وسنى حكمهم » •

ج — مرحلة الأزدرء والاحتقار « قد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربى من الأمور السارة » ولا يذكر المؤرخون العرب — بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب عن ذلك — الشيء الكثير » • « والغريب أن الكاهنة قد ألهمت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عاداتهم فى الكتابة » •

٢ — السير فى المانهج : عندما تتم المراحل السابقة كما خطط لها فإن القارئ الكريم يكون قد استوعب منهج المستشرق واتخذ أسلوبه فى البحث ومعالجة قضايا الشرق وأعنى أنه يصبح مستشرقاً آخر أو بتعبير أصح مستغرباً لأنه يعالج قضايا وطنه ومجتمعه ودينه وثقافته وحضارته بالمنظار الذى يراها به مستشرق جندته عوامل خاصة لذلك العمل ، وذلك

يستطيع المستشرق أن يطوى خيمته ويأخذ عصاه ثم يرحل وهو مطمئن إلى أن جهوده في خدمة الاستعمار لم تذهب عبثاً •

٣ — التشكيك في الإسلام :

لعل التشكيك في الإسلام — وتصويره بأنه حركة بشرية كان الدافع إليها ما كان عليه العرب من الحرمان في الجزيرة الفاصلة وأنه لم يقدم شيئاً للإنسانية وأن ما فيه من خير إنما هو مأخوذ من الحضارات السابقة وأنه تبعاً لما يتصف به أهله من بداءة وجفاف كان يحارب العلم والفلسفة — كان من أهم الأسلحة التي يستعملها المستشرقون في محاربة الإسلام ولعل المعاني السابقة وما شابها كانت من أخطر الحقن التي يدسها المستشرقون في كتاباتهم بأساليبهم المختلفة تارة في دقة وخفاء ، وتارة في علنية واستظهار يبلغ حد الرقاعة والتهجم • وهم في كل ذلك يتظاهرون بالبراءة والطيبة وخدمة العلم والإنسانية •

وإلى القارئ الكريم أمثلة من ذلك :

« أما المسلم الصالح فعليه أن يتجنب هذه العلوم أشد التجنب باعتبارها خطراً على الدين ، ومن ثم لذ للناس القول بأن النبي — ﷺ — إنما عنى هذه العلوم حين سأل ربه أن يعيذه من (علم لا ينفع) جولد شهير التراث اليوناني ص ١٢٦ •

« بينما الإسلام الرسمي قد حارب الغنوص نظرياً فحسب ، لكنه في الواقع وعملياً سمح له بالتغلغل والنفوذ الى معتقدات الجمهور » • كارل هينرش بكر — • التراث اليوناني ص ١٢ •

« أما أولياء الله في الإسلام غفى مقابل الأرواح القدسية في الهيلينية حتى أن محمداً — ﷺ — وهو نموذجهم الأعلى ينتهي بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل • وأن يكون الرحيم المخلص القدير » •

كارل هينرش بكر • المصدر السابق :

« وكان الى جانبها تيار ديني شعبي عبارة عن طائفة من السحر والنانرجيات الهيلينية • النظرية والعملية • فالسحر والتنجيم وضرب الرمل ، والرؤيا والإعداد « وفوائد الحب ، والتمائم من كل نوع • هذه الأشياء أصبحت عربية إسلامية » • كارل بكر نفس المصدر السابق « واليوم نرى هذا النوع من السحر الإسلامي يسير طليعة للإسلام غازيا بلاد الزوج الوثنية التي لا تؤمن بالإسلام الرسمي إلا بعد ذلك بزمان طويل غالباً » • بكر نفس المصدر السابق •

« والإسلام نفسه لم يكن شيئاً غير استهزار الهيلينية شهير آسيوية شيئاً فشيئاً » بكر نفس المصدر •

« إلا أنه لما كان قد نظر الى الإسلام على أنه شيء جديد كل الجدة ، وحسب من جهة أخرى أن الدين والحضرة شيء واحد فقد نشأت أسطورة حضارة العرب ، تلك الأسطورة التي أُلقت غشاء على عيون المؤرخين فحالت بينهم وبين رؤية هذه الحقيقة الناصعة • وهي أن الحضارة القديمة قد ظل حاملوها هم حاملوها الأصليين ، واستمر مسرحها هو مسرحها ذلك أن الإسلام كان هو الأجنبي الغريب الذي أراد أن يغزو العالم القديم المتأخر ، ولكنه خضع فيما بعد لما كان عليه هذا العالم القديم من تفوق وسمو » • بكر نفس المصدر السابق •

« ثم إن القانون الرومانى رتب ونظم قبل قيام النبى — صلى الله عليه وسلم — بدعوته بزمان قليل ، وأثره من بعد فى الشريعة الإسلامية واضح فى كل مسألة ، حتى أنه ليكاد يكون لكل مبدأ من مبادئها ما يناظره فى القانون الرومانى » • كارل بكر المصدر السابق •

« وإذا ما بحثنا حضارات البلدان التى فتحها العرب استطعنا أن نحكم بسهولة بأن كل شىء بقى فى الإسلام كما كان على عهد القديم لم يضاف إليه جديد ، سواء فى ميادين السياسة ، أو فن الحرب والاقتصاد والعلم والفنون والصناعات » • كارل بكر نفس المصدر السابق « أما نهضة الشرق التى نشهدها فى الوقت الحاضر فمرتبطة لا بتراث الأوائل وإنما بأوروبا الحديثة » • كارل بكر المصدر السابق • ومما جاء فى كتاب (الفرق الإسلامية فى الشمال الإغريقى) تأليف الأستاذ الفرد بل ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ما يلى :

« وهذه الثروة الزراعية فى البلاد لم تكن انحدارا ضئيلا بالنسبة الى بلاد صحراء الجزيرة العربية » صفحة ٧٧ •

« عرب الفتح الأول كانوا جيوشا حقيقية مؤلفة من المحاربين العرب • صحيح أن غالبيتهم كانوا من البدو الفقراء فى جزيرة العرب ، وكانوا طامعين فى النهب ، لكن زعماءهم كانوا من أهل المدن » • نفس المصدر ٢١٣ •

« ولم يكن القواد ولا المحاربون الجدد قد قدموا إلى هناك على نية عدم العودة إلى مواطنهم الأصلية التى تركوا فيها نساءهم وأولادهم ، فبعد مدة معينة كان الكثير منهم يعودون إلى ديارهم الأولى

مثرين غالبا من الغنائم التى كانت من نصيبهم » • المصدر السابق
• ٣١٣

« إن هجرة العرب من صحرائهم فى القرن السابع الميلادى لم تكن حدثا جديدا بل هى حلقة من حلقات الهجرات الكبيرة للشعوب • تلك الهجرات التى تتجلى منذ فجر التاريخ » • المصدر السابق ٧٨ •

« لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبى محمد ﷺ أولا ثم سلطان الخلفاء من بعده أولئك العرب المتعطشون إلى حياة مادية أقل شغلا من تلك التى تهيئها لهم الصحراء » • المصدر السابق ٧٨ •

« وجنود الفتوح الإسلامية أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية رحل في الجزيرة العربية لم يكونوا شديدي الغيرة الدينية والتقوى الإسلامية » • نفس المصدر ٧٨ •

« ولهذا ينبغي ألا نرى في جيوش الفتوحات الإسلامية الأولى وفي جحافل البدو المنطلقة من الجزيرة العربية بقيادة زعمائها وأغلب هؤلاء الزعماء من السكن الحضر في المدينة ومكة — أقول ينبغي ألا نرى فيهم جيوشا من المتعصبين المستضيئين بالإيمان والمستعدين للموت في سبيل نشر الدين الجديد » • المصدر السابق ٧٩ •

ولم تعد صورة جيوش صدر الإسلام • رهى تغزو دفوعة بحماسة بالغة ، وبإحدى اليدين السيف ، وباليده الأخرى القرآن ، لتخضع الشعوب للدين الجديد ، فقول إن هذه الصورة لم تعد مقبولة ، وليست إلا من خيال الشعراء » المصدر السابق ٧٩ •

« فخلال التاريخ يبدو لنا البدو بمظهر قلة التقوى وبالعجز تقريبا عن الارتفاع الى عقيدة التوحيد » • نفس المصدر ٧٩ •

« إن البدو مولعون بالنهب والسلب ، مولعون أيضا باراتة الدماء لكنهم لا يرضون بأن يقتلوا — أى لا يستعذبون الموت » • المصدر السابق ٧٩ •

« ومن المؤكد قطعا أنه وجد بين قادة الحرب في الفتوح الإسلامية مؤمنون مخلصون ، وجنود لله ورسوله صادقون ، مثل القائد الشهير عقبة بن نافع الفهري ، مؤسس القيروان ، وأصله من مكة ، لكن يبدو أن عددهم في الغزوات الأولى لم يكن كبيرا ، وفي مقابل ذلك لم يكن الطمع في الثراء غريبا عن تفكير الكثير من الجنود المجاهدين ، ويمكن أن نسوق أرقاما عن الثروات الطائلة التي ظفر بها غنائم في الحرب ، مسلمون أتقياء مؤمنون صادقون وقد أورد اغناطيوس جولدتسيهر أسماء عدة منهم ابتغاء إثبات أن الزهد الديني كان صفة نادرة عند الغزاة الأولين » المصدر السابق ص ٨٠ •

« ويكفى أن نذكر هنا على سبيل المثال من بين الصحابة الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة لتقواهم وإيمانهم ، الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وكلاهما توفي عن عدة ملايين » • المصدر السابق ٨٠ •

« وليس من شك في أن الثروات الضخمة التي جمعها المحاربون المجاهدون في غزواتهم الأولى في الشام ومصر والعراق قد حملت كثيرا من الأعراب على الاشتراك في الجهاد واعتناق الإسلام ، ومن السهل أن

نفهم كيف كان الجهاد مغريا للبدو الجياع الذين كانوا يعيشون عيشة حرمان وعدم استقرار » • المصدر السابق ص ٨٠ •

« تلك هي الأسباب العميقة والصادقة التي دفعت بقبائل العرب الى الانقضاض على العالم القديم الرومى أو الفارسى فى منتصف القرن السابع الميلادى • فالحاجة المادية والطمع — كما يقول جولد تسيهر — « العقيدة والثريعة فى الإسلام (ترجمة فرنسية » ١١٣) أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » المصدر السابق ص ٨٢ •

« وبالنسبة إلى البعض كان الجهاد مغنما على أى حال : فإن كتب له الحياة عاد مثقلا بالغنائم ، وإن كتب له الموت فى الجهاد تخلص أولا من حياة الحرمان والشظف القياسية فى الصحراء العربية ، وثانيا إن كان من المؤمنين المخلصين كان الاستشهاد سبيلا إلى حياة النعيم فى الآخرة » المصدر السابق ص ٨٢ •

« ومهما يسكن من شئ فإن الحماسة لنشر الدعوة والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله لم تكونا بالنسبة إلى الغالبية تلعبان غير دور ثانوى فى الغزوات الأولى للإسلام » المصدر السابق ص ٨٢ •

ومما جاء فى كتاب ماضى شمال إفريقيا تأليف إميل فياكس جوتييه ترجمة هاشم الحسينى نشر الفرغانى ما يلى :

« إنها الهوة الفاصلة بين نهاية الإمبراطورية الرومانية والعصور

الحديثة ففى هذه الفترة نرى المغرب يغرد خارج سربه ، وكأنه فوق كرة أرضية أخرى — أرض المسلمين « نفس المصدر ص ٧٥ •

« ماذا حل بعلوم فارس التى أثلفها عمر بعد الفتح العربى ، وكذلك بعلوم الكلدانيين والآشوريين والبابليين والأقباط والإغريق « نفس المصدر السابق ص ٧٧ •

« وابن خلدون مؤمن بأن جميع الوثائق التى تعود إلى ما قبل الإسلام بعيدة عن مثاله ، وأنها أثلفت وضاعت إلى الأبد « بالمصدر السابق ص ٧٧ •

« فلا شئ فى الشرق يفهم بمعزل عن الدين ، وقد وصف ابن خلدون انتشار الإسلام وانحصاره وكأنه إمبراطورية عسكرية « المصدر السابق ص ٧٨ •

« وهكذا نرى أن أوصاف الدولة الشرقية تنطبق على ملاحظات ابن خلدون ، فهى ملكية تستمد أسسها من الدين ، وتهدم الثقافة بمرور الزمن « • المصدر السابق ص ٨٥ •

« إن قرطاجة القديمة قد ساهمت فى إعداد البربر لاعتناق الديانة الإسلامية « • المصدر السابق ص ١٠١ •

« وفى زحمة الغزوات والانتصارات والهزائم والمجازر التى تميز بها الفتح العربى فى المغرب ، تتبادر إلى أذهاننا واقعة واضحة : جميع المعارك كانت باتجاه طنجة ونيارات (تيهرت) وحول الأوراس المصدر السابق ص ١٠٤ •

« وحين نرى أن المغرب المسلم يتفوق على جيرانه الأسبان والصقليين والمصريين ، فلا يغرب عن بالنا أبداً أن جهودهم قد عبئت منذ العهد الرومانى » • المصدر السابق ص ١٢٧ •

« ولكن ما الذى جعل المسيحية تنهار فى الشمال الإفريقى ، إن أعظم هدية قدمتها روما للمغرب إنما هى إدخال الجمل إليه ، والجمل هو الذى أسهم فى انهيار دولة الروم » المصدر السابق ص ١٢٧ •

« إذن كيف للبدو الرحل أن يحملوا ظاهرة حضارية إلى البلدان الأخرى ؟ أو لم يقلل فيهم ابن خلدون الذى يحبهم أنهم يهدمون بيتا بكامله ليستخرجوا حجرا لمقدمهم • كما يرى رينان من جهته أن الساميين يرفضون فكرة الدولة » • المصدر السابق ص ١٤١ •

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين ، وصقاية ربلاد الأندلس تحت الحكم العربى رغم بداوتهم ، وكذلك كيف لهم — وهم الرحل — أن يأتوا إلى بلاد المغرب بحيران مفيد كالجمل فلو فعلت روما ذلك لما بدا الأمر مستغربا نظرا لطبيعة الاستقرار التى تميز شعبها » المصدر السابق ص ١٤١ •

هذه مقتطفات يسيرة نقلتها عن بعض كتابات المستشرقين التى كانت تحت يدى حين كتابة هذا الفصل ، وبالرجوع إليها يتضح للقارئ الكريم أن المستشرقين كانوا حريصين جدا على أن يشككوا فى أن الإسلام دين سماوى ، وهم يحاولون أن يؤكدوا للقارئ أنه امتداد للميلينية المسيحية ، أو الغنوصية ، وأنه استفاد من القوانين الرومانى استفادة كاملة حتى أنه لا تخلو مسألة من مسائل الإسلام من آثار

القانون الرومانى ثم هم يحاولون أن يصوروه فى موقف من الحرب العنيفة مع العلم ، وأنه قضى على آثار علم الأوائل ، وأحرق المكتبات • ومنع أتباعه من التغلغل فى العلوم العقلية •

وفوق كل ذلك فقد حرصوا كل الحرص أن يصوروا الفاتحين المسلمين الأول ، بأنهم إنما حملهم على الفتح ما هم فيه من فقر وحاجة وشغل عيش • وأن الفتوح عندهم هى وسائل غنيمة وإثراء فقط • وقد بالغ بعضهم فى تصوير هذا حتى بلغ حد السخف والمواقعة •

راجع إن شئت الفقرة التى اشترك فيها المستشرقان تسيهروبيل « فالحاجة المادية والطمع أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » •

أما المستشرق جوتيه فقد بلغ به الحنق على العرب إلى حد أفقده صوابه حتى أنه حاول أن ينكر عن العرب — لأنهم بدو فى نظره — شيئاً يرتبط بالبدو طبيعة وبداهة • وعد إن شئت إلى إحدى الفقرات السابقة لتقرأ فيها ما يلى : « كيف لهم — وهم الرحل — أن يأتوا إلى المغرب بحيوان مفيد كالجمال ، لو فعلت روما ذلك لما بدا مستغربا » هذا كلام جوتيه وهو يرى أن العرب — وهم بدو — ليست من حقهم أن يسوقوا الجمل لأنه حيوان مفيد وكان يجب عليهم أن يتركوا ذلك لروما ، ولعل شدة الحقد والتنكر والتشكيك تبدو واضحة فيما يلى :

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربى رغم بداوتهم » ؟

إن المستشرقين يريدون أن يزرعوا في ذهن القارئ أن الدين الإسلامي دين بشرى من وضع العرب ، وأن هؤلاء العرب عبارة عن مجموعات من العدو يسيطر عليها الجوع والحرمان في بلادهم فانطلقت غازية تبحث عن الدنيا • وأن الأمة الإسلامية على العموم والعربية على الخصوص لم تقدم — في الواقع — للإنسانية شيئا وما قام تحت حكمها من مظاهر الحضارة كان معبأ من الحضارات السابقة • وحتى اعتناق البربر للإسلام لم يكن اقتناعا به ولا محبة فيه وإنما كان نتيجة لروح قرطاجة المتغلغلة فيهم » إن قرطاجة القديمة قد ساهمت في إعداد البربر للديانة الإسلامية » • هكذا يقول جوتييه •

إن وضوح السموم المدسوسة في ثنايا هذه الكتابات لا تحتاج إلى الكثف والإظهار •

٤ — وضع المرأة :

ربما كانت المرأة من أهم القوى التي استعملها الغرب في محاربة الشرق • فإن الصليبية بعد فشلها عن مواجهة الإسلام بقوة السلاح راجعت أساليبها ، وتحققت أنها لن تنتصر انتصارا حقيقيا كاملا على المسلمين في معارك الحرب والقتال • فبدأت تغزوهم بوسائل أخرى في هدوء وأناة • ومن تلك الوسائل استغلال المرأة •

كانت وسيلة الغرب في استغلال المرأة تتخذ اتجاهين •

الاتجاه الأول :

هو تقديم المرأة الغربية نفسها لتتولى تحطيم الحصانة الخلقية (م ١٥ — الاباضية)

والدينية من المجتمع الشرقى ، والقضاء بوسائل المرأة الفردية على مقاومة الرجولة عند ذوى النفوذ والتأثير . سواء كان ذلك فى أفواج سيدات البلاطات والمجتمعات الراقية اللائى يقدمن تحت اسم التقدم الحضارى والمجتمع الراقى الى ذوى النفوذ والسلطات والمال فتسلطن عليهم وأوهن عزائمهم بشغلهم فى مجال عاطفى بعيد عن اليقظة والتفكير والحزم .

وكان ذلك فى أفواج الفئات وطالبات الهوى اللواتى اشتغلن بجد فى زرع الشهوة والمباذل بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة فشغلها بأنواع السكر والمخدرات والحشائش والفجور عن واقع الحياة . وقد نجحت امرأتهن — بما تحمل معها من مساعدات فى هذا المجال نجاحا عجزت عنه الجيوش والأساطيل .

الاتجاه الثانى :

يتعلق بالمرأة الشرقية نفسها ومحاولة إخراجها من قيمها وأخلاقيها والتزاماتها لتلتحق بالمرأة الغربية فتساعدوا أو تتسلم منها الدور فتقوم به هى بدلا عن تلك الغربية التى يتوقعون أن ردود الفعل قد تبعتها فى يوم من الأيام وترحل عن المنطقة .

وقد نجحت فكرتهم هذه أيضا بعض النجاح ، وحاولت المرأة الشرقية والمسلمة أن تقوم بنفس الدور الذى قامت به تلك المرأة الدخيلة فترجع فى حياة المجتمع الشهوة العارية التى تشغل عن الكفاح المستمر المطلوب من أمة ذات رسالة . الواقع أن المرأة الشرقية ولا سيما المسلمة لا تزال فى مبدأ الطريق ، تتلمس خطاها — مترددة — فى حذر وإشفاق . ولكن المؤسف أن جميع الأيدي تدفعها بكل قوة الى النهاية المؤلمة .

والمستشرقون وهم يعرضون القضايا الإسلامية بأساليبهم الملتوية لا يغيثون موضوع المرأة بكثير من الوقاحة والتجنى والدس ، محاولين أن يسيئوا الى الشرق عموما والى الإسلام خصوصا ، عاملين بما في وسعهم من دهاء الاستعمار ومكره على جذب المرأة المسلمة إليهم وجعلها تعتقد أن الإسلام أساء إليها ، ولم يعطها حقها الإنسانى تتمتع به كما تتمتع به المرأة الغربية • ليتمكن لهم أن يوجهوها — توجيهها غير مباشر — الى الاستمرار فى أداء وظيفة المرأة الغربية فى الشرق •

ولعل فى بعض المقتطفات التى نعرضها فيما يلى تتعرى أصابع المستشرقين الدساسة ، وتوضح نواياهم الكائدة •

يقول المستشرق الفرد بل فى كتابه : (الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى) صفحة ٥١ ما يلى :

« ويمكن أن نفترض أى الزوجة الشرعية كانت كما لا تزال اليوم ملكا لزوجها • اشتراها من أهلها ، مقابل سعر يتفق عليه ، والجارية المسرى بها يمكن أن تكون عن شراء مماثل ، أو عن سبى فى حملة حربية مثلا • وحتى فى الزواج بواحدة فإن مركز المرأة قلق » •

وبعد أسطر يقول :

« وإذا كان لهذا — أى الزوج — لا يسمح لزوجه بالزنا ، فالسبب فى هذا أولا هو أنه لا يريد أن يمتزج دم أجنبى بدم أبناؤه ، لأنه قوام الأسرة هو رابطة الدم ، وثانيا لأنه لما كانت الزوجة ملكا له اقتناه ، فإنه لا يسمح بأن يشركه فى ملكه أحد غيره » •

وهذا التصور للزواج يؤدي الى نتيجتين رئيسيتين : الأولى هو أنه في عرف البربر — وكذلك الشريعة الإسلامية — يعد زنا الزوجة جريمة من جرائم القانون العام ، يعاقب مرتكبها بالموت • والنتيجة الثانية هي أن الزوج له وحده دون الزوجة حق تطليق امرأته حين يريد وكما يريد ، والزوجة لا تستطيع حتى طلب الطلاق مهما أساء الزوج معاملتها • والزوج الذي يطلق زوجته يمكنه أيضا أن يطالب باسترجاع ثمن الشراء من الأب ، أو الزوج الجديد » •

هذه الصورة التي عرضها هذا المستشرق هي إحدى الدسائس الاستعمارية المبنية على الكذب للكيد والتي يراد منها تضليل الشباب المسلم عن واقعهم وتنفيرهم من دينهم واستجلاب سخطهم على الشريعة التي أنزلها الله لسعادتهم وسعادة البشرية من ورائهم لقد حاول المستشرق الماكر — وهو يتحدث عن تاريخ البربر القديم ثم يتسلل برفق الى تاريخهم الإسلامي ثم يتسلل برفق أيضا الى الشريعة الإسلامية — أن يضرب هذه الأمة المسلمة في المغرب ويضرب الشريعة الإسلامية معها بأقوى ما عنده •

والملاحظة اليسيرة التي أريد أن أقولها للقارئ في هذا الصدد أن للمستشرق أن يتحدث عن البربر وغير البربر قبل الإسلام بما شاء وشاء له الهوى فإن الحديث عن الجاهلية في جميع الشعوب لا تعنينا • وليس لدينا عنها صور صحيحة • أما أن يأتي الى الأمة المسلمة في الشرق والغرب ويتجنى عليها وعلى الإسلام • فإن هذا الموقف يجب أن يكون له عليه حساب •

تصويره لعملية الزواج بأنها عملية بيع وشراء وأن المرأة تسلم فيه

للزواج مقابل ثمن يدفع للاب أو للزوج الأسبق من أرخص أنواع الكذب والافتراء عن البربر في العهد الإسلامى وعن الإسلام • وصاحب هذا الافتراء — سواء كان المستشرق أم أنه كان غيره ليس له حياء يعصمه ولا كرامة يحرص عليها والا أجاز لنفسه أن يكذب عن الإسلام والمسلمين هذه الكذبة البلقاء •

والنتائج التى توصل إليها فزعم أن فى عرف البربر وفى الشريعة الإسلامية أن زنا الزوجة جريمة يعاقب عليها القانون بالموت • هو تخريف للحكم الشرعى • لأن البربر يعملون بالإسلام والإسلام يعتبر جريمة سواء صدرت من زوج أو زوجة أو من غيرها أو قد قرر لهذه الجريمة عقوبة تختلف فى بعض الأحوال فهى للمحصن — سواء كان ذكراً أو أنثى — الموت بطريقة الرجم وهى لغير المحصن الجلد وأحكام الشريعة تتساوى عند البربر والعرب والفرنسيين إن كان فيهم مسلمون والصورة — التى يقدمها هذا المستشرق بأن المرأة فى الإسلام بضاعة تشتري بالثمن وأن الثمن الذى يدفعه الزوج يسترده إذا طلقها — وما يتبع هذه الصورة من خيالات وأوهام يراد بها إثارة المرأة المسلمة بالدرجة الأولى ثم تشويه سماعة الإسلام — هى ولا شك إحدى اندعايات المفاجرة التى حرص الاستعمار أن يضل بها عقول الشباب الذين لم يدرسوا الإسلام ولم يعرفوا حقيقة القواعد والأصول التى جعلها أسساً ودعائم لتكوين البيت والأسرة وأحسب أن هذه الصورة وحدها كافية لأن يعرف القارئ الكريم جهود المستشرق الفرد بل فى خدمة الثقافة الإسلامية هذا الرجل الذى كان فى خدمة إدارة الحماية الفرنسية منذ سنة ١٩١٤ والذى بقى يوالى جهوده فى المغرب منتقلاً بين عواصمه وقراءه تكفل له الدولة جميع المساعدات ما يقارب ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ الى عام ١٩٤٢ أنه ولا شك واحد

من تلك الشخصيات التي كانت تعمل جهدها في تركيز الاستعمار وخدمة الغرب متسترة بخدمة العلم والثقافة •

وهو ولا شك بهذه الإقامة الطويلة في مكان قد اكتسب سمعة واسعة بين المستشرقين والمهتمين بمثل هذه القضايا وربما يعتبر قوله حجة وشهادته لا ترد •

وقول المستشرق إميل فيلكس جوتييه في كتابه (ماضى شمال إفريقيا) ترجمة هاشم الحسينى ما يلى :

« فقد تخلى — أى سبتيموس — عن جميع حسان بلاده ليقترن بامرأة سورية » • ص ٩٣ ويقول :

« واحتفظ سبتيموس بجوليا على الرغم من فضائحها وتآمرها عليه • وهذا إن دل على شيء فعلى عمق الصلة بين ذلك القرطاجى وتلك الفينيقية » • ص ٩٣ ويقول :

« ثم إن كركولا تزوج على غرار أبيه من امرأة سورية من عائلة جوليا أمه ، أراد بذلك أن يخاق لنفسه جواً عائلياً شرقياً ، حتى إن مؤامرات الحريم كانت كما فى الشرق • أو لم تدفع جوليا ابنها كركولا لقتل أخيه جيتا ؟ صحيح أن هناك سابقة عند آغر بين أم نيرون • ولكن مضى عليه مائة وأربعون عاما ، ناهيك بأن قتل الأثقاء ، ومآسى الحريم فى الممالك الشرقية من الحوادث العادية التى ترافق تغير العهود » • نفس المصدر ٩٤ ويقول :

« إبنة البطريق جرجير التى سموها آمنة وقالوا إنها كانت من

نصيب واحد من الأنصار فوضعها هذا على ظهر جمل ، وسار بها وهو
يردد : يا إينة جرجير ستسيرين مشيا على الأقدام ، ففى الحجاز تنتظرك
سيدتك ، حيث ستحملين الماء فى القرب » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« تمثل بنوع خاص وضع امرأة أورستقراطية مرفهة وقعت فى أيدي
بدو رحل ، لقد كان من الذكاء بحيث أدركوا معنى المأساة ، ومن القوة
بحيث أبوا إلا يستمتعوا بها » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« وقضية العائلة ووضع المرأة أمان مهمان ولا ريب وما من هوة
أعمق من هذه الهوة بين الشرق والغرب » • المصدر السابق ص ١٠٢
ويقول :

« ولم يذكر غيزل سوى امرأتين لم تكونا فى عداد الحريم » • المصدر
السابق ١٠٢ ويقول :

وخليق بنا هنا الى أن نشير لنقطة مهمة تتعلق بموضوع المرأة الشرقية
الذى لم يتفهمه الغربيون • فصحیح أنها تعيش منعزلة ، ولكنها تحافظ
على وضعها كأمراة ، وقد تكون رغم جهلها أكثر اندفاعا عنفا وشدة من
المرأة الأوروبية ، وكلنا سمع بمكائد الحريم » • المصدر السابق ١٠٢
هذا مستشرق آخر بدأ خدمته للاستعمار العربى من جزيرة مدغشقر
ثم التحق بالجزائر ، قد بذل جهودا مضيئة لخدمة الاستعمار تحت ثوب
البحوث العلمية •

وفي أثناء كتاباته عن الشرق عمرها وعن المسلمين خصوصاً يحاول أن يدس صوراً مثومة ، أصولها مستقاة من كتب القصص كألف ليلة وليلة وغيرها بينما يحاول أن يشكك — بما أوتى من جهد — في المصادر الحقيقية فهو — في موضوع المرأة — يركز على فكرة الحریم كما يتصورها الغربيون :

مجموعات كبيرة من النساء يحبسن في قصر واحد ليستمتع بهن رجل واحد • فهن يعشن في عالم الضيق في كيد ومؤامرات للحصول على قلب ذلك الرجل • وهو يلج في إعادة هذه الصورة الى الأذهان بل إنه يستشهد بغيزل الذي لم يذكر سوى امرأتين اثنتين ليستا من الحریم • ولا شك أن تجمع النساء وصراعهن وكيدهن وممارستهن للبقاء والفجور السرى والعلنى في قصور الملوك وفي قصور الأمراء والأستقراطيين في فرنسا وفي غيرها من بلاد أوروبا وصراع البنایا والمحظيات مع الزوجات الشرعيات ، وتسلمتهن على الملوك ورجال الدولة وتسيرهن في كثير من الأحيان دفعة الحكم من وراء ستار وتأثيرهن على السياسة العامة داخلية وخارجية ومظاهر الحب والخیانات وتعارض رغبات الغانيات مع أحكام الكنيسة ، وتدخل السلطة الحاكمة ضد الكنيسة لحمايتهن وحماية عبتهن • صرر واضحة في تاريخ أوروبا لا يمثل ما في الشرق جميعه جزءاً يسيراً ، منها لكن كل ذلك مستساغ وحسن ما دام في أوروبا وهو يدل على تقدم المرأة الغربية وثقافتها في منطق المستشرقين • أما المرأة الشرقية فمع جهلها قد يكون اندفاعها أعنف هكذا يقول جوتييه •

ولعله من السهام المسمومة التي يريد أن يوجهها الى الفاتحين المسلمين في هذا الموضوع هو تلك الصورة التي رسمها للجندى المسلم الفاتح

حين أسر ابنة جرجير ، هى كما يقول : فتاة أوروستراتية مرفهة فركبها جملا ليذهب بها من إفريقيا الى جزيرة العرب ولا يكفى هذا بل يتغنى بمأساتها فيقول لها ستسيرين على الأقدام حتى تصلى الى سيدتك التى تنتظرك لتحملى لها الماء فى القرب • ويعلق على هذه الصورة بقوله إن العرب من الذكاء بحيث يدركون هذه المأساة ومن القسوة بحيث يستمتعون بها • ولا شك أن ملايين النساء الشرقيات المرفهات اللاتى لقين أسوأ فنون التعذيب بأيدى الاستعمار الغربى الممتد منذ عهد الرومان الى آخر عهد فرنسا فى الجزائر لا يلفتن النظر ولا تعتبر قضاياهن مآسى ولا معاملتهن بتلك الوحشية قسوة •

وليت شعرى كيف استطاع المستشرق غيزل أن يبحث عن المرأة فى المجتمع الشرقى كله فلم يجد فيه إلا امرأتين ليستنا من الحريم ؟

هذه أساليب المستشرقين وهم يكتبون عن قضايا الشرق عامة وقضايا الإسلام خاصة ، متسترين بالبحث العلمى •

ولا شك أن بعضهم قدم خدمة قيمة فى الميدان العلمى ولكن البعض الآخر حاول أن يدس فى أبحاثه ما يظنه خدمة للأغراض الاستعمارية أو ما توحى به العصبية سواء كانت عصبية دينية أو كانت عصبية للغرب على الشرق • ولعل إميل فيلكس جوتيه يمثل الجانب المتهور فى هذا الموضوع • وكتابات لا تتسم بأسلوب الباحث وإنما تتسم بصيغة الرائد الذى يمهد للغزو أو يبرر الغزو الواقع من دولة واقعة على شعب يرى جوتيه أنه يجب أن يخضع للحكم ويصبر عليه ويقدم السمع والطاعة •

ولعل القارىء الكريم يريد أن أضع بين يديه مقتطفات أخرى من كتابات إميل جوتيه ، يقول :

« وهنا نلقى نظرة على ما نسميه تاريخ المغرب في العهد الإسلامى لنجد أن الذاكرة لا تستطيع حصر الحوادث المتشعبة المتشابكة ، والحروب العديدة التى لا تعرف أسبابها ونتائجها فى تلك الفترة » .

فما أن تقرم مملكة حتى تنهار • وتنشأ على أنقاضها أخرى بدون سبب واضح أو نتيجة ملموسة • إنه تاريخ خاو جاف بل أقول صحراء قاحلة لا تعرف أولها من آخرها • المصدر السابق ٧٧ وتقول « والواقع أن حياة البداوة هى التى ميزت التنظيم السياسى فى الشرق والبداوة هى التى تميز الشرق عن الغرب » • نفس المصدر ٨٠ وتقول « ذلك إن إفريقيا قرطاجنة والاندلس بلدان عريقان ثقافيا وهما الوحيدان فى المجال الإسلامى بالمغرب ، على أن العنصر الذى لعب دوره هنا هى فترة ما قبل الإسلام وما هيأتهم لاعتناق الديانة الجديدة » • المصدر السابق ص ١٠٤ ويقول :

« وأيسر ما يثير انتباهنا فى زحمة الصراع بين الشرق والمغرب فى بلاد المغرب انهيار النفوذ اللاتينى والمسيحى فى إفريقيا » • المصدر السابق ويقول :

«وقد شاعت الامبراطورية الرومانية أن تخلق ثورة مثل هذه الثورة ونجم عنها عن غير قصد هزات اجتماعية وسياسية خطيرة » • نفس المصدر ويقول :

« لقد عرفت إفريقيا عهدها الذهبي زمن الرومان فازداد عدد سكانها وانتعشت اقتصاديا وأضافت روما لمآثرها الأخرى إدخال الجمل الى البلاد » المصدر نفسه ويقول :

« إن إفريقية هي مهد المقاومة المغربية نظرا لتأثرها بالحضارة اليونانية والرومانية » • المصدر نفسه ويقول :

« وليس تصرف كهذا أمراً مستغرباً في هذه البلاد ، لكننا نستهنه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهوم المدينة القديمة الى مفهوم الوطن » • المصدر نفسه ويقول :

« ذلك لأنها تحولت تدريجيا فأصبحت بلاد الشاوية ، وتبدد ما بقى من ثروات زراعية وفلاحين رومان في القرن السابع ، سادت حياة التنقل بين السهل والجبل » • المصدر نفسه •

ولعل من الطريف أن أختتم هذا الفصل بملاحظتين مبنيتين على استنتاجات مضحكة للمستشرق الكبير •

الملاحظة الأولى يقول في نفس الكتاب صفحة ١٥٣ ما يلي :

« ولابد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية في الأصل فالكاهنة أول أميرة على الزناتيين كانت تحمل اسما يهوديا ، فكاهنة تذكر بكوهين » •

أرأيت التعمق في البحث ودقة الاستنتاج وسلامة المنطق أول أميرة على الزناتيين هي الكاهنة • ولفظ الكاهنة قريب من كوهين • وكوهين

اسم يهودى إذن فالعلاقة وطيدة بين زناتة واليهود • ونسى هذا المستشرق الكبير أن اسم هذه الأميرة (داهيا) لا كاهنة وأن كلمة كاهنة كلمة عربية أطلقها عليها العرب لأنها كانت تمارس أعمال الكهان ولا بد أن لمعنى هذه الكلمة لفظا بربريا كان يطلق عليها فلما جاء العرب ترجموه إلى هذه اللفظة واختفت اللفظة البربرية ، أو أن العرب من مبدأ الأمر أطلقوا عليها لفظ الكاهنة حين لاحظوا أنها تقوم بأعمال الكهان ومهما كان الأمر وحتى لو أن اسمها كان كاهنة أو أن اليهود كانوا يسمون كوهين لما كان لتشابه هذه الأسماء معنى ولا يصح أبدا أن نربط بينها علاقة لمجرد تشابه لفظتين وإلا فالمسلمون اليوم يسمون موسى وهارون وإسحاق وسليمان وداود فما رأى المستشرق الكبير في هذا • أحسب أنه ليس أبعد في السخف من هذا •

الملاحظة الثانية يقول في نفس الكتاب ص ١٥٣ ما يلى :

« ومن المعروف أيضا أن ثورة يهودية قامت في عصر الإمبراطور تراجان انطلقت من برقة • وقد شدد رينان كثيرا على هذه الثورة • قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى لوقوفا ، اعتبروه ملكا عليهم — بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان ، وأكلوا لحمتهم ، وتلذذوا بتلطيخ أيديهم بدمائهم ، منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثيابا يرتدونها • ويقدر عدد سكان برقة الذين قضوا على هذا النحو بحوالى مائتى وعشرين ألفا ، أى أن جميع السكان قد ذبحوا تقريبا ، وتحولت البلاد إلى صحراء قاحلة من جديد ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الدينى لليهود وحسب • بل على أن هؤلاء كانوا منظمين أحسن تنظيم » •

إننى أترك هذه الفقرة لحكم القارئ دون تعليق •

مع إميل فيلكس جوتييه

كتب بعض المستشرقين عن الإباضية كما كتبوا عن غيرهم من المسلمين •

ولعل نقط الانطلاق التى يبدأ منها المستشرقون مسيرتهم — حين يكتبون عن القضايا الإسلامية خاصة • وقضايا الشرق عامة — هى فنظرة واحدة ، يستطيع الدارس أن يحددها ويرسمها فى وضوح فى كتاباتهم •

أما الدوافع التى تدفع أحدهم إلى الكتابة عن بلد أو قضية أو فرقة •

فهى تختلف من شخص إلى شخص • ومن دولة إلى دولة • وإن كانت غالبا ما تتلاقى فى أصول ثابتة عندهم لا تعدوها • وإنما تتسم كتابة كل واحد منهم بطابعه الخاص المميز • حسب تكوينه الخلقى ، وإدراكه لنوعية القارئ الذى يقصده بالذات ، ويتجه إليه برغبته فى إحداث التأثير عليه ، وإقرار مفاهيم معينة فى ذهنيته • ثم مدى حماسه لدوافعه الحقيقية ومدى تمكنه من السيطرة على انفعالاته ، وإحساساته ، وتأثيراته النفسية بالأحداث والقضايا التى يعالجها •

ينظر المستشرقون إلى الإباضية — عندما يتحدثون عليهم — من نفس الزاوية التى ينظر منها أكثر المؤرخين • فيعتبرونهم فرقة من فرق الخوارج وليس هذا فحسب بل إنهم ينسبون إليهم جميعا كل ما يمسدر عن شواذ الخوارج وعن المغامرين من طلاب الحكم أو المال • ممن كانت لهم حركات عنف فى جهة من الجهات •

بين يدي الآن مجموعة من كتابات المستشرقين الذين تحدثوا عن الإباضية وسوف آخذ منهم نموذجين للمناقشة •

الأول : إميل فيلكس جوتييه كنموذج للمستشرق المتطرف الذى لا يخفى عصبية الغرب ، ولا محبته لاستعمار الشرق ولا أسلوبه فى الكيد •

والثانى : كارلو الفرنسو فليينو كنموذج للمستشرق الذى يسير وفق منهج علمى واضح •

وفى هذا الفصل نقف وقفات قصيرة مع المستشرق جوتييه فى كتابه « ماضى شمال إفريقيا » والحقيقة أن القارئ النصف عندما يقرأ هذا الكتاب يحس بالكيد الاستعمارى فى كل صفحة من الكتاب ، وتتراقص أمام عينيه الدسائس فى كل موضوع ، وإلى القارئ الكريم بعض الصور الواضحة التى تتبدى له وهو ماض فى القراءة :

١ — حرص شديد على إثارة النزعة القبلية بين البربر • والعمل على تذكيرهم بأنهم ينتمون إلى قبائل شتى مختلفة تنتمى كل واحدة منها إلى عرق • وأن بعض تلك القبائل كانت مؤهلة لأن تحكم وتسود ، وأن قبائل أخرى لا تستحق ذلك الشرف • وأن صراعا عنيفا وقع بينها تغلبت فيه هذه على تلك بسبب ظروف خارجية هى مجئ الإسلام ومساعدته لبعض تلك القبائل على بعض فضيع عليها فرصا للمجد • وهذه الصورة واضحة تتراءى لك فى كل موضوع •

٢ — محاولة إثارة العنصرية بين العرب والبربر ، واعتباره الممارك

الحامية التى وقعت زمن الفتح الإسلامى ليست هى معارك بين الإيمان والكفر وإنما هى معارك بين عرق وعرق • أو هى معارك بين غاز يريد الاستعمار والاستثمار ، ومدافع عن بلاده وخيرات أرضه • يكذلك ما وقع بعد ذلك من ثورات وحروب بسبب انحراف الحكم يردّها كلها إلى صراع ، قبلى عرقى ليس أكثر •

٣ — التهوين من شأن البربر من الناحية الحضارية عند مقابلتهم بالعرب والتهوين من شأن العرب أيضا من هذه الناحية عند مقابلتهم بالرومان أو الإغريق أو حتى بالأمم الشرقية المجاورة لهم كالفرس •

٤ — الرفع من قيمة الرومان وإرجاع ما فى المغرب من مظاهر الحضارة والازدهار فى القديم إليهم وحدهم أما فى الحديث فالإلى فرنسا •

٥ — الحرص على تصوير الخوارج عموما فى شمال إفريقيا بأنهم بدو ، ولا يمكن أن تقوم على أيديهم حضارة ، وإعطاء هذه الصورة نفسها عن البربر أيضا وعن العرب • وإرجاع التراث الحضارى الإسلامى إلى ما يسميه — الحس الحضارى — العميق الجذور الباقى والمترسب عن الشعوب التى استعادت المغرب قبل الفتح الإسلامى وأهمها الرومان •

٦ — الزعم بأن الحضارة التى قامت فى العهود الإسلامية إنما قامت فى نفس الأماكن التى قامت فيها الحضارة قبل الإسلام — بالحس الحضارى — السابق ، حتى أن المدن الهامة فى المغرب الإسلامى إنما قامت على أنقاض المدن الهامة فى العهد الرومانى •

٧ — تصوير حركة الخوارج بأنها هرطقة تستمد جذورها من الدوناتية المسيحية •

هذه بعض الصور التي تلمسها وأنت تقرأ ما كتبه جوتييه عن الإباضية ولا شك أن صوراً أخرى كثيرة تبدو لك وأنت ماض في قراءة الكتاب •

أما فيما يتعلق بالإباضية فلعل القارئ يرافقني في الخطوات القصيرة الآتية : يتحدث المؤلف عن الإباضية تارة ضمن الإطار الخارجى ، وتارة يخصهم بالحديث حيث يقول في كتابه (ماض شمال إفريقيا) ترجمة هاشم الحسينى نشر الفرغانى ص ٢٠٠ ما يلى : « ولكى نفهم مذهب الخوارج ينبغى ألا نenzله عن غيره ، بل يجب أن نقر به من الثورات الأخرى التى عرفها المغرب ، حيث نجد وراء الهيجان الدينى انتفاضة للمشاعر الطبقيّة والعرقية ، والخارجية شبه شئء بهرطقة مسيحية هى الدوناتية ، وقد ولدت فى عصر كان فيه كل شئء مطبوعاً بالطابع الدينى • وقد شدد ماسكرواى على وجود شبه بين الدوناتية والخارجية » • ويضيف المؤلف إلى هذا القول فى صفحة ٢٠٢ ما يلى :

فماسكرواى على حق إذن فى ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية ، لا بل إن الخارجية هى الدوناتية عينها منقولة عن الإطار المسيحى إلى الإطار الإسلامى » • هذا نمط من أنماط التحليل والحكم عند جوتييه أى لى نفهم معنى الخارجية يجب أن نقر بها إلى غيرها من الثورات الواقعة فى المغرب ، وتلك الثورات إنما قامت — فى نظر جوتييه — على الهيجان الدينى والمشاعر الطبقيّة • وليس فى هذا ما يمنع أن تكون

الخارجية في الإسلام هي الدوناتية المعروفة في المسيحية ، وانتقلت عبر
المصور حتى واتتها ظروف الظهور فظهرت في هذا النمط . أى أنه حتى
الانحرافات والتطرفات عند المسلمين ينبغى أن تكون مستمدة من
المسيحية ، أو من الغرب ، ذلك أن الشرق بما فيه — حسبما يريد
الاستشراق — ليس له قوة الحركة والانتفاض والحياة .

ويقول جوتييه في نفس الكتاب ص ٢٠٧ ما يلى :

« وينقسم خوارج المغرب إلى فرقتين : الصفرية والإباضية وتمثل
الصفرية التطرف ، والإباضية الاعتدال ، وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة ،
تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور . لقد هاجم صفريو نغزاوة وورفجومة
مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها » .

ثم يقول في صفحة ٢٠٩ ما يلى :

« وقد زحف أباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بنى
ورفجومة ، وانتراع بقايا القيروان منهم . على أن تدخل هؤلاء لم يكن
بدافع إنسانى محض . إذ ليس من المستبعد أن يكونوا قد شعروا بالحدس
من إخوانهم فى المذهب ، وأرادوا أن يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة »
هذا منطق المستشرق جوتييه فى مناقشة الأحداث وتحليل بواعثها وتعليل
الدوافع إليها . يفترض أولا أن الإباضية والصفرية إخوان فى المذهب ،
ويفترض ثانيا أن عداوة عميقة الجذور — كالتى بين البلاشفة والمناشفة —
تقوم بينهم ويذكر أن الصفرية قاموا باحتلال القيروان وارتكبوا فيه
كثيرا من الفضائح ثم يذكر أن الإباضية سارعوا إلى طرد الصفرية من
(م ١٦ — الإباضية)

القيروان • ويفترض ثالثا أن عمل الإباضية هذا لا ينبعث من دافع إنسانى ، ويفترض رابعا أن هذا الدافع الذى دفع الإباضية إلى استخلاص القيروان من أيدى ورفجومة إنما هو الحسد لإخوانهم فى المذاهب ثم الظفر لأنفسهم ببعض المكاسب • قصور فى الافتراضات يرفع بعضها على بعض دون أساس أو على أساس من الوهم • وتصوير وتصوير لعلاقات بشرية ، ونوازع نفسية لاثنين على علم ولا تستند على خبر • وإصدار أحكام على حركات قامت قبل قرون تتناقض كل المناقضة ما تذكرها عنها كتب التاريخ والسير العربية • فما هى الأسباب التى يستند إليها المستشرق جوتية فى افتراض الفروض وإصدار الأحكام على الوقائع وعلى دخائل النفوس • إنه لا شئ مطلقا غير دعوى عريضة وقياسات على ما عند الغربين ، إنه يقول إن الإباضية طردوا الصفرية من القيروان حسدا وطمعا فى بعض الفائدة • والحسد دافع نفسى خفى كيف فطن له هذا المستشرق الذكى بعد مضى هذه القرون الطويلة •

إنه لو اقتصر على دعواه أنهم يطلبون لأنفسهم بعض المكاسب — رغم أن كتب التاريخ تكاد تجمع أن الإباضية فى استيلائهم على القيروان لم يأخذوا منها شيئا ألبته ما عدا خرجا سرقة أحد المقاتلين فلما انكشف عوقب عليه وعزر أمام أعين الجند جميعا — لكان لدعواه خطأ فى النظر • لأن نظرة المستشرق جوتيه إلى حركات الدول والشعوب لا تنبثق إلا من الفهم الاستعمارى ، والفهم الاستعمارى لا يتحرك إلا بعد تقدير الفوائد والمكاسب والمغانم • أما ما عبر عنه هو بالدوافع الإنسانية فقد قتلت فى الحس الغربى فى معاملته • والدوافع الإنسانية فى الحس الغربى إنما قتلها حملة الأقلام والألسنة ، قبل أن يقتلها حملة السلاح وطلاب المطامع •

وما من حملة عسكرية وجهها استعمار الغربى إلى الشرق فى التاريخ القديم أو الحديث حتى تلك التى سبقت الديانات إلا وقد مهدت لها السنة وأقلام سابقة ، وبرزتها السنة وأقلام مرافقة ، وأثبتت عليها ومجدتها وأقلام لاحقة . وإنك لتقرأ اليوم للمستشرق جوتيه وأضرابه فتجدهم يبرزون بل يمجّدون جميع الحملات الاستعمارية التى قام بها الإغريق والرومان بل ويتحدّثون عنها بشيء من الفخر والاعتزاز ، ولا يبدو أنهم يحسون بأن تلك الحملات الاستعمارية فى تاريخ سحيق كان الباعث عليها والدوافع إليها إنما هو الحصول على الفوائد ، ولم يزعّموا أن سببها كان الغيرة والصد . ذلك أن للمستشرقين منطقتين : منطق يعالجون به قضايا الغرب ومنطق يعالجون به قضايا الشرق . ولم يدخل فى اعتبارهم أبداً أن الغرب والشرق يستويان فى أى مظهر من مظاهر الحياة ، وإكانوا يسبقون على جميع مواقفهم دعوى فضفاضة بأنهم متجردون للعمل تحت اسم البحث العلمى .

ويقول فى صفحة ٢٢٤ ما يلى :

« وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقة مرموقة كما هى حال المملكة الإدريسية ، والأسره الفاطمية ، إنه عبد الرحمن بن رستم ، ويرجع أصله الى رستم الشهير الذى قاد الجيش الفارسى فى معركة القادسية ، وهو فارس من أحفاد ، كسرى ، ولا غرابة أن شاهدناه على رأس فئسة من الهراطقة فى الوقت الذى ازداد فيه النفوذ الفارسى زمن العباسيين » .

هكذا يعلل جوتيه نجاح الدولة الرستمىة بتغلغل التأثير الفارسى فى الدولة العباسية . ولا شك أن التغلغل الفارسى — إن صح هذا التعبير — كان لتأييد الدولة العباسية وتثبيت دعائمها . ولا شك أن الدولة الرستمىة

بزعامة عبد الرحمن ومن بعده كانت مناهضة للدولة العباسية فكيف استطاع جوتيه أن يوفق بين هذا ؟ فيجعل سبب نجاح الدولة الرستمية إنما يرجع الى وجود يد فارسية ، واليد الفارسية كان لها النفوذ الواسع في الدولة العباسية • فكيف سمح النفوذ الفارسي المتغلغل في الدولة العباسية أن تنتشق عنه يد فارسية لتضرب هذه الدولة المبنية على النفوذ الفارسي • إنه تناقض واضح في المنطق وفي أحداث التاريخ لأن وجود عبد الرحمن ابن رستم في المغرب العربي لم يكن له أية علاقة بالقومية الفارسية ولا الفرس الذين تغلغلوا في الدولة العباسية • ولا بأمجاد الفرس التي انتهت بظهور الإسلام والسبب في هذا واضح فإن عبد الرحمن قد انقطعت صلته بالفرس تمام الانقطاع وهناك حلقة من طفولته غير واضحة إلا أن كتب التاريخ تذكر أنه حج مع والده فتوفي والده بمكة وتزوجت أمه برجل من المغرب (القيروان) فرحلت معه ورحل معها طفلها عبد الرحمن وهناك في القيروان تكون عبد الرحمن في مجتمع مسلم فقط أهله من العرب والبربر ولم يعرف أن أحدا من الفرس كان هناك فلا مجال أبدا للمحاولة في ربط هذه الحركة بحركات أخرى في الشرق تنبعت من دوافع قومية •

إن المستشرق جوتيه يضع نصب عينيه فرضاً ثابتاً لا يتحول عنه هذا الفرض هو أن الإسلام ممثلاً في مذاهبه كلها أو في بعضها لا تقوم على يده حضارة • فإذا قامت حضارة في مكان ما فلا بد أن يكون هناك سبب خارج عن الإسلام والمسلمين وبما أن الدولة الرستمية قد قامت على يدها حضارة لا يمكن أن يكذبها التاريخ فالمستشرق جوتيه يعترف بوجود تلك الحضارة ولكنه ينكر أن يقوم بها الإباضية وإنما يعزوها لعاملين : الحس الحضاري الروماني ، والقومية الفارسية التي تمثلت في عبد الرحمن بن رستم •

وكأنما يريد أن يقول أن بيئة المغرب الإسلامى لا يمكن أن تنجب قيادات فإذا قامت فيها حركة فلا بد أن تكون القيادة مندسة من جهة ما كما هو الحال مع الدولة الإدريسية والفاطمية والرسومية • وما دام الإباضية يمثلون فى نخلر (جوتييه) فرقة من الهراطقة مفتقرة الى زعيم فليكن هذا الزعيم فارسيا تغلغل فى المغرب كما تغلغل فى المشرق وأخوته من الفرس ، وأن معارضا للمخطط الفارسى فى تأييده للدولة العباسية • وهذا التمثل والتأويل كله لتسقيم فرضيات جوتييه »

ويقول جوتييه فى صفحة ٢٢٧ ما يلى :

« يقول ما سكوراي بحق ما من واحدة بين قابس وفجويج وسجلمانة ألا وهى مدينة بتطورها للخوارج — صفرين كانوا أم إباضيين — لقد كانوا سادة الصحراء » •

ويقول فى صفحة ٢٢٨ ما يلى :

« إن تاهرت كانت مركزا سياسيا هاما فى الفترة التى رافقت ظهور الجماليين الرحّل القادمين من الشرق ، والذين كان لهم شأن كبير فى زعزعة أركان نوميديا » . ويقول بعد أسطر :

« وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزا للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هربا من الحر الشديد » •

ويقول فى صفحة ٢٢٩ ما يلى :

« وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة أن تاهرت مملكة

للبدو الأقحاح ، وقد اختفى الإباضية كفرقة دينية في تاهرت اختفاء تاما في حين استمروا على شكل جماعات صغيرة في جبل نفوسة والزاب أى في المناطق الصحراوية ، وليس الأمر وليد صدفة لأن قوة الدولة الرستمية كانت في الصحراء » •

ويقول في صفحة ٢٢٩ ما يلي :

على أن هذه القبائل الرستمية من البدو الرحل على كل حال •

ويقول في صفحة ٢٣٠ ما يلي :

« إن مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضى الوعرة والصحراء » •

يفرض المستشرق جوتيه أن الإباضية عبارة عن قبائل بدوية ويركز على ذلك تركيزا شديدا ، ويدعى أن طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها طبيعة صحراوية بدوية • ولما كانت تاهرت تمثل مظهرا حضاريا واضحا لا يمكن تجاهله وأن هذا المظهر يرد دعوى المستشرق هذه فقد حاول أن يهرب من مجابهة المشكلة بنوع من الأهواء فزعم أن الإباضية بدو أقحاح وأن تاهرت هى مملكة للبدو الأقحاح يعيشون عليها • ولكن أحدا لا يقتنع أن البدو الأقحاح يكونون مملكة كما أن طبيعة تاهرت نفسها تستعصى على وصفها بالبدواة وهى التى يقول فيها هذا المستشرق نفسه في صفحة ٢٢٨ •

« تقع تاهرت على ارتفاع ١٢٠٠ متر ولا يقل ارتفاع المناطق

المحيطة بها عن ألف متر وشتاء تاهرت يمتاز ببرودته وضبابيته ورطوبته
وثلوجه أى على عكس الصحراء تماما » • فلما وجد أن حقيقة تاهرت
تتعارض مع وصف البداوة ووجد أن الإباضية قد أقاموا في هذا المكان
دولة بالفعل ظلت مزدهرة قرنا ونصف على أقل تقدير ما يبعد عنهم
وصف البداوة افترض فرضا خياليا وهو أن الإباضية — وهم بداءة —
كانوا يقصدون تاهرت في الصيف هربا من حر الصحراء أى أن تاهرت
كانت مصيفا للبدو الرحل • وكأنما كانت الدولة الرستمية قطعا من
الأراجوز تتفرق خلال السنة في مناطق عدة فإذا جاء الصيف اجتمعت في
تاهرت للقيام بدور الدولة لمحرك خفيف يبعث بالأزرار من وراء ستار •

وكانما هذه الافتراضات كلها لم تقنع جوتيه نفسه فكان يلح على
مزيد من الافتراضات • ولكن افترضه الأول « الإباضية قبائل من البدو
الرحل الأفحاح » افتراض لا يحتمل المناقشة ولا يقبل النقد عنده ولذلك
كان عليه أن يلتمس الحلول لما ترتب عن هذا الافتراض من مشاكل وجاءت
الحلول بعد مجموعة من الافتراضات يبنى بعضها على بعض •

الافتراض الأول الإباضية لا يكونون إلا بدوا رحلا •

الافتراض الثانى البدو الرحل لا يمكن أن يتغيروا فيصبحوا بنساء
حضارة تاهرت حقيقة واقعة •

قيام حضارة في تاهرت حقيقة واقعة عندما كانت تحت سلطان
الإباضية •

الافتراض الثالث الإباضية لم يكونوا يقيمون في تاهرت وإنما كانوا

يتخذونها مصيفا فيقبلون عليها في موسم الحر ويتخلون عنها وينزحون بعيدا في بقية المواسم والفصول •

فكيف قامت تلك الحضارة في تاهرت تحت حكم الإباضية ؟

الجواب في ذلك عند جوتييه بسيط والسبب واضح معروف •

إن الحضارة إنما قامت في تاهرت بالحس المدنى الروحانى السابق كما أوضحت ذلك للقارىء الكريم من قبل • ولا بد للإباضية ولا لسكان تاهرت ولا لدولتهم في ذلك • وليتضح لك هذا المعنى اقرأ للمستشرق جوتييه في كتابه ص ٢٢٧ ما يلى :

وليس في تاهرت اليوم سوى آثار رومانية ، ويفترض غيزل أن الرومان أنشأوا فيها مراكز عسكرية على الحدود ، ثم منطقة سكنية للمدنيين ، ولم يجد الآثار الباقية ما يؤيد فكرته ، وكان لتاهرت أهمية كبرى في عهد السيطرة البيزنطية •

ويقول بعد أسطر :

« ومن الناحية الأثرية البحتة هناك آثار الجدار جنوبى تاهرت في المنيا العليا • وهى عبارة عن أضرحة شبيهة بتلك الموجودة في مدغاس « وبقبر المسيحية » ولكنها تعود لوقت متأخر عنها وقد عثر فيها على كتابة إغريقية ، كما استخدم في بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا هندسية مسيحية وكتابات منقوشة •

« ويستنتج غيزل أنها عاصرت العهد البيزنطى وينسبها إلى أهالى تاهرت » •

ويقول جوتييه :

وتاهرت في العهد البيزنطى كانت في نفس المكان الذى تقع فيه اليوم وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميال غربى تاهرت القديمة .

وإذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكد أن المدينة القديمة ماثلة في الأذهان » .

وعندما يتتبع القارىء الكريم البحث كله في هذا الفصل يجد أن الصورة التى يرسمها جوتييه تبدو كما يأتى :

إن الإباضية باعتبارهم خوارج لا يكونون إلا بدوا وطبيعة البدو لا تستقر في مواضع الحضارة ، ولا تبنى نظاما ، ولا يثبت لها حكم ، وقد قامت بالفعل تحت حكم الإباضية حضارة دامت قرنا ونصف ، وثبت لهم هناك الحكم فما هو السبب ؟

السبب أن هذه الحضارة إنما بنتها يد فارسية تجرى فيها دماء الحضارة — وفي موطن قامت فيه حضارات بيزنطية ، ورومانية قبل الفتح الإسلامى . فالكان منبت خصب للحضارة واستقرار الحكم .

أما علاقة الإباضية بالموضوع فهى لا تتعدى رحيلهم إليها فترة من السنة ، واتخاذها مصيفا . أما البناء الحقيقى الذى قام عليه الحكم وتبحث عنه الحضارة فإنما قام على ركنين أساسيين : الحس الحضارى الفارسى الواقد من الشرق في صورة عبد الرحمن والحس الحضارى الغربى المندس في قرية تاهرت منذ عشرات القرون عندما كان هناك

الرومان • أما ما ينسب إلى الإسلام أو إلى مذهب من مذاهبه مما يقوم به أتباعه فهو طفح ظاهري لا يتجاوز الأسماء •

بعد هذا أحب أن أقول إن هناك عدة أشياء تقوم ضد افتراضات جوتيه وتدحضها ولعلها تتلخص فيما يلي :

١ — عبد الرحمن بن رستم وإن كان فارسي الأصل إلا أنه خرج دون أن يعي أو يعرف شيئاً عن حضارة الفرس وعاش في القيروان واكتسب موأبه في بيئة بربرية ثم عربية محضة ثم هو فرد واحد فما عساه أن ينجز من مقومات الحضارة • فإسناد الحضارة التي قامت في تاهرت إلى شخصية عبد الرحمن الفارسية ضرب من الخيال •

٢ — اعتبار أن الحضارة التي قامت في تاهرت كان من أهم عواملها ذلك الحس الحضاري المختلف في تربتها منذ قرون من حضارة الرومان • وأن الحضارة لا تنبت إلا في أماكن خاصة بها كما تنبت الأشجار في تربة معينة وأن هذه التربة المعينة لا بد أن تكون قد أعدتها في يوم من الأيام دولة تحمل مقومات الحضارة وعلى هذا الأساس فقد نبتت الحضارة في تاهرت زمن الحكم الإباضي لأن تربتها صالحة لإنبات الحضارة بعد ما أعدها الرومان لذلك في عصور سابقة وهذا المنطق هو الآخر ضرب من الوهم والخيال ولا شك أن الإنسان هو الذي يكون الحضارة وأنه هو الذي يختار لها البيئة والمكان ، ولذلك فإن المسلمين على اختلاف مذاهبهم قد كونوا حضارات مختلفة في أماكن مختلفة بمحض اختيارهم للمكان والبيئة — كما كون غيرهم — فإذا صادف أن حضارات متعددة من أمم متعددة قامت في مكان واحد • فليس

ذلك لأن ذلك المكان ينبت الحضارة • وإنما لأن الإنسان الذى يعرف كيف يكون الحضارة قد وقع عليه اختياره •

٣ — اعتباره أن الإباضية (بدو أفحاح) فرضية لا يساعده عليها التاريخ • ونظرة تتبعية بسيطة إلى تاريخهم فى المغرب الإسلامى ومضطر بهم فيه منذ وجودهم فيه إلى عهد المستشرق جوتيه تدل دلالة واضحة أنهم ليسوا كما يزعم • وأنهم إلى التحضر أقرب فى جميع مواطنهم ويتضح ذلك فى الصور الآتية :

الأولى : كانوا يعمرن جبل نفوسة بمدينة وقراه فى (ليبيا) ولهم فيه حياة حضرية مستقرة إلى الآن وكانوا يعمرن جزيرة جربة ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى الآن فى زوارة • وكانوا يعمرن المدن والقرى فى الجنوب التونسى سواء ما كان منها فى الجبال أو الواحات ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى عهد قريب وكانوا يعمرن تقرب وبغابى وما إليها ولهم فيها حياة مستقرة سجلها التاريخ وكانوا يعمرن وارجلان وسدراثة ولهم فيها حياة حضرية مستقرة بل إن سدراثة تعتبر من المدن الأثرية الجزائرية فى العهد الإسلامى • أما وارجلان فقد كانت مركزا حضاريا تجاريا بين الجزائر وإفريقيا السوداء وكانت مركز القوافل ومقرها وممرها ولا تزال • وكانوا يعمرن وادى ميزاب ولهم فيه حياة حضرية مستقرة ربما فاقت مدن الشمال ولا تزال •

هذه أهم أماكن الإباضية فى المغرب • ولا يمكن أن يقال عن هؤلاء : — بحال من الأحوال — أنهم بدو • أما الذين سكنوا — منهم المغرب الأقصى أو بعض بلاد الأندلس • فلا يستطيع أحد أن يصفهم بالبداوة •

الثانية : كانت هنا لك بعض القبائل البدوية التي اعتنقت المذهب الإباضي واستمرت على حياتها فترة من الزمن ولكن الإباضية كانوا يقاومون البداوة مقاومة مستمرة ويتخذون معها مواقف غاية في العنف منها إنهم يمنعون تزوج الحضرية بالبداوى حتى أنهم شددوا على أبى عثمان الدجى حين زوج بنته (منزو) وبمحض رغبتها واختيارها لأحد أقربائهم من البدو وندم أبو عثمان على عمله ذلك ندما شديدا فليما بعد •

وكما قال أحد علمائهم حين وجد شخصا يعرفه يرعى غنما : نعمت الغنم التي ترعاها لحية ، وبئست اللحية التي ترعى الغنم • وعندما لا يتمكنون من إقناع حى أو قبلة بترك البداوة كانوا يعملون على إدخال أنواع من وسائل التحضر إليهم فكانوا يكونون لهم ما يشبه ما يسمى اليوم بالمدارس المتنقلة لتعليم أبنائهم ولساجدهم وما يتبعها من مرافق وكانوا يتعهدونها بالزيارة ودروس الوعظ والإرشاد والتثقيف •

الثالثة : حياة الإباضية على عمومها كانت تعتمد على ثلاثة أسس :

١ — التجارة : وقد اشتهر بها أهل جربة وأرجلان ووادي ميزاب حتى أن الاقتصاد في كل من الجزائر وتونس كان يعتمد اعتمادا أساسيا على مواهب الإباضية في التجارة ولا تخلو مدينة أو قرية في الجزائر وتونس — في قرون طويلة — من الأيدي البارة لتجار الإباضية •

٢ — الصناعة : ولاسيما صناعة الصوف وقد اشتهر بها جبل نفوسة وجبال دمر ووادي ميزاب فكانت هذه الصناعة تكون ركنا هاما من دخل الأسرة ومن اقتصاد البلاد حتى إشتهرت في الأسواق •

٣ — الزراعة : وهى مصدر أساسى للثروة وتقوم فى جميع مواطن
الإباضية لاسيما الوحدات •

ويبدو لى أن الأمة التى تبنى حياتها على الاقتصاد الذى يتكون
من تجارة وصناعة وزراعة لا يمكن أن تكون أمة بدوية — وأن العبد
والأقحاح لا يمكن أن يحاربوا البداوة بكل الأساليب حتى يبلغ بهم الأمر
إلى منع الزواج من أهل البادية • ويكفى هذا لمناقشة هذه النقطة ويقول
المستشرق جوتيه ص ٢٣٣ ما يلى :

« وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر • فالزانى
يرجم ، والسارق تقطع يده » •

وقد يكون جوتيه لا يجهل أن هذه العقوبة هى ما قرره الإسلام •
وأن جميع المذاهب الإسلامية ملزمة بهذا سواء نفذته حكوماتها القائمة
أو لم تنفذه • وإنما حرص أن يذكر هذا عن الإباضية أولا لأنه يريد
أن يوحى للقارئ أن الإسلام دين بشرى يفرض قوانينه ناس من
البشر ، وثانيا ليوحى للقارئ الكريم أن الإباضية باعتبارهم من الخوارج
المتشردين ، ومن البدو الجفاة الغلاظ ينتهجون القسوة فى أحكامهم : ومن
الأمثلة على انتهاجهم هذا النهج هذا الحكم الصادر على الزناة والسراق •

ولعل مما يساعد القارئ على فهم منهج جوتيه فى مناقشة موضوع
الإباضية وأسلوبه فى ذلك أن أعرض عليه صورا أجراها المستشرق فى
أسلوب مقارنات •

الصورة الأولى :

يقول وهو يرسم هذه الصورة في صفحة ٢٣٠ ما يلي :

« ويساعدنا أبو زكرياء على رسم صورة عن الإباضى : شعره ذو ظفائر يحمل مهندا مستقيما طويلا ، له حدان قاطعان ، يختلف عن السيف واليطلقان • كما يحمل خنجرا مربوطا بذراعه » • إنها كما ترى تبدو صورة كاركاتورية هزلية مضحكة قد ترسم لشخص أو لعدد من الأشخاص •

وبناء على هذه الصورة التى يرسمها جوتيه بمساعدة أبى زكرياء على زعمه للإباضية — نستطيع أن نضع لها إطارا عاما كما يلي :

شعر مظفور •

سيف طويل مستقيم ماضى الحدين يختلف عن الیطلقان •

خنجر مربوط بالذراع •

فإذا توافرت هذه الأشياء الثلاثة فى رجل فهو إباضى وإن تخلف بعضها فليس كذلك — هذا فى زعم جوتيه •

هذه الصورة الكاركاتورية إنما تبعث على الضحك ممن يرسمها وينسبها للإباضية أو لغيرهم فهذا كلام من الخواء بمنزلة لا يرتفع معها إلى مرتبة ما يناقش ويلتمس فيه الخطأ والصواب •

الصورة الثانية :

يقول جوتييه في صفحة ٢٣٠ من نفس الكتاب ما يلي :

« وأظن أن ماسكوراى على حق في مقارنته (١) مع ابن الطوارق حاليا ، ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد في وضوح الشبه ، وذلك أن المرأة عند الطوارق تحتل في علمها وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة في بلاد المغرب ، لقد عنى ماسكوراى بالطوارق عناية كبيرة • وليس مستبعدا على كل حال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قد تركوا بعض مميزاتهم لطوارق الهقار وهم من تبقى من قبيلة هواره • هكذا ترى أيها القارئ الكريم أن المستشرق ماسكوراى — وقد عنى بالطوارق — يعقد بينهم وبين الإباضية مقارنة ويزعم أنه توجد بينهم وجوه شبه تتلخص في شعر مظفور ، وسيف طويل مستقيم ذى حدين قاطعين : وخنجر مربوط بالذراع • ويصحح المستشرق جوتييه تلك المقارنة بمرجح آخر وهو أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد في وضوح الشبه بين الإباضية والطوارق لأن المرأة الطارقية تحتل في علمها وثقافتها مكانة المرأة في المغرب • وبذلك فلا مانع من أن يكون الطوارق قد تسلموا عن الإباضية هذه المميزات الواضحة عندهم اليوم •

ياله من منطق سليم :

لقد غفل كل من المستشرقين الكبيرين عن دعوى هامة يدعيها كلاهما وترتكز عليها أكثر أبحاثهما وأبحاث من يجرى على نسقهما وذلك

(١) مقارنة الاباضى مع ابن الطوارق .

أنهما يدعيان — ويؤكدان ذلك — إن الإباضية بدو أقحاح • وأن البداوة لا يمكن أن تكون مصدر علم وحضارة • فكيف تأتي للمرأة الإباضية — وهى بدوية قحة — وكذلك للمرأة الطارقية التى تسلمت منها مميزاتا • وسارت بأسلوبها فى الحياة — أن تكون فى ثقافتها وعلمها فوق المرأة فى بلاد — المغرب ؟ كيف استساغ عقل ماسكوراى وعقل جوتيه أن يزعم أن المرأة الطارقية — وهى تعيش فى خيام متنقلة • المناطق الصحراوية تتبع مواقع الغيث • وتتقضى أهم أوقات عمرها فى رعاية الماشية — أكثر ثقافة وعلمًا من المرأة التى تعيش فى تلمسان والرباط والجزائر وقسنطينة ووهران •

قد يكون كلام ماسكوراى على نوع من التأويل لأنه وصف المرأة الإباضية بالثقافة أو بأنها مثقفة • وهذا قد يكون صحيحا إلى حد بعيد — من حيث الواقع — لأن الإباضية لاسيما فى الجزائر يسكنون فى عدد محدود من المدن طيلة عدة قرون • وهم بعداء جدا عن طبيعة حياة البدو الرحل ، وإن كانوا يعيشون فى واحات فى مناطق صحراوية • ثم إن لهم مؤسسة العذابة التى تم تنظيمها فى أوائل القرن الرابع الهجرى وهى تشرك معها المرأة فى القيام بمهمة الثقافة والتعليم فى ميادين الشريعة كما أن لهم أساليب خاصة فى واجبات المرأة المنزلية والصناعية • ولا شك أن معانى الحضارة • ومظاهرها عند الإباضية من سكان الجزائر أقوى منها وأوضح مما فى كثير من مدن الشطوط والسواحل • وفى مثل هذه المجتمعات المستقرة فى مدن الواحات العريقة والمحافظة لا نجد غرابة إذا وصفت فيها المرأة بالثقافة ، والثقافة فى هذا المجال إنما تفى بالدرجة الأولى • معرفة المرأة لأحكام الدين المتعلقة بها ، ثم بالأسلوب المقبول فى السلوك الاجتماعى فى الوسط الذى تعيش فيه ،

وتكتسب المرأة كثيرا من ألوان الثقافة الاجتماعية والبيئية بالانتباس والمحاكاة والتقليد وهذا — لا شك — متوفر في المجتمع ومستقر ومحافظ ومحتفظ .

فمساافة البعد المرأة الإباضية التي تعيش في هذا الوسط والمرأة الطارقية التي تعيش وراء الموشى منتقلة في الخيام باستمرار مسافة شاسعة لا تجدى فيها المقارنة .

وماسكوراى قد يكون على حق حينما قال إن المرأة الإباضية مثقفة . أما جوتيه وقد وثب وثبة لا حدود لها حين تجاوز مرتبة الثقافة إلى مرتبة العلم فزعم أن الطارقية تحتل في علمها وثقافتها مرتبة فوق ما عند المرأة في بلاد المغرب .

وأحسب أنه من البدهية أن وصف المرأة الطارقية بأن لها مركزا علميا وصف لا مدلول له . أما وصفها بالثقافة فلو كان الوصف هكذا مجردا لاحتمل النظر والبحث . أما دعوى أنها تحتل مركزا ثقافيا فوق ما عند زميلتها المرأة في المغرب . فهي دعوى باطلة ، وحكم لا سند له . وبعد كل هذا فإن محاولة مقارنة الإباضية بالطوارق ووجود شبه مادی معنوى بينهم لغو من الكلام وباطل من القول وذلك أمر بديهي لا يحتاج إلى أى بحث أو تفكر ضرورة أن الإباضية مذهب إسلامي له قواعد وأصول . وله عقائد وعبادات وشرائع في الإمكان أن يعتنقها بعض الطوارق أو كل الطوارق كما يمكن أن يعتنقها غيرهم من القبائل والأجناس البشرية .

إن الطارقية جنس أو قبيلة أو نسب والإباضية فكرة أو مذهب أو دين
فما الذى يجمع بينها حتى نقول بوجود شبه أو تقارب •

هل تستطيع أن تقول أن هناك شبها بين الأوس والخزرج والمذهب
المالكي مثلا أو أن المالكية انحدروا من الأوس والخزرج — ثم ما علاقة
اللباس أو السلاح بالمذهب أو العقيدة • لا شك أن البيئات المختلفة
تختلف في لباسها وأنواع السلاح المستعمل لديها فما دخل المذهب في
ذلك • نحن نعرف أن للمغاربة والجزائريين تقاليد خاصة في اللباس
وأسلوبا خاصا في استعمال السلاح ونعرف أيضا أن لتونس أو لليبييا
أو لمصر أو لغيرها تقاليد تخالف ما درج عليه في البلاد الأولى • ونعرف
أيضا أن أصحاب المذاهب المختلفة في البيئة الواحدة يختلفون في المذهب
ويتفقون في أسلوب الحياة ومظاهرها من لباس وعادات وتقاليد •
ولباس الإباضى الذى يعيش في الجزائر غير لباس الإباضى الذى يعيش
في تونس أو في ليبيا فإذا كان للطوارق عادات خاصة في أنواع اللباس
أو السلاح فإن من يعتنق المذهب الإباضى منهم يكون على لباسهم
وقيافتهم ولذلك فلو وقفت بين الطوارق أو في أى مكان لما أمكنك أن
تميز بين المذاهب بمظهر اللباس ولكنك تستطيع بسهولة أن تميز بينهم
من حيث اللباس فتعرف أن هذا طارقي وهذا جزائري وهذا
ليس الخ •

إن هذه النقطة أخذت منا أكثر مما تستحق وهى دليل واضح على
أن المستشرقين يعمدون إلى توافه الأمور فيوجهون إليها عنايتهم ويواونها
جانبا من الاهتمام يشغل ذهن القارئ العادى ويصرفه عما هو أجدى
له وأحق بمعرفته •

الصورة الثالثة :

يقول جوتييه — وهو يرسم هذه الصورة — في كتابه ص ٣٣٣ ما يلي :

« وقد تحدث ماسكوراى عن الشبه بين الإباضية والوهابية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، فى أواسط شبه الجزيرة ، وكتب عنها بلغريف كتابا موقفا . ذاك أن الوضع الجغرافى متشابه فهنا وهناك نجد بدوا بعيدىن عن البحر يعيشون على قحط الصحراء ، فالبدو الذى لا يسيطر على مدينة من المدن هو أشد الناس فقرا ، وهو مبال للعزلة والتشغف ، وشديد الشغف بالفضيلة . ذلك أنه يحول بؤسه لتطرف دينى » .

هذه صورة حرص المستشرقان ماسكوراى وجوتييه وغيرهما أن تكون صورة للإباضية عندما يكون الحديث عن الإباضية وللخوارج عند ما يكون الحديث عن الخوارج وللأمة الإسلامية عامة عندما يتحدثون عن حركة للأمة الإسلامية أو فيها بل أن جوتييه يركز على هذا المعنى كثيرا فى معالجته لقضايا الحركات الإسلامية سواء ما كان من الإسلام عامة ، وما كان منها من ذهب خاص . فهو يريد أن يصور المسلمين فى جميع الأحوال وعلى كل الأوضاع بأن طبيعة البداوة متأصلة فيهم . عندما يتحركون فهم إنما يتحركون بدافع الفقر والحاجة للحصول على ما يخفون به شظف العيش المؤلم والحياة القاسية التى يعانونها فإذا لم يتمكنوا من ذلك حولوا مظهر الحرمان الذى يحيون فيه الى شغف بالفضيلة ، أو الى تطرف دينى يندفعون باسمه للغزو والاحتلال .

وتتلخص الصور الثلاثة السابقة من المقارنات فيما يلى :

افتراض وجود شبه يدل على انحدار الطوارق في الإباضية استنادا على القيافة الموجودة الآن عند لطوارق مع افتراض وجودها عند الإباضية في قرون سابقة •

دعوى وجود ثقافة وعلم عند المرأة الطارقية تتفوق بها على المرأة في المغرب ودعوى وجود ثقافة عند المرأة الإباضية مما يقرب الشبه بين الطوارق والإباضية •

٣ — التشابه بين الإباضية والوهابية لأن كلا منهما يعيش في منطقة صحراوية يسود فيها القحط ويغلب عليها الفقر مما يحمل أهلها على التقشف الإجبارى أو الرغبة في الغزو باسم التقوى •

واحسب أن هذه الفروض وهذه المقارنات من أسوأ ما كتبه جوتييه في كتابه هذا • وإن كان في الكتاب كثير جدا مما أملاه التحامل وأوحت به الروح الاستعمارية المترفعة • لكن هذه الفقرات تدل — فوق كل ذلك — على السطحية والغباء •

مع كرلو ألفونسو نلينو

كتب المستشرق كرلو الفونسو-و نلينو بحثا عن المعتزلة ناقش فيها ما يلي :

١ — أصل تسميتهم معتزلة •

٢ — اسم القدرية •

٣ — الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين في أفريقيا الشمالية •

٤ — حول فكرة غريبة منسوبة الى المحافظ عن القرآن •

وقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوي هذه البحوث ونشرها ضمن بحوث أخرى المستشرقين في كتاب سماه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) طبعة دار النهضة العربية — الطبعة الثالثة • من هذا الفصل أحب أن أقف مع القارئ الكريم قليلا عند الفقرة الثالثة • في البحوث (الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية في أفريقيا الشمالية) لمناقشة بعض آراء المستشرق الكبير في هذا الموضوع • يقول نلينو في هذا الكتاب ص ٢٠٤ مايلي :

« لاحظ جولد تسيهر في الموضوع المذكور آنفا (مجلة تاريخ الأديان المجلد رقم ٥٢ سنة ١٩٠٥ ص ٢٣٢) إن رسالة (العقيدة الإباضية) لعمر بن جميع التي نشرها موتيلتسكي تضعنا أمام أقوال ذات طابع معتزلي واضح ويورد شاهداً على ذلك ؛ المسائل الآتية :

١ — القرآن مخلوق •

٢ — ليس من الممكن رؤية الله في الآخرة •

٣ — تأويل بعض مسائل الحياة الأخرى تأويلا مجازيا (الميزان والصراف) •

٤ — كل تشبيه ظاهر وبخاصة استواء الله على العرش — يجب تأويله تأويلا مجازيا •

ولكن الاتفاق بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية في شمال أفريقيا يذهب إلى حد أبعد مما ذهب إليه جولد تسيهر — فكلا المذهبين على اتفاق فيما بينهما وبين بعض ، وعلى خلاف مع أهل السنة في المسائل الآتية كذلك .

٥ — الله لا يغفر الكبائر ارتكيبها إلا إذا تابى قبل الموت .

٦ — عذاب النار أبدى حتى لمرتكب الذنب من المسلمين • وهو إذا مات دون أن يتوب لا تنفع له شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء » .
وبعد أن يورد أقوال بعض علماء الإباضية في الموضوع يقول :

٧ — « صفات الله ليست زائدة على ذات الله » • وبعد أن يذكر شرح الإباضية لهذا الأصل من أصول عقيدتهم يقول :

« وخلايق بنا أن نلاحظ أيضا أن كتاب الشيخ عامر المذکور ، والذي يقصد به مؤلفه أن يتكلم عن الأصول التسعة التي كان عليها الخلاف بين المسلمين يستعرض هذه الأصول على النحو التالي : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) القدر ... الخ .

ويقول في صفحة ٢٠ ما يلى :

« ففى كتاب (أصول الديانات) للشيخ عامر بن الشماخى (١) وهو عمدة كتب الإباضية فى جبل نفوسة) .

(١) جاء فى هامش البحث تعليقا على العبارة السابقة ما يلى : كنيته أبر ساكن عاش فى القرن الثامن الهجرى ، راجع (السمر) للشماخى ص ٥٥٩ — ٥٦١ فإنه يقول عنه : « وهو اعتماد أهل المغرب فى وقتنا خصوصا نفوسة » قلت قد أخطأ المؤلف والمعلق فإن هذه العبارة قيلت عن كتاب الإيضاح لا عن كتاب الديانات .

وبعد مناقشة ليست طويلة ولا عميقة يخلص الى قوله :

فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية في شمال أفريقيا إذا معتزلى
فهل هم أخذوه ، وهم في الشرق من قبل أن ينزحوا الى بلاد المغرب ، أم
هم تقبلوه في شمال أفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة ،
وبمعتزلة إقليم طنجة القديم ، مدفوعين بعاطفة رد الفعل ضد أهل السنة ،
أم أن إباضية المغرب أضافوا بعد في أفريقيا عناصر معتزلية جديدة الى
ما كان في الأصل مشتركا بين المعتزلة وإباضية الشرق ، وأن مذهب
الإباضية في الشرق سار ومذهب إباضية المغرب بخطى واحدة متساوية
تحت تأثير معتزلى ؟

مما يدعو الى التأمل أن أغلب المستشرقين يتخذون أسلوبا متقاربا
في مناقشة ما يعرض من المواضيع الإسلامية فيفترون فروضا أو دعاوى
يعتبرونها في مرتبة الحقائق المسلمة التي لا تحتاج الى الجدل ، الأصول
الثابتة التي لا يثور حولها خلاف • ثم يفرعون عن ذلك ما يخطر لهم من
نقاش • وفي هذه القضية افترض المستشرق نلينو فروضا اعتبرها حقائق
غير خاضعة للنزاع ثم يرتب عليها أحكاما ويبنى عليها صروحا •
فهو قد افترض أن المسلمين ينقسمون الى معسكرين كبيرين متقاتلين على
الدوام هي السنة والمعتزلة وأن جميع المذاهب الأخرى تعود في أصولها
الى أحد هذين القسمين • وهو قد افترض أن كلا من هذين القسمين قد
اتخذ له أصولا خاصة به يتميز بها فاذا وجدت تلك الأصول عند مذهب
آخر فيعنى ذلك أنه أخذها من المذهب الأصلي • وهو في غمار هذا التأصيل
يفترض أن إباضية المغرب أخذوا أصول عقائدهم من المعتزلة • وهو يعتبر

هذا الغرض حقيقة مسلمة ، ولذلك فقد ذهب يتحسس ويتلمس ليعرف كيف حصل إباضية شمال إفريقيا على عقائد المعتزلة .

إن الأساس الذى بنى عليه الأستاذ نلينو بحثه — وهو اعتباره أن المسلمين قسمان كبيران هما السنة والمعتزلة وأن كلا من القسمين قد اتخذ لنفسه مبادئ معينة محددة يتناولها على أسلوب محدد معين ويتلزم بها على نفس النمط والأسلوب ، وأن المذاهب الأخرى قد انشقت عن أحد هذين القسمين الكبيرين وأن فى إمكان الباحث أن يعيد أهل كل مذهب الى قسمهم الذى انشقوا عنه أو انفصلوا منه أو أخذوا عنه — أساس وهمى قام على فريضة ذهنية لا مكان لها فى الواقع ولا حقيقة لها فى الأحداث والتاريخ . رغم أن نلينو بذل مجهودا ملحوظا فى إقرار تلك الفرضيات واعتبارها حقائق ثابتة مما دعاه أن يحاول انجمع بين الشيعة والإباضية وإرجاعهم جميعا الى المعتزلة أحد القسمين الكبيرين بسبب خصومة الجميع لأهل السنة حسبما يزعم أو حسب فرض من فروضه الوهمية . يذكر المستشرق جولد تسيهر وهو يتحدث عن كتاب (عقيدة الإباضية) أن هذا الكتاب يحمل طابعا معتزليا لأن الكتاب يذكر بعض أصول عقيدة الإباضية وهى مشابهة لأصول عقائد المعتزلة . ويذكر الشواهد على ذلك ، غير أن المستشرق نلينو لا يكتفى بهذه العلاقة البسيطة التى لاحظها تسيهر — وإنما يكشف أن الأوجه التى يشابه فيها الإباضية المعتزلة هى أكثر مما لاحظها تسيهر ، وعليه فلا بد أن يكون الإباضية فى شمال أفريقيا قد أخذوا أصول مذهبهم فى المعتزلة . إنه أسلوب طريف فى بحث العقائد ، كأنما هذه الأصول حضرت فى جدول عمل ، وعقد من أجل مناقشتها عدة اجتماعات فاتخذ فيها المعتزلة قرارات تحدد آراءهم واتخذ أهل السنة كذلك قرارات تحدد أيضا آراءهم الخاصة بهم ثم انفض المؤتمر العام

عن ذلك • فمن تكلم بعد ذلك في هذه المواضيع فلا بد أن يكون من أحد فرعى المؤتمر أو أن يكون أخذ عنه • وبهذا يسهل على الباحث أن يرجع أى مذهب إسلامى الى أصله كما أرجع نلنذر تلاقى الشيعة والإباضية الى المعتزلة •

لا شك أن الإشكالات التى تعلقت ببعض أصول العقائد • والأسئلة التى أثيرت حولها ، والمناقشات التى دارت فيها ، لم تكن وليدة يوم ، أو ناتجة عن جدول أعمال مدروس فى اجتماع ، أو بحث وضع له مجمع علمى منظم ليصدر فيه قرارات نهائية • إن شيئاً من هذا لم يكن أبداً ، وإنما كانت تنثور المشكلة فى مكان فيتخذ فيها من حضر من العلماء موقف — معتمداً على فهمه لكتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله ﷺ ، ومواقف الصحابة رضوان الله عليهم إن كانت لهم فيها مواقف — وقد يحدث أن يخالفه فى موقفه ذلك عالم آخر فى نفس المكان ، وقد يحدث ألا يخالفه أحد • وتنتقل المشكلة لتثور فى موضع آخر قد يكون قريباً أو بعيداً فتعرض على عالم آخر يدرسها هو الآخر ويصدر فيها حكماً ، موافقاً أو مخالفاً للآخر • وعلى هذا المستوى وهذا الأسلوب تكونت آراء الأمة فى مسائل العقائد ، بل وحتى فى مسائل الفروع • ما لم تحدده النصوص •

وأكثر هذه الأصول قد تحتل وجهين أو أكثر من الآراء — وأى عالم يصدر فيها رأياً معيناً قد يكون رأيه موافقاً تمام الموافقة لرأى عالم آخر فى جهة أخرى ، ولكنه يسمع برأيه ولم يعرفه ، وإنما اعتمد فى إصدار رأيه على نفس المصادر التى استمد منها الآخر رأيه ، واتحد معه فى الفهم والاستنباط • فهل من المحتم أن نقول أن أحد هذين العالمين قد أخذ عن الآخر ما دام رأى كل منهما موافقاً لرأى

الآخر وفهمه لفهمه • من المسائل التي أثرت في عهد مبكر جداً قضية
القدر • وقضية جواز رؤية الباري جل وعلا • وقضية الكبيرة ومرتبتها •
فكان لحلماء الأمة فيها مواقف حسب فهمهم لنصـوص الشريعة حين
وصول المشكلة إليهم ، فكانت المشكلة من هذه تأخذ طورا في الجـدل
والنقاش في أماكن مختلفة حتى تتبلور الى آراء محددة يقتنع بها الناس
ويلتزمونها • فالمشكلة من هذه تبدأ فردية يتناولها أصحاب الشأن بالبحث
والدراسة والاستدلال • وقد تتفق الآراء ، وقد تختلف ، ويدين بكل
رأى جماعة من الناس لاقتناعهم بقوة الحجة وسطوع البرهان ووضوح
الدليل فيما يعتقدون •

ثم إن المذهبية أو (الحزبية الدينية كما يفهما المستشرقون) لم يكن
بهذا التمييز والوضوح الذي تعرفه لها اليوم ، لأن المذهبية في ذلك الوقت
المبكر لم تتكون بعد • ويبدو لى أنك لو جئت في أواخر القرن الأول
وأوائل القرن الثاني ووقفت عند باب مسجد تسأل كل خارج بعد
الصلاة عن مذهبه لم تجد من يجيبك بقوله إنه سنى أو شيعى أو معتزلى
مثلا • ولا من يقول لك إنه حنفى أو مالكى أو إباضى • لأن هذه المذهبية
لم تتكون بعد • ولكنك لو سألت ما نقول في القدر فقد يجيبك برأيه سواء
كان بإثبات القدر أو نفيه • وقد ينظر إليك في اشمئزاز وينصرف ، وهو
يعتبرك من دعاة الفتنة وقد يحملق فيك بعينين فاحصتين ثم يمضى عنك
لأنه لم يفهم ما تريد •

ومثل هذه الصورة تحدث لك لو أجريت التجربة فيما يتعلق بموضوع
الرؤية فلو وقفت على باب مسجد تسأل كل خارج هل رؤية الباري جل
وعلا ممكنة أو مستحيلة ، فإنك تجد من يجيبك بأن رؤيته تعالى ممكنة في

الدنيا والآخرة ، وإن سيدنا محمد ﷺ رأى ربه • ومن يقول لك أنها مستحيلة في الدنيا جائزة في الآخرة • ومن يقول لك أنها مستحيلة في الدنيا والآخرة • وتجد فيهم من يعرض عنك لأنه يعتبرك صاحب فتنة ، أو لأنه لا يفهم ما تريد • وقل مثل ذلك في مسائل العقائد التي أثرت حينئذ ، وإو أردت أن ينتسب لك كل واحد ممن سألتهم لم يمكنه ذلك لأن هذه التسميات المذهبية جاءت متأخرة حدثت بعد ذلك ولكنك لو سألت أى واحد عن رأيه في الموضوع أو عن أخذه لأجابه بأحد جوابين : إذا كان من أهل العلم يذكر لك النصوص التي استند عليها في فهمه وحكمه • وإذا لم يكن في هذا المستوى ذكر لك عالما من علماء المسلمين المنتشرين في كل البلاد الإسلامية في ذلك الحين • أو أجابه بأنه لا يفهم هذا •

إن الأصول التي يرجع إليها علماء المسلمين — في جميع ما يعرض لهم من في مشاكل بمختلف مذاهبهم متاحة لجميعهم • بدرجة واحدة ، وليس فيها ما يمنع أحدهم من دراستها والرجوع إليها ، فهي بقدر ما كانت متاحة للحسن البصري كانت متاحة لواصل بن عطاء ، وسعيد بن المسيب ، وجابر بن زيد ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم • وعندما تجد فهم أحد هؤلاء لنص من النصوص موافقا لفهم الآخر فليس من الضروري أن يكون أحدهما أخذه من الثاني ، لأن الأقرب إلى العقل والمنطق والواقع أن يكون أحدهما أخذه من نفس النص واتفقهما في الفهم والاستنباط لا يعنى اعتماد أحدهما على الآخر أو الأخذ عنه • كما أنه لا يوجد ما يمنع من أن يأخذ أحدهما فهم الثاني أو رأيه إذا لم يكون هو نفسه رأيا أو فهما مخالفا •

أحسب أن هذا واضح لا يحتاج الى تدليل أو برهنة ، ولا يتطرق إليه احتمال النقاش •

ومما استند إليه نلينو — فى حكمه بأن الإباضية فى المغرب أخذوا قواعدهم عن المعتزلة — تشابه الغرض لتلك القضايا ، واتحاد الأدلة •

وفى هذا المنطق — كما أرى شىء من القرابة — وذلك أن عرض طريقة المشكلة — أية مشكلة — ليست طابعا مذهبيا مميزا لا ينبغى للمذهب أن يتخلى عنه ، ولا يحق لغيره أن يتخذ • وإذا فرض أن عالما من مذهب معين وفق الى عرض مشكلة أو مشاكل بتنسيق أجود فليس مما يجعل الآخرين تباعا لهذا العالم إذا هم سلكوا نفس الأسلوب فى العرض ، ولا يلزم أن يكونوا أخذوا منه رأيهم فى المشكلة ، إذا اتحدوا معه فى منهج العرض أو منهج الاستدلال • واستفادتهم • ومن الجائز أن آراءهم فى الموضوع قد سبقته بعشرات السنين وأنهم عرضوها إما بهذه الطريقة ولكنها لم تشتهر عنهم أو عرضوها بطريقة تختلف وأنهم استفادوا من غيرهم فى العرض أو الاستدلال واستفادتهم من جهد غيرهم فى التنسيق دليل على التفتح وعدم التعصب ، لأن الاستفادة من جهود الآخرين وتجاربهم هى ميزة البحث العلمى فى كل ميدان • ومما استند إليه نلينو أنهم احتجوا بنفس الحجج التى احتج بها المعتزلة ، ويستنتج نلينو حكمه هذا مما لا حظه فى شرح الثلاثى عن كتاب الديانات لعامر الشماخى • والشماخى من علماء القرن الثامن الهجرى • أما الثلاثى فمن علماء القرن العاشر •

أود أن أناقش هذه النقطة بشىء من الإسهاب ، حتى يعرف القارىء الكريم • مدى سلامة حكم نلينو فى هذه الملاحظة •

إن أى عالم من علماء المسلمين حين تثار أمامه • أو تعرض مشكلة ،

يتجه قبل أى شىء وقبل أى رأى الى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وعلى ما يتضح له من ذلك يقرر رأيه ، ويعلن عقيدته ، محتجاً ومستشهداً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى الموضوع . والآيات والأحاديث الواردة فى أى موضوع هى واحدة والاحتجاج بها من أطراف متعددة ليس متشابها وإنما هو متحد ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

فهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من تنبه إلى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فقالوا باستحالة الرؤية ، وأن كل من قال باستحالتها إنما أخذ عنهم هذا الاستدلال ؟ وهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من انتبه إلى الآيات التى وصفت القرآن الكريم بأنه محدث ومنزل ومجوعول وما إلى ذلك حتى يقال أن كل من قال بخلق القرآن إنما أخذ ذلك عن المعتزلة والدليل على أخذه عنهم هو تشابه الأدلة وما دام المعتزلة قد احتجوا بآية أو حديث فإن كل من احتج بذلك يكون أخذ عن المعتزلة .

لا شك أن فى هذا من الشطط والغلو والتحكم ما فيه ، من تضيق الواسع ، وتحجير العلم ما لا يتفق مع طبيعة علماء الإسلام فى عصوره الأولى المنفتحة المشرقة المتحررة .

لقد أثرت مشاكل أصول العقائد فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة كما قلت سابقا ، ولم تكن حينئذ الكتل المذهبية قد تكونت بعد وتميزت ، وإنما كان أفراد العلماء يصدرون آراءهم ، كل حسب فهمه واجتهاده ، ومضت فترة من الزمن تبلورت فيها تلك الآراء واتخذت لها أشكالا مختلفة واتضح منها أن عددا من العلماء تلتقى آراؤهم فى أصل واحد أو أصول

معينة ، ثم نشأت بعد ذلك الطبقات المتعلمة المتعصبة فكانت المذاهب ونسبتها إلى أفراد من المجتهدين ممن اشتهر فيما بعد • ثم عمل هؤلاء على جمع الأدلة والبراهين لتأييد المذاهب التي يعتنقونها فأصبحت الأدلة ولا سيما الأدلة النظرية حقا مشاعا للجميع يجمع منها كل مذهبى ما يراه مؤيدا لمذهبه • وهذه الصورة تتضح عند المؤلفين المتأخرين من القرن الثالث فيما بعد ، ولا يستطيع الباحث أن يقول هذا برهان معتزلى أو إباضى أو أشعرى أو ما تريدى •

ولو رجع نايبو في قضايا أصول علم الكلام لوجد التقارب بين الماتريدية والمعتزلة أكثر من التقارب بين المعتزلة والإباضية بل ربما يجد التقارب بين الأشاعرة والإباضية أكثر من التقارب بين الأشاعرة والماتريدية رغم أن كتاب المقالات وأكثر المؤرخين يحشرون الماتريدية في طابور أهل السنة ويحشرون الإباضية في طابور الخوارج وهاهو المستشرق نلينو يحاول أن يحشر الإباضية والشيعة في طابور فرعى ينفصل عن طابور المعتزلة • ولو تأمل الأدلة والبراهين التي يستند إليها كل من هؤلاء لوجدها تتفق وتتشابه في الأصل الذى يتفقون عليه ولربما كان أسلوب الماتريدية والمعتزلة في الاستدلال والمناظرة يجرى على منهج واحد في أكثر القضايا الكلامية •

فدعوى الأستاذ نلينو أن إباضية شمال إفريقيا أخذوا أصول عقيدتهم من المعتزلة دعوى لا تستند إلى أساس سليم • لا لأن الفرق الإسلامية لم يتأثر بعضها ببعض ، أو أن الإباضية لم يتأثروا بغيرهم من المذاهب الإسلامية أو يتأثر بهم غيرهم • فهذا زعم لا يخطر على البال • وإنما الذى أريد أن أنفيه في هذا الفصل هو زعم نلينو أن

الإباضية أخذوا أصولاً معينة من المعتزلة مع العلم أن هذه الأصول كانت مطروحة للنقاش — إن صح هذا التعبير — قبل أن تكون المذهبية الملتزمة وقد كان علماء الإباضية يناقشونها بنفس المستوى الذى يناقشها به علماء المذاهب الأخرى حين أثبتت • وحتى لو تحددت الأسبقية فى قول من الأقوال ونسبت إلى عالم معين من مذهب معين • فلا يعنى ذلك أن المذاهب التى جاءت من بعد واتخذت لها نفس الآراء ، أنها بالضرورة أخذت عنه لأنها فى الغالب تكون أخذت من نفس المصدر الذى أخذ هو منه — الكتاب والسنة — ونحن لا نزعم أن المعتزلة أخذوا من الإباضية لأن — واصلاً بن عطاء — إمام المعتزلة كان تلميذاً فى مجلس الحسن البصرى حين كان إمام الإباضية جابر بن زيد زميل الحسن وصديقه قد استقر على عقائد محددة فى المسائل التى أثبتت فى تلك الفترة واتخذ فيها موقفاً نقله عنه طلابه فلا شك أن جابراً سبق واصلاً ولكننا مع ذلك لا ندعى أنه أخذ عنه • ولعل من الأمثلة التى توضح هذه النقطة هو موقف الإباضية والمعتزلة من مشكلة الرؤية مثلاً •

إن عقيدة الإباضية بأن إمكان رؤية البارى جل وعلا مستحيل فى الدنيا والآخرة كان واضحاً شديداً الواضح فى النصف الثانى من القرن الأول وقد ناقشه بعض أئمة الإباضية وتأييد فيها موقفهم بتأييد بعض كبار الصحابة كعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس فهل يحق للباحث أن يزعم أن المعتزلة أخذوا رأيهم فى موضوع الرؤية من الإباضية لأن هؤلاء سبقوهم إلى ذلك القول ولأن المعتزلة يحتجون بنفس الأدلة التى يحتج بها الإباضية •

لا شك أن الباحث المنصف لا يستطيع أن يزعم هذا الزعم لأن

المصادر التى كانت موضوعة بين يدى جابر بن زيد ، والحجج العقلية التى استنبطها وهو يدرس هذه المشكلة كانت مطروحة بين يدى غيره من علماء الأمة • فإذا انتهى هو إلى رأى معين ، فليس من اللازم أن يكون كل من انتهى إلى ذلك الرأى آخذاً عنه •

بعد هذا ننتقل إلى مناقشة نقطة أخرى عرض لها أن الأستاذ نلينو ولم يكن — حسب نظرى — موفقاً فيها •

يصل نلينو بسرعة غير متوقعة إلى الحكم على أن الجانب الأكبر من المذهب الإباضى معتزلى ، وهو لكى يصدر هذا الحكم دون أن يتعرض لنقد لا يعرف مصدره ، يفصل إباضية شمال أفريقيا عن إباضية الشرق بدعوى أنه لا يملك مصادر عن إباضية الشرق تتيح له الحكم عليهم بحق • وتبدو هذه الدعوى غريبة ، فإن المستشرق الكبير لم يذكر من مصادر الإباضية المغاربة إلا كتاب عقيدة التوحيد لعمر بن جميع وكتاب الديانات لعامر الشماخى بشرح الثلاثى وكل من الكتابين مختصر صغير جداً وضع للاستذكار فى صفحات قليلة لا تبلغ جميعها عشرة • ثم إن كلا الكتابين — إن صح أن نسميهما كتابين — من المؤلفات فى العصور المتأخرة أعنى بعد القرن السابع • وهذا يعنى أنها ألقت بعد التميز المذهبى وعندما أصبحت حجج العقائد الدينية لمختلف المذاهب والعلماء معروفة ومدروسة ومنقولة يستعين بها من توافقه للاحتجاج بها ويذكرها من تخالفه لنقضها والرد عليها •

وإذا كانت هذه كل مصادره فإنه لا يملك مصادر عن إباضية شمال إفريقيا أيضاً اللهم إلا ما قاله عنهم غيرهم وهذا متوفر حتى بالنسبة

لإباضية الشرق ، لأن المصدرين اللذين اعتمد عليهما مختصران لا يعطيان صورة حقيقية للموضوع • وعلى كل فلا داعى أبداً للفصل بين إباضية المشرق أو إباضية المغرب ومع ذلك فقد وقع نلينو فى خطأ له قيمته فى هذا البحث فقد كتب أبو العباس أحمد السماخى ترجمة للشيخ عامر السماخى وتحدث عن كتابه الإيضاح — الذى يقع فى أربعة أجزاء ضخمة — ووصفه وقال عنه إنه — أى الإيضاح — هو اعتماد إباضية المغرب وهذا صحيح وكتاب الإيضاح كتاب فقه خالص يبدأ بالطهارات ولا يتعرض لمسائل علم الكلام ولكن نلينو — فيما يبدو ظن أن المقصود بهذه العبارة هو ذلك المختصر الذى يسمى بالديانات فجعله معتمد إباضية المغرب لاسيما نفوسة • وهذا الوهم يعطى كتاب الديانات حقيقة أضخم مما هو عليه فقد سبق الشيخ عامر فى موضوع العقائد وعلم الكلام عدد من أئمة العلماء كانت كتبهم مراجع له يستمد منها ويستند عليها وذلك مثل عبد الخالق القزائى وعمروس النفوس وتيغورين المشوطى وأبى عمار عبد الكافى والمرغنى وغيرهم • وقد استفاد السماخى — ولاريب منهم جميعا ولخص عنهم مختصره (الديانات) • ثم إن المستشرق نلينو بعد أن عمل عملية الفصل بين إباضية المشرق والمغرب وزعم أنه لا يعرف عن أولئك ما يعتمد عليه للحكم عليهم ، وأنه يملك ما يعتمد عليه للحكم على تأثر هؤلاء بالمعتزلة ، وقد أثار مجموعة من الأسئلة تحتوى على عدد من الفروض •

١ — هل هم أخذوه وهم فى الشرق من قبل أن ينزحوا إلى بلاد

المغرب ؟

٢ — أم هم تقبلوه في شمال إفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأداسة
من الشيعة ؟

٣ — أم أن إباضية المغرب أضافوا من بعد في أفريقيا عناصر
معتزلية جديدة إلى ما كان في الأصل مشتركا بين المعتزلة وإباضية
الشرق ؟

٤ — أو أن مذهب الإباضية في الشرق سار ومذهب إباضية المغرب
بخطى واحدة متساوية تحت تأثير معتزلى •

إن موقف نلينو في هذه القضية غريب حقا فهو يفترض أن الإباضية
تأثروا بالمعتزلة وأخذوا عنهم ويجعل هذه الفرضية حقيقة ثابتة مهما كان
موقف الإباضية وهو لا يعرف كيف يبرهن أن الإباضية أخذوا من المعتزلة
ولكنه رغم ذلك يصر على هذه الفرضية ويعطى لها عددا من الاحتمالات :
أخذوها من الشرق ونزحوا بها ••• تقبلوها في شمال إفريقيا عن طريق
الأداسة ••• أضافوا إليها في المغرب عناصر معتزلية •• سار الإباضية
في المشرق والمغرب بخطى واحدة تحت تأثير معتزلى ؟

ومع هذا الإصرار على هذه الفرضية يعترف أنه لا يعرف شيئا عن
مسلك الإباضية عموما في تقرير عقائدهم في تلك العصور الأولى التي كان
يثور عليها الجدل وتتقرر في قلوب الناس فهو يذكر أنه لا يعرف شيئا
عن مصادر إباضية المغرب فلم تقع يده إلا على ملخصات مختصرة ألفت
في القرن السابع فما بعد •

كنت أحسب أن من يتعرض لموضوع شائك مثل هذا يريد أن يثبت
أن إحدى الطائفتين كانت عالية على الأخرى ينبغي له أن يدرس دراسة

عميقة كل ما عند الطائفتين وأن يقارن المشاكل العقائدية بينهما مشكلة مشكلة ويتبع تطورها في البيئتين حتى يعرف أنها وليدة في بيئة معتزلية وانتقلت منها إلى الإباضية أو هي وليدة بيئة إباضية وانتقلت منها إلى المعتزلة أو أنها وليدة في كلتا البيئتين نمت فيهما حتى استقرت على وضعها الأخير عن كليهما • ولكن نلینو لم يفعل شيئاً من هذا لأنه لا يعرف عن عقائد الإباضية شيئاً في خمسة قرون سابقة حتى عثر على ملخص العقيدة وملخص الديانات •

إن السؤال الأول من تلك الأسئلة يكاد يكون صورة هزلية مضحكة فهو يصور الإباضية لمجموعة من الناس — كمجموعات القبائل البدوية — قوضوا خيامهم وحرموا حقائبهم ، وركبوا جمالهم وخيولهم ثم ارتحلوا من المشرق إلى المغرب ولكن نلینو لم يتأكد حين ارتحلوا هل كانت معهم بعض هذه الخصائص الموجودة عندهم اليوم أم أنهم ارتحلوا متجردين ثم كونوا لأنفسهم هذه الخصائص الموجودة معهم فيما بعد • أعد قراءة الفقرة وتأملها إن شئت تتضح لك الصورة أكثر •

والسؤال بهذه الصورة وهذه الصيغة تعطينا انطباعاً معيناً عن تصور نلینو •

والسؤال الثاني يفترض أن الإباضية حينما ارتحلوا من الشرق إلى الغرب إنما جاءوا بدون أصول وإنما اقتبسوا لهم أصولاً في المعتزلة عن طريق الأدارسة من الشيعة أو من معتزلة طنجة مباشرة وإنما جعلهم على إقتباس الأصول من هؤلاء ودفعهم إلى ذلك رد الفعل ضد أهل السنة وانتزاعهم مع الشيعة والمعتزلة في مقاومة أهل السنة • الواقع أن هذا الكلام لا ينبغي الوقوف عنده طويلاً لأنه ليس فيه ما يستدعي ذلك

وهو مبنى على فروض وتقديرات وهمية ليس لها ما يبررها مطلقا فلا معنى لأن نفترض أن الإباضية عندما — نزحوا — من الشرق تركوا هناك عقائدهم لأن الإباضية لم ينزحوا من الشرق إلى الغرب كمجموعات بشرية متنقلة ولكن الأصول التي يعتنقونها للعقائد قد انتشرت في المغرب الإسلامي عن طريق الأفراد سواء كانوا علماء جاءوا في الشرق أو وفودا طلابية ذهبوا من المغرب إلى المشرق فطلقوا تلك الأصول فيما تلقوه في علوم ثم عادوا به أو كان ذلك في صورة دعاة يدعون إلى تلك الأصول •

ولأن أصول العقائد ليست أمتعة ثقيلة يتخفف منها من يريد أن يرتحل يتخذ بدلها عندما يستقر في مكانه الجديد فحتى على فرضية وقوع هذه الصورة التي تخيلها نلينو وهو ارتحال الإباضية من المشرق إلى المغرب لا يمكن أن يدخل في التصور أنهم ارتحلوا بدون عقائد فلما وصلوا إلى المغرب جعلوا يستعربون أو يقتبسوا أو يسترقون • أن العقائد محلها القلوب وهي لا تخرج عنها في حل ولا ترحال •

ولا معنى لأن نفترض أن رد الفعل حمل الإباضية على اقتباس أصول المعتزلة من الأدارسة الذين اقتبسوها هم الآخرون عن المعتزلة • وهذه السلسلة من الافتراضات • في الحقيقة — موعة في الخيال ، فإن أدنى من عنده إلمام بتاريخ المغرب الإسلامي يعرف حقيقتين لا تقبلان النقاش •

الحقيقة الأولى أن الإباضية قد انتشروا في المغرب الإسلامي ابتداء من ليبيا إلى الأجزاء الشرقية من المغرب الأقصى قبل الأدارسة

بزمن طويل ، وقبل أن يصل مؤسس دولة الأدارسة إلى المغرب سنة ١٧٢ هـ كان الإباضية قد قاموا بأربع محاولات لإقامة دول كانت ثلاث منها في ليبيا وكانت المحاولة الرابعة هي قيام الدولة الرستمية التي انتصبت في تاهرت قبل اثني عشر عاما من قيام الأدارسة وكانت قد استقرت وكمل نظامها واستتب لها الأمن ومعنى هذا أن الإباضية بعقائدهم وفقهم في التشريع والسياسة قد استقروا وثبتوا عليها وفرغوا من دراستها قبل مجيء الأدارسة من الشيعة إلى المغرب الإسلامي • فكيف يتسنى لهم أن يكونوا رابطة لانتقال العقديين المعتزلة والإباضية • ؟ الحقيقة الثانية أن التجهم والتباعد الذي كان بين الإباضية والشيعة • أقوى وأوضح من التجهم أو التباعد الذي كان بين الإباضية وأهل السنة أو المعتزلة • والمؤرخون الذين تحدثوا عن الدولة الرستمية وهي إباضية ذكروا بإسهاب واختصار كثيرا من المناقشات ومجالس المناظرات التي كانت تقع في تاهرت وهي عاصمة الإباضية في ذلك الحين كانت تجرى بين الإباضية وبعض مذاهب أهل السنة وبين الإباضية وبعض فرق المعتزلة أو بين بعض مذاهب أهل السنة و فرق المعتزلة أو حتى بين بعض فرق أهل السنة كالشاعرة والماتريديه •

ولم تذكر مصادر التاريخ التي بين أيدينا أية مناظرة أو نقاش جرى بين الإباضية وأحد من الشيعة وهذا يدل على الانقطاع الكامل بين المذهبين أو الفرقتين • فدعوى أن الإباضية أخذوا من الشيعة أو أن الشيعة أخذوا من الإباضية كلام لا يجد لنفسه أي مستند يقوم عليه ، أضف إلى هذا أنك لو أخذت أي كتاب من كتب الإباضية المطولة سواء كانت في أصول العقائد أو كانت في الفقه فإنك تعثر فيها على كثير من آراء

المعتزلة أو أهل السنة سواء كان ذلك في معرض الاستدلال وعرض الآراء ، أو في معرض النقد والرد ، ولكنه يندر أن تجد في كتب الإباضية شيئا عن آراء الشيعة . ويبدو من هذا أنه لم يكن في المغرب أى احتكاك بين الإباضية والشيعة يسمح باقتباس أحدهما عن الآخر ، فضلا عن أن يكون وسيلة لاقتباس آراء الآخرين . أما الجدل بين الإباضية والمعتزلة فقد كان عنيفا في الشرق والغرب ، ولعل الجدل قد بدأ بين الإباضية والمعتزلة قبل أن يبدأ بين المعتزلة وأهل السنة . وكتب التاريخ والعقائد تذكر طرفا من تلك المناظرات ، حينما تذكر مواضيعها وبعض ما جرى فيها ، وأحيانا تشير إليها إشارة أو تقتصر على ذكر أسماء المتناظرين من المذاهبين وهذا يدل أن المذهب الإباضى قد استقرت نظريته على الأصول التي اقتصع بها عند التمييز المذهبى في القرن الثانى الهجرى وليس به حاجة إلى التأثر والاقتباس .

أما السؤال الثالث فهو أيضا يفترض أن تلك المجموعة البشرية التى نزحت من الشرق قد حملت معها بعض معتقداتها ولكنها أيضا أضافت إليها من عقائد المعتزلة في المغرب . وقد ناقشنا هذه الافتراضات فى الصور السابقة فلا داعى لأن نعود إليها .

أما عن السؤال الرابع فهو يفترض أن المذهب الإباضى فى الشرق وفى الغرب سار بخطى متحدة بتأثير معتزلى .

إن نلینو قد حكم أن إباضية المغرب أخذوا أصولهم العقائدية عن المعتزلة ، وقد استقرت فى ذهنه هذه الفرضية فهو لا يريد أن يناقشها وكأنما اعتبرها حقيقة ثابتة فذهب يتلمس الطرـق التى تسربت معها

آراء المعتزلة إلى الإباضية فجعل يتخبط بين مجموعة من الفروض لا تقوم على أى أساس •

ويقول الأستاذ نلينو ص ٢٠٧ ما يلى :

« إلا أن هناك مسألتين اختلف فيهما مذهب الإباضية في شمال إفريقيا عن مذهب المعتزلة ، أولاهما بالضرورة هى تلك المتعلقة بالطريقة التى يعتبر بها مرتكب الكبائر : وإلا كان على الإباضية — وهم خوارج — أن ينكروا أصلهم إنكارا تاما إن شاءوا إن يعتبروا مرتكب الكبيرة المسلم مؤمنا كما فعل أهل السنة والجماعة أو إن قالوا بالمذهب القائل بأن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا كافر • بل هو فى منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة » • وبعد أن يورد كلاما لبعض علماء الإباضية فى مناقشة الموضوع يقول :

« والمسألة الثانية التى كانت موضوع الخلاف بينهما هى مسألة القدر وحرية العبد فى أفعاله ، فالمعتزلة يقطعون بحرية العبد بينما يقول الإباضية فى شمال إفريقيا بالحرية المحدودة فى صورة الكسب أو الاكتساب عند الأشاعة » •

إن الالتواء فى منطق نلينو — وهو يعالج هذا الموضوع — واضح بين فهو عندما لم يجد ما يتحملة مبررا للبعد بين آراء الإباضية والمعتزلة فى : قضيتى مرتكب الكبيرة والقدر ، التجأ الى التحاليل فى التبرير ، فزعم أن الإباضية إنما خالفوا المعتزلة فى موضوع مرتكب الكبيرة حفاظا على أصلهم باعتبارهم (خوارج) ولا بد أن نلينو يعرف معرفة تامة أن الإباضية يختلفون اختلافا كبيرا عن الخوارج فى هذه القضية — بل لعلها أشد مواضع

الخلاف بينهم وأكثرهما إثارة للخصومة والعنف أحيانا — فبينما يحكم الخوارج على مرتكب الكبيرة بأنه مشرك تنطبق عليه أحكام المشركين — وينفذون تلك الأحكام عليه — لا يرى الإباضية في مرتكب الكبيرة إلا أنه أخ لهم في الإسلام له جميع حقوق المسلمين وتنطبق عليه جميع أحكام المسلمين ، إلا أنه بارتكابه للمعصية يستحق منهم الجفاء والمخاشنة في المعاملة ولا يستحق منهم الاستغفار — وما إلى ذلك مما لا يكون أهلا له إلا الموقر بدينه الحريص على إسلامه — حتى يتوب •

ولكن نلینو يتغاضى عن هذا الفارق الهام — في موضوع ارتكاب الكبيرة — بين الإباضية والخوارج ويبنى حكمه على أن الإباضية خالفوا المعتزلة في هذه المسألة حفاظا على أصلهم • مع العلم أن هذا الأصل الذى يشير إليه نلینو لا أصل له عند الإباضية ، ولم يقوموا به في يوم من الأيام ولا أحسب أحدا ممن ينتسب إليهم في القديم أو الحديث ذهب إليه • بل إن كتب التاريخ وكتب العقائد تذكر أن عبد الله ابن إياض حكم على نافع وأصحابه بالكفر بعد الإسلام بسبب قول نافع في مرتكب الكبيرة إنه مشرك وقد كانت شدة خصومة الإباضية للخوارج في موضوع مرتكب الكبيرة لا تضارعها عنفا إلا خصومتهم للمعتزلة في موضوع القدر وخصومتهم للأمويين في خروجهم في أحكامهم عن أحكام الشريعة وإذا كانت قضية مرتكب الكبيرة هي أهم ما يميز الخوارج فإن الإباضية — فيها — يخالفون كل المخالفة ما عند الخوارج وقد أورد نلینو في كتاب الديانات لعامر الشماخي جملة مبتسرة ظهر أنها تفى بالغرض وتدل على المقصود ولكن الجملة ناقصة لأنه نقل شطرا منها وترك الشطر الآخر والتعبير السائد في جميع كتب العقائد بما فيها كتاب الديانات : « وندین بالمنزلة بين المنزلين ، وأن لا منزلة بين منزلتين » •

وشرح هذه العبارة باختصار أن الإباضية يدينون بأن هناك منزلة بين الشرك والإيمان هي منزلة النفاق أو كفر النعمة • فقد يكون الرجل ليس مشركاً وليس مؤمناً وإنما هو منافق أو كافر كفر نعمة • وهذا الصنف من الناس داخل مع المسلمين في جميع المعاملات والأحكام الدنيوية كما كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين ومع مرتكبي الكبائر (كفار النعمة) وهذا معنى قولهم تدين بالمنزلة بين المنزلتين •

أما العبارة الثانية : أن لا منزلة بين المنزلتين فيقصدون بذلك أنه لا توجد منزلة بين الإيمان وبين النفاق أو كفر النعمة فالرجل الذى يقر بكلمة الشهادة إما أن يوفى بها فيكون مؤمناً وأما أن يخونها بالعمل أو الاعتقاد فيكون منافقاً (كافراً كفر نعمة) وليس بينهما مرتبة أو درجة • وملخص هذا عند الإباضية أن الناس قسمان : مسلمون ومشركون : المسلمون هم الذين أقرؤا بكلمة التوحيد وهم قسمان : قسم وفى بما عليه لله قولاً وعملاً واعتقاداً وقسم خان فى بعض ذلك فالأولون هم المؤمنون والآخرين هم المنافقون أو كفار النعمة أو الفساق أو العصاة هؤلاء جميعاً تنطبق عليهم أحكام واحدة فى الدنيا ويتساوون فى الحقوق والواجبات اللهم إلا الاستغفار فإنه حق للمؤمن فقط •

أما المشركون فهم غير المسلمين سواء عبدوا الأصنام أو عبدوا الطبيعة أو لم يعبدون شيئاً أو كانوا أهل كتاب فتمسكوا بدينهم الباطل ولم يؤمنوا بالإسلام وهؤلاء كلهم تنطبق عليهم أحكام الشرك اللهم إلا بعض المزايا أو الاستثناءات التى جعلها الله لأهل الكتاب أحسب أن هذا يكفى لايضاح هذه النقطة وربما تناولتها بمزيد من التفصيل فى فصل آخر معتمداً على النقول والنصوص •

أما القضية الثانية التى أشار إليها نلينو — وهى قضية القدر — فلم يجد فيما يبدو أى شئ يستند إليه ولذلك فقد عرضها ثم تركها دون أن يقول عنها شيئاً •

ولا شك أن سؤالاً لا يتردد فى ذهن القارئ وهو يقرأ ما عرضه نلينو يقول : ما دام الإباضية قد أخذوا جميع أصولهم فى التوحيد عن المعتزلة ، ولم يخالفوهم إلا فى حكم مرتكب الكبيرة حفاظاً على الأصل — أو فى القدر فلماذا لم يأخذوا عنهم أيضاً رأيهم فى القدر • وهو سؤال سيبقى بدون جواب لأن الشخص الوحيد الذى يمكن أن يجد له جواباً هو المستشرق الكبير نلينو ونلينو قد انتقل الى عالم غير هذا العالم •

ويختتم الأستاذ نلينو بحثه بما يلى :

ليس لدينا فى المصادر المطبوعة ما يسمح لنا بتعيين الزمن الذى اتخذ الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة المذكورة آنفاً وكل ما نعرفه فى يقين هو أن القول بأن القرآن مخلوق قول قال به السلطان الرستمي فى تاهرت أفلح بن عبد الوهاب الذى حكم بين سنة (١٩٠ — ٢٤٠) كما يستنتج من صفحة ٥٤١ تعليق ١ — من كتاب موتيلنسكى ، وإن مذهب الإباضية المغاربة قد يكون نهائياً فى القرن السادس الهجرى والثانى عشر الميلادى •

المستشرق نلينو يعترف أنه ليس لديه من المصادر المطبوعة ما يستطيع أن يعين به الزمن الذى اتخذ فيه الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة • فما هى المصادر التى استطاع — اعتماداً عليها — أن يقرر أن الإباضية فى المغرب قد أخذوا أصولهم من المعتزلة ؟

إذا كانت المصادر غير متوفرة لديه فكيف استطاع أن يكون رأيه على هذا الوجه • ولم لا تكون الحقيقة على النوجه العكسى (١) ؟ أى أن المعتزلة هم الذين أخذوا أصول عقائدهم من الإباضية إذا كان لا بد من افتراض أخذ أحدهما عن الثانى ؟

والحقيقة — كما ذكرنا أكثر من مرة — أن الافتراض بأن أحد المذهبين أخذ أصوله من الثانى لا أساس له ولا داعى إليه واعتراف نلينو بعدم توفر المصادر لديه اعتراف سليم وصحيح • لأن مصادر الإباضية التى ذكرها لا تتيح له أن يحكم حكما سليما فى الموضوع الهام الذى تحدث عنه • فهو لم يذكر إلا عقيدة التوحيد لا بن جميع وهى متن وضع للحفظ والاستظهار وما يعالج منها قضايا التوحيد الصرف لا يعدو صفحاتين أو ثلاثا وكتاب الديانات لابن ساكن الشماخى هو الآخر متن وضع للحفظ والاستظهار لا يتجاوز صفحاتين أو ثلاثا وقد وضع عليه الثلاثى شرحا لغويا موجزا لا يتعرض للقضايا الكلامية إلا نادرا •

أما كتاب المصعبى وهو شرح لقصيدة أبى نصر الموشائى — والقصيدة أيضا متن وضع للحفظ والاستظهار فقد عنى العناية الكاملة بالجوانب اللغوية والبلاغية ثم يذكر مجمل المعنى بإيجاز وهكذا فى أغلب الأحوال فإذا ناقش بعض المواضيع لم يتعرض لتاريخها ولا لحركة النقد والرد والأخذ والعطاء التى رافقت تلك المواضيع عند تكونها • وجميع هذه المؤلفات كانت بعد القرن السابع الهجرى وبعد التمييز المذهبى

(١) يقول استاذنا الفاضل الامام : ببوض ابراهيم بن عمر فى جواب له عن سؤال للسيد منير عبد القادر سلطان ما يلى :
« وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية فى تفاصيل قضايا العقيدة » .

والاستقرار العقيدى لجميع الفرق الإسلامية • فهم لا تعنى غالبا بعرض الأدلة المتداولة التى تؤيد وجهة نظر معينة • ولا شك أن تلك الكتب لا يهمها أن تعرف أول من احتج بدليل ما لأن جميع الأدلة والبراهين فى ذلك الحين أصبحت حقا مشاعا بين علماء كل الفرق • وهذا الموقف — بطبيعة الحال — لا يساعد على معرفة تكون الآراء والعقائد متى حدث ؟ ولا على الأصول التى انبنت عليها • ولا من سبق إليها ومن اقتبس منه •

باب الخاتمة

بقيت نقطة أخيرة ينبغى أن نمر بها قبل أن نختم هذا الفصل هذه النقطة هى دعوى نلينو أن المذهب الإباضى تكون نهائيا فى القرن السادس الهجرى فماذا يعنى بالتكون النهائى • وما هى المصادر التى استند إليها فى هذا الحكم ؟ إذا كان يعنى بالتكون النهائى — الانتشار العددي ، فإن الإباضية قبل هذا التاريخ بقرن أو قرنين كانوا أكثر انتشاراً فى المغرب الإسلامى وتوزعا فيه • وأنهم فى هذا العصر — القرن السادس — قد تقلصوا الى التجمع فى بعض الواحات فقط • وإن يكن القصد هو التكون العلمى فى مسائل الفروع والاجتهاد فإن هذا التكون لم يتم حتى الآن ولن يتم أبداً لأى مذهب من مذاهب الإسلام لأنه يسير مع الحياة ويتجدد مع الأحداث التى تتطلب من أولى الاجتهاد إعطاءها أحكامها الشرعية • حتى تنتهى حياة الإنسان أما إذا كان يقصد بذلك تكون أصول العقائد وهو المتبادر الى الذهن فالمستشرق نلينو ليس لديه المصادر الكافية — كما يقول — يمكن أن ينبنى عليها حكمه ، فكيف يحدد هذا بالقرن السادس • وهو لا يعرف متى اتخذ الإباضية هذه الأصول عقائد لهم ، سواء استنبطوها من المصادر الإسلامية الأصلية أو اقتبسوها من غيرهم — المعتزلة أو الشيعة — والحقيقة أن نلينو لوجد فى البحث قليلا لوجد أن كثيراً من كتب علم الكلام قد ألفت قبل هذا العهد بأزمته طويلة قد تتجاوز

القرنين • منها المختصر ومنها المطول ، كما أن حلقات المناظرة والنقاش كانت لا تنفك تجرى بين الإباضية والمعتزلة قبل هذا الأوان بمدة وأنها بلغت من العنف في عهد الدولة الرستمية ما جعلها تستقدم علماء للجدل والمناظرة من ليبيا إلى الجزائر •

ثم إن الإمام عبد الرحمن بن رستم أحد حملة العلم الى المغرب كان طلبه أبى عبيدة في البصرة ولا شك أنه حضر كثيراً من مجالس الجدل والخصومة بين الإباضية والمعتزلة وبين الإباضية والخوارج أما الأشاعرة فلم يظهروا بعد في ذلك الحين بل إن أبا عبيدة هو الذى طرد من مجلسه من يقول بالقدر وهكذا يتضح أن أصول عقائد الإباضية في المشرق والمغرب قد تم تأصيلها والإستدلال عليها في عهد الأئمة — جابر وزملائه ثم في عهد أبى عبيدة وزملائه وعندهم نقلها طلاب العلم الى المشرق والمغرب ربما قبل أن يتم تأصلها عند المعتزلة وبالتأكيد قبل الأشعرية ولا شك أيضاً أن من جاء بعد الأئمة الأولين قد استفاد من بقية علماء الأمة وفرقها ، وربما اقتبس منهم حجة أو دليلاً أو أسلوباً فأضافه الى ما عنده من حجج وأدلة •

ولعل مما يفيد القارئ أو يهمه أن نقل له فقرات من رسالة أستاذنا الفاضل الإمام بيوضى إبراهيم بن عمر — مد الله في حياته — التى أجاب بها عن أسئلة الأستاذ منير عبد القادر سلطان • فالى القارئ الكريم منها ما يلى :

« وتعلمون أن أول مسألة عقائدية افترق بسببها المسلمون (بـمـدـ
الخلاف السياسى الذى بدأ في أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان)

هى مسألة القدر التى عبرتم عنها فى كتابكم (الإرادة الإنسانية والعدل الإلهى) والذى تولى كبرها واصل بن عطاء الغزال إمام الواصلية أو المعتزلة ، ثم مسألة تحديد معنى الكفر والإيمان والمنزلة بين المنزلتين ولا منزلة بين المنزلتين والذى تولى كبرها هم الخوارج المستطون لأموال البغاة من المسلمين وسبى ذراريهم تبعاً لدمائهم إذا حلت بالبغي • ثم مسألة خلق القرآن أو قدمه ، التى أثارها أو شاكراً الديصانى الفارسى الذى تظاهر بالإسلام ليفتن المسلمين ويفرق كلمتهم ، فاعتر به المغفلون من الدهماء وأثاروها فتنة شعراء •

فأما واصل بن عطاء فقد قال عنه الشهرستانى صاحب الملل والنحل :
الواصلية أصحاب أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزالى كان تلميذ الحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار وكان فى أيام عبد الملك وهشام بن عبد الملك • ١ هـ • وولاية عبد الملك — كما يذكر المؤرخون كانت سنة خمس وستين ، ووفاته سنة ست وثمانين وولاية هشام من ١٠٥ الى ١٢٥ فيكون اتصاله بالحسن البصرى فى النصف الأخير من عمره • ويروى — كما ذكر الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم فى كتابه (الدليل والبرهان) — إن واصل بن عطاء لزم مجلس الحسن البصرى عشرين سنة قبل أن يعتزله • لا نعلم على وجه التحديد السنة التى اعتزل فيها واصل مجلس الحسن ويستفاد من مجموع الروايات والتواريخ إن ذلك كان فى أواخر أيام الحسن وفى أواخر القرن الأول للهجرة وعلى ذلك يكون إمام الإباضية متقدماً (١) كثيراً على إمام الواصلية المعتزلة • وتكون فلسفة الإباضية فى

(١) ولد جابر بن زيد سنة ١٨ هـ وتوفى سنة ٩٣ هـ على ما رجحه
الامام بيوض ولا أعرف متى ولد الحسن البصرى ولكنه توفى عام ١١٠ هـ
وولد واصل بن عطاء سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٣١ هـ •

الإرادة الإنسانية والعدل الإلهي (القدر) قد تبلورت قبل أن يظهر واصل ابن عطاء لمذهبه » .

وبعد أن يشرح فلسفة الإباضية في القدر يقول :

« وعن هذه الفلسفة كان الإباضية ينافحون ويكافحون ، ضد الفرقتين الضاليتين اللتين أحدثتا بدعة الجبر ، وبدعة خلق الأفعال » .

فأنت ترى أن المذهبين حادثان وأن فلسفة الإباضية أقدم منهما ، وهي متمسكة بالأصل الذي سبق الإجماع عليه .

وأما بدعة الخوارج الذين جعلوا المعاصي كلها شركا يحل بها الدم والمال وسبى الذرية فإنها محدثة كذلك . وكان جابر بن زيد ، وأبو عبيدة مسلم من أكبر تلامذته وعبد الله بن إياض وغيرهم من أتباع الإمام جابر يناظرون الخوارج . وقد نقلنا فيما نقلناه لك قبل . قول صاحب السير في عبد الله ابن إياض : وله مناظرات مع الخوارج وغيرهم أ هـ . وفي السير أيضا ٧٦ قال ضمام : كان جابر يأتي الخوارج فيقول لهم : أليس قد

وبهذا تعلم انه عندما توفي امام الإباضية جابر بن زيد كان واصل بن عطاء مراهقا دون البلوغ . وانه لا يزال في الخطوات الأولى من الدراسة وإذا صح انه لازم الحسن البصري مدة عشرين سنة فإنه يكون قد التحق بمدرسته وعمره أقل من عشر سنوات ضرورة انه انفصل عنه قبل وفاته ومهما يكن فإن جابرا كان قد بلغ الى حد الاستقرار في تلك المشاكل وإن واصل لم يبدأ التفكير فيها بعد . أما ما ذكره الشهرستاني عن وجود واصل أيام عبد الملك فغير واضح لأن عبد الملك توفي سنة ٨٦ هـ وعمر واصل حينئذ يكون ست سنوات . وغير معقول أن يكون واصل في تلك السن المبكرة قد اشتهر وعرف في المجالات العلمية .

حرم الله دماء المسلمين بديانته ... إلخ اهـ . فأنت ترى أن جابر أسبق هذه الفرق وكان يناظرها ، وسلك تلامذته طريقته هذه في المناظرة في حياته وبعد وفاته » . ثم عرض لموضوع خلق القرآن : فشرح رأى الإباضية في الموضوع بإيجاز ووضوح ثم قال : « وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية في تأصيل قضايا العقائد » . انتهى المقصود منه .

ويسرنى في ختام هذا الفصل أن أذكر بالثناء الجم . هذا المجهود القيم الذى بذله المستشرق الكبير نلينو فى هذا البحث الذى كان يهدف منه — فيما يبدو — الى كشف علمى محض ولا يضير هذا المجهود القيم أننا نختلف معه فى بعض الكليات أو الجزئيات ، أو وجهات النظر ، وأن ما كان هو مقتنعاً به ويراه حجة ، لم نقتنع نحن به ، ونراه شبهة تتضاءل عند المناقشة والبحث ، فإن الإخلاص العلمى فى البحث والتجرد له ، كفىل بأن يبعث على الشكر والتقدير .

وهذا ما بدا لنا فى أسلوب نلينو وهو يعالج هذه القضية فنحن نشكره على المجهود القيم . ونختلف معه فى افتراضاته ونتائجه .

اللقاء بين الإباضية وأهل السنة (١)

إن المسائل التي لخصها المستشرق نلينو في سبع نقاط ثم ذكرها كنماذج للخلاف والتباعد بين الإباضية وأهل السنة وزعم أن الإباضية فيها قد تأثروا بالمعتزلة أو استمدوها منهم — هي في الواقع مسائل أخذت كثيراً من الجهد والوقت بين علماء المسلمين كافة بمذاهبهم المختلفة وقد جرى فيها النقاش الدقيق بين علماء المذهب الواحد كما جرى بين علماء المذاهب المختلفة ومحاولة تصوير المذاهب الإسلامية كمعسكرات متناحرة محاولة يسر لها المستشرقون كثيراً ويعملون على تركيزها وقد ساعدتهم على ذلك بعض السطحين من علماء المسلمين في القديم والحديث • ويمثل هذا صارت تلك المسائل بمثابة التسعرات التي يرفعها أصحاب المذاهب ، وكان المتعلمون في المراحل الأولى من الطلب وأشباه العلماء من محبي الظهور يجدون فيها وسائل طيبة ومساعدة على الجدل والشغب والشهرة وحب الظهور تماماً كما يجد العوام في بعض الخلافات الفقهية العملية — كرفع الأيدي عند التكبير ، وتحريك السيابة عند التشهد ، وقراءة البسملة

(١) قال الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه اسلام بلا مذاهب طبعة دار النهضة العربية ص ٣٤٩ ما يلي :

« على أن الشيء الجدير بالمعرفة والاعتبار أن هؤلاء الأئمة ممن ذكرنا لم يعرفوا في زمانهم أو بعده بعدة قرون باسم أئمة أهل السنة ، وإنما كانوا أئمة لعامة المسلمين إلا من رأى غير رأيهم . ذلك أن تسمية جبهة المسلمين بأهل السنة تسمية متأخرة يرجع تاريخها إلى حوالي القرن السابع الهجري أي بعد عصر آخر الأئمة المشهورين وهو ابن حنبل بحوالى أربعة قرون » .

في أول الفاتحة — وسيلة لإظهار المعرفة وبيان شدة التمسك بالدين والمحافظة على السنة •

فإذا ارتفعنا عن هذه المستويات قليلا إلى مستوى أهل العلم وأصحاب التحقيق وجدنا هذه المسائل تدور فيما بينهم على طرفين متطرفين ووسط معتدل يلتقى عليه المذهبان • ولعل أولئك العلماء الذين يتكون منهم الطرف المعتدل هم المحققون حثيثة وأن الطرفين المتطرفين قد أثرت عليهما مؤثرات ذهبت بهما إلى حيث انفتحت بسببهما بين صفوف الأمة ثغرة وجد فيها أصحاب المصالح الخاصة من المسلمين وغيرهم مدخلا لشق العصا وتفريق الكلمة • وبقطع النظر عما إذا كان الإباضية تأثروا في النقاط السابقة بالمعتزلة أو لم يتأثروا بهم وهل هم يتفقون فيها معهم كل الاتفاق أو يختلفون اختلافا جزئيا أو كليا فإننى أحب أن أعرض في هذا الفصل على القارئ الكريم وجوه اللقاء بين الإباضية وأهل السنة في هذه المسائل نفسها • وسوف نعرضها في إيجاز شديد نقطة نقطة كما ذكرها نلينو فيما يلى :

١ — القرآن مخلوق أو قديم •

بدأ الشغب حول هذه الكلمة حين أثارها أبو شاعر الديحاني حسب ما يقول بعض أصحاب المقالات فقال بعض الناس عنه إنه مخلوق وقال آخرون غير مخلوق أو قديم واشتد الجدل بين الطرفين ، فتطرق جانب حتى زعم أن المصاحف والحروف قديمة وتطرق الجانب الآخر حتى نفى صنعة الكلام عن الله تبارك وتعالى وكان بين مجموعة الآراء آراء تقترب من هنا أو من هناك • وقد انتهى المحققون من الإباضية وأهل السنة إلى معرفة ما ينبغى أن يوصف بالقديم وما ينبغى أن يوصف بالحدث فاثبتوا لله تبارك وتعالى صفة الكلام وقالوا هى صفة ذات كالسمع

والبصر والعلم وعبر عنها بعضهم بالكلام النفسى وما عدا ذلك فهو حادث
وغير لهم أن الخلاف بينهم خلاف لفظى — إذا أهملنا جانبى
التطرف — وزيادة على هذا اللقاء على مستوى التحقيق فإن من علماء
أهل السنة من يقول دون تحرج أو احتراز القرآن مخلوق فقد ذكر
الخطيب البغدادى من طرق متعددة عن أبى يوسف أن أبا حنيفة كان
يقول القرآن مخلوق أما أبو منصور الماتريدى فقد كان يقول إنه
محدث ولم يحفظ عنه أنه قال مخلوق • وقد كان أبو النضر العمسانى
من أئمة الإباضية يقول إن القرآن غير مخلوق وأنكر إنكارا شديدا على
من يقول بخاق القرآن • وذهب القطب من أئمة الإباضية أن هذه
المسألة ليست من الأصول وقال أبو إسحاق طيفش إن الخلاف فيها
لفظى • وهذا القدر كاف للدلالة على اللقاء بين المذهبين فى هذه المشكلة
التي أخذت جهودا غير قليل من علماء الأمة واعتبار الخلاف فيها خلافا
لفظيا حين تجرد من أطراف التطرف والعصية • ويكفى أن يلتقى
المسلمون على حقيقتين فى هذا الموضوع هى أن الله تبارك وتعالى
سميع بصير متكلم • وأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل أنزله على
رسوله صلى الله عليه وسلم •

٢ — هل رؤية البارى جل وعلا فى الآخرة ممكنة ؟ !

أحسب أن ما وقع فى مشكلة الرؤية هو نفس ما وقع فى مشكلة
الكلام — وإن كانت مشكلة الرؤية قد أثرت قبل مشكلة الكلام — فقد
كان فيها هى أيضا طرفان متطرفان ووسط معتدل هو مكان اللقاء
بين المذهبين وذلك أن طرف الإثبات يبالغ حتى يصل به التطرف إلى
حد التشبيه والتمثيل والتحديد وطرف النفى يبالغ حتى يصل به

التطرف إلى حد نفى حصول كمال العلم • وبينها يقف أصحاب التحقيق في الجوانب المتقاربة التي تلتقي في المعنى الواحد لقاء كاملاً أو لقاء متقارباً وهذه الصورة تتمثل فيما ذهب إليه بعض علماء أهل السنة من أن الرؤية معناها حصول كمال العلم بالله تبارك وتعالى وعبر عنها آخرون منهم بأن الرؤية تقع بحاسة سادسة هي كمال العلم واختلفت تعابير الكثير منهم ولكنها تتلائم في النهاية على نفى كامل الصورة التي يتخيلها الإنسان لصورة رائي ومرئي وما تستلزمه من حدود وتشبيه وتتفق في النهاية على الابتعاد عما يشعر بأى تشبيه في أى مراتبه وبالمحدودية في كل أشكالها ومنهم من التجأ لكى لا يصطدم بنصوص النفى والإثبات إلى أن هذا من أحوال يوم القيامة وليس لنا أن نخوض فيه بغير القدر الذى جاءت به النصوص والمعتدلون من الإباضية لا يمتنعون أن يكون معنى الرؤية هو كمال العلم به تعالى ويمنعون الرؤية بالصورة المتخيلة عند الناس فإذا كانت هناك حالة لا تدخل تحت هذه القيود ولا تؤدي إلى التحديد أو التشبيه وإنما هي شيء يشبه ما يقوله بعضهم من حصول كمال العلم فلا مانع من ذلك يضاف إلى هذا اللقاء إن الإمام الغزالي يميل في أغلب كتبه إلى نفى الرؤية مطلقاً ومنطلق الجميع في الواقع هو الفرار من التشبيه فالتطرفون من الإباضية يفرون من كل ما يوهم التشبيه ولو بتأويل بعيد فراراً شديداً ويكفون المتطرفون من أهل السنة بنفى التشبيه بالنفى القولى وإن دلت عليه ألفاظهم وأدت إليه تعابيرهم وأحسب أن اعتقاد التنزيه والفرار من التشبيه ثم التماس الحلول التي تلتقي عليها النظرتان في إيضاح مدلول النصوص المتعارضة في الظاهر هو مقدار كاف للدلالة على أن المذهبين ملتقيان لقاء قريباً يمكن أن يعتبر به كلاهما نابعاً من نفس الاتجاه الذى نبع منه الآخر •

٣ — معنى الميزان والصراف :

هذه مسألة من المسائل التي استنفدت جهدا ووقتا ووصل بها التحدى الى صور تكاد تكون هزلية أو بهلوانية • يصر فيها بعض الناس أن يكون الميزان يوم القيامة ذا كفتين ولسان ثم يختار كيف يقع الوزن فيذهب في التصور شوطا بعيدا ويصر بعضهم أن يكون الصراف جسرا فارق جهنم وأن يكون أرق من الشعرة وأحد من السيف ثم يتسابق الناس عليه فمن وقع منهم كان مصيره إلى النار وهم في سباقهم هذا بحسب أعمالهم أحسب أن هذا التصور يجب أن يرتاح اليوم وإذا كان العلم البشرى منذ ذلك العهد إلى هذا العهد قد اكتشف أنواعا من الموازين والمقاييس لم يبلغ إليها خيال المتخيلين في ذلك العصر وأنه يصور البحث عن مقاييس للذكاء والعقل وما إلى ذلك — فكيف للإنسان اليوم أن يصف موازين الله لأعمال الإنسان يوم القيامة • إن كلا من الإباضية وأهل السنة مؤمنون أن الله سبحانه وتعالى يوم الجزاء يفصل بين عباده وأن قوله تعالى الفصل ، ووزنه الحق ، وحكمه العدل •

ويكفى هذا اللقاء بينهما •

٤ — تأويل ما يفهم التشبيه :

هذه النقطة أصبح أغلب أهل السنة من الأشعرية والماتريدية يقولون فيها بما يقول به الإباضية واللقاء بينهما فيها تام • وكلهم يرى أن كل كلمة وردت في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة تشعر بالتشبيه يجب أن تؤول بما يؤدي المعنى ولا يدل على التشبيه •

يقول الأستاذ على مصطفى الغوابي في كتابه تاريخ الفرق ص ٨٩
ما يلي :

(أ) الخوارج تقول ان مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر •

(ب) المرجئة تقول هو مع فسقه وفجوره مؤمن •

(ج) الشيعة تقول هو مع فسقه وفجوره فاسق •

(د) الحسن البصري يقول هو مع فسقه وفجوره منافق •

هذا ما يقوله الأستاذ الغوابي ويبدو لي أنه لم يذكر أهل السنة لأنه يرى أنهم يدخلون في قسم المرجئة ولم يذكر الإباضية لأنه يرى أنهم يدخلون في قسم الخوارج • ولكن الواقع ليس كذلك فأهل السنة ليسوا مرجئة والإباضية ليسوا خوارج • لأن أهل السنة لا يذهبون إلى ما ذهبت إليه المرجئة من قولهم « لا تضر مع الإيمان معصية » بل إن الماتريديّة منهم يرون كما يرى الإباضية أن الوعيد لا يتخلف كما لا يتخلف الوعد ولأن الإباضية لا يرون رأى الخوارج وإنما يرون رأى الحسن البصري فيعتبرون مرتكب الكبيرة منافقا وليس مشركا • وهنا يلتقى الإباضية وأهل السنة لقاء كاملا — بقطع النظر عن التسميات — فينتفون جميعا أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب يدخل النار • أما معاملته في الدنيا فتى لا تختلف عن غيره من المسلمين •

فاللقاء في هذه النقطة بينهما كامل •

٦ — عذاب النار أبدى (الخلود) :

هذه قضية متفرعة عن القضية السابقة وقد جرى فيها جدل كثير وضح الإمام الغزالي إلى جانب الخلود وقال قطب الأئمة من الإباضية في رسالته إزالة الاعتراض أن خلود الموحّد وعدمه ليس من الأصول التي يكون بها تفسيق معتقد أحدهما •

ويكفى هذا لقاء بين المذهبين •

٧ — صفات الله ليست زائدة على ذات الله :

موضوع الصفات من أهم المواضيع التي جرى فيها النقاش الكثير والجدل المتواصل فبينما يقول بعض الأشاعرة أن صفات الله تبارك وتعالى غير ذاته يقول الماتريدية من أهل السنة أن الصفات ليست شيئاً غير الذات فهي ليست صفات قائمة بذاتها ولا منفكة عن الذات فليس لها كينونة مستقلة عن الذات • وهذا هو ما يقوله الإباضية في الصفات أيضاً وربما يلتقى الإباضية والماتريدية في هذه المسألة حتى في التعبير واختيار الكلمات وهناك من الأشاعرة من يقول بقول الإباضية في بعض الصفات كالوجود والبقاء ومنهم من يقول بذلك في جميع الصفات ولعل الإمام الغزالي يميل إلى هذا الجانب • أحسب أن هذا المتدارك يكفى في اللقاء بين أهل السنة والإباضية في موضوع الصفات •

٨ — القدر :

يبدو أنه لا خلاف بين الإباضية وأهل السنة في موضوع القدر وأن المستشرق نلينو مقتنع بذلك •

بعد هذا العرض الموجز أريد أن أقول إن المنتسبين إلى أهل السنة عدد كبير من الفرق الإسلامية وهي تختلف اختلافاً بيناً في جميع هذه المشاكل وفيها متطرفون إلى كلا الجناحين فمنهم من يتطرف إلى التشبيه أو قريب منه ومنهم من يتطرف إلى الجانب الدنانى حتى يكاد يكون صدى للمعتزلة ولعل الظاهرية وبعض المتشددين من الحنابلة والتمييين يمثلون الجانب الأول ، الجانب المحافظ أو الجاحد إن أبعدنا لأنفسنا أن نستعمل هذا التعبير ولعل الماتريدية والإمام الغزالى يمثلون الجانب المتحرر .

والإباضية فى جميع المسائل السابقة يلتقون مع بعض الأئمة أو الفرق من هؤلاء ، فلو أردنا التفصيل لقلنا إنهم يلتقون مع الأغلبية المطلقة فى تأويل المتشابه والقدر .

• ويلتقون مع الكثير فى الصفات ومرتكب الكبائر .

ويلتقون مع بعض الأئمة فى صفة الكلام (القرآن مخلوق أو غير مخلوق) والرؤية والخلود .

وأعنى بالبقاء أن أحد الفرقتين تقول بنفس ما تقول به الأخرى أحياناً وتختلف عنها أحياناً فى الإجمال وتلتقى فى التفصيل وتختلف عنها أحياناً فى المشهور ويوجد فى إحدى الطائفتين علماء يميلون إلى ما تقول به الطائفة الأخرى فى كثير من الأوقات ولن تجد عند التحقيق انقطاعاً كاملاً بينها أبداً فى جميع المسائل اللهم إلا إذا سلك مسلك المتطرفين من أحد الفريقين ولا شك أن هذه المقارنة يمكن أن

تجرى أيضا مع أهل السنة والمعتزلة أو مع الإباضية والمعتزلة وربما يكون فيها اللقاء مثل هذا أو قريبا من هذا • فإن جميع هذه الفرق إنما تصدر عن منبع واحد هو كتاب الله وسنة رسوله رغم ما يقوله القائلون في الخلاف ورغم ما أدى إليه الاجتهاد بسبب اختلاف الفهم والاعتناع بمنطقية الدليل •

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	
٥	يا أخى فى الله
٦	قيل عن الإباضية
٩	مقدمة
١٢	الباب الأول
١٤	الإباضية فى قفص الاتهام
١٩	القسم الأول (مع القدماء)
٢١	الإباضية عند الأشعرى
٢٩	تشنيعات الأشعرى على الإباضية
٣٧	مقالات الإباضية عند الأشعرى
٤٣	البغدادى والإباضية
٥٢	ابن حزم والإباضية
٦١	أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية
٦٦	أبو الفتح الشهرستانى والإباضية
٧٣	الباب الثانى
٧٥	مع المعاصرين
٧٦	مع الأستاذ على مصطفى الغوابى
٩٧	مع أبى زهرة
١١٣	مع عبد القادر شيبية الحمد
١٢١	خلاصة مذهب الإباضية
١٢٥	مع الدكتور هويدى

